مكتبة الأسرة
مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٤

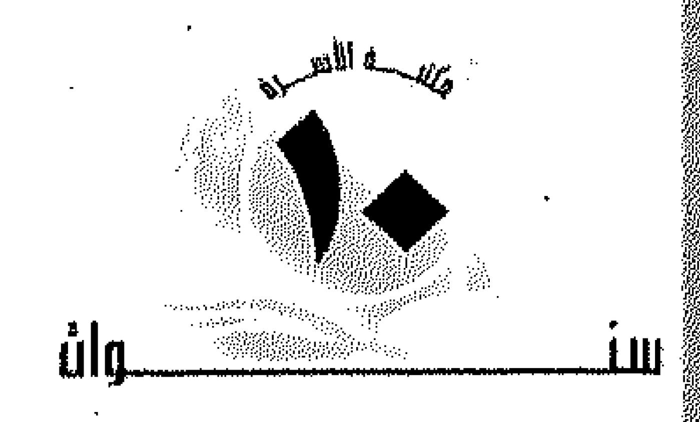
برنارد لويس

الإسلام وأزمة العصر

حرب مقدسة وإرهاب غير مقدس



ترجمة : أحمد هيكل
تقديم ودراسة : رءوف عباس





الإسلام وأزمة العصر

« حرب مقدسة وإرهاب غير مقدس »

تأليف

برنارد لويس

ترجمة

أحمد هيكل

تقديم ودراسة

رءوف عباس



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٤
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الدينية)

بالتعاون مع المجلس الأعلى للثقافة
(المشروع القومى للترجمة)
إشراف : عادل النحاس

الإسلام وأزمة العصر
«حرب مقدسة وإرهاب غير مقدس»
تأليف : برنارد لويس
ترجمة: أحمد هيكل

الغلاف والإشراف الفنى :
للفنان : محمود الهندى
للفنان : محمد كامل

الإخراج الفنى والتنفيذ:
صبرى عبدالواحد

الإشراف الطباعى:
محمود عبدالمجيد

المشرف العام :
د . سمير سرحان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

السيدة التى جعلت من الكتاب وطنًا !

د. سمير سرحان

مرت عشر سنوات منذ إنشاء «**مكتبة الأسرة**» وأذكر أنه كان يومًا مشهودًا، حين جلسنا مع عدد من المثقفين والوزراء والمفكرين حول تلك السيدة العظيمة التى كانت عيناها تشخص إلى السماء حيث أحلام كثيرة تدور بذهنها الذى لا يتوقف عن التفكير أبدًا.

كانت منذ سنوات قد أنهت رسالتها من الماجستير، التى كان من نتائجها ضرورة إصلاح أحوال المدارس الابتدائية، ورفع مستواها العلمى والتعليمى، وحتى مستوى الأبنية والخدمات.. فكان الأساس فى ذهنها، كما أدركت بعد ذلك معظم الدول الكبرى أن العملية التعليمية هى أهم ما يميز الأوطان، وأن الطفل الذى يمثل البذرة الأولى فى بناء مستقبل أى وطن هو البداية الحقيقية، كنا نتعجب جميعًا فى صمت ونحن جالسون حول تلك المائدة الصغيرة.. لماذا لم يفكر أحد من قبل فى الطفل، ولا أعنى صحته فقط، أو ما قد يصيبه من أمراض، أو مستوياته الاقتصادية والاجتماعية.. لماذا لم يفكر أحد فى الطفل الإنسان؟! أى فى عقل الطفل ووجدانه، والانطباعات المختلفة، التى يكتسبها من عملية التعلم، وبخاصة من القراءة الحرة، وليس قراءة الكتب المدرسية فقط.

وكان الطفل المصرى فى ذلك الوقت معتادًا أن يمسك بالكتاب المدرسى ويصب عليه كل ما فى طاقته من كره وسخط، ويحفظه حفظًا آليًا بلا فهم، ويُفرّغ هذا الفهم على الورق لينجح وينتقل من سنة دراسية إلى أخرى، أما فى

آخر السنة فكانت العادة أن يرمى الكتاب المدرسى من النافذة، كأنه قد تخلص من عبء ثقيل.

كانت السيدة العظيمة، التى قُدّر لها أن تعنى بمستقبل مصر، وأن تكرس حياتها لبناء هذا المستقبل، تفكر فى الطفل كإنسان، وكعقل، وكروح،.. لقد اكتشفت أن كل ذلك لا يأتى إلا بالقراءة، والقراءة خارج المقرر الدراسى، كما لا يأتى أيضًا إلا من خلال كتاب يوضع فى يده ليحبه شكلاً ومضمونًا، ويحتضنه فى سريره وهو نائم، ويطلق من خلال المادة التى يقرؤها فيه، العنان لخياله، فيسافر من خلال هذا الكتاب إلى عالم سحرى من الأماكن والأفكار والمشاعر والرؤى.

لمعت العينان الذكيتان بعمق الفكرة، وأهميتها لوطن يبنى نفسه ويضع نفسه على مشارف القرن الحادى والعشرين، وبعد أربع سنوات من افتتاح المكتبات العامة فى الأحياء الفقيرة والمُعدَمة، كانت الفكرة الرائدة قد اكتملت فى ذهنها فأصبحت سوزان مبارك صاحبة أعظم مشروع ثقافى فى القرن العشرين وأوائل الحادى والعشرين.. **«مكتبة الأسرة»**.

وكانت فكرة مكتبة الأسرة بسيطة وعميقة فى نفس الوقت، وهى أن نقوم بغرس عادة القراءة فى نفوس ملايين أبناء الشعب الذين لم يكن الكتاب من قبل جزءًا من حياتهم.. وأعتقد أن هذا الهدف قد نجح تمامًا، فقد كان بعض من يسخرون من الشعب المصرى، محاولين الحط من قدره يصفونه بأنه شعب **الفول والطعمية**، وأعتقد أنه الآن وبعد عشر سنوات من صدور مكتبة الأسرة، أصبحوا يسمونه بلا تردد شعب الكتاب والقراءة والعلم والمعرفة.. لكن الهدف الأعمق والأسمى كان إعادة بعث التراث الأدبى والفكرى والعلمى والإبداعى الحديث لهذه الأمة، وهذا يؤكد بالفعل لا بالكلام ريادتها وقيادتها الثقافية والفكرية فى عالمنا العربى، كما يؤكد عظمة ما جاء به عصر التنوير المصرى لينقل العالم العربى كله من عصور الظلام المملوكية والاستعمارية إلى شعوب

تعيش عصر العلم والتقدم، وتبنى شخصيتها الثقافية وحضورها الثقافى على مدى العالم..

وها قد أصبحت مكتبة الأسرة بعد عشر سنوات من الجهد المضنى والمتواصل تقدم أكثر من عشرة ملايين كتاب موجودة الآن فى كل بيت مصرى، تحمل صورة السيدة التى فكرت ونفذت هذه الذخيرة من الفكر والإبداع التى تثرى عقل ووجدان كل مواطن طفلاً كان أم شابًا، ليس فى مصر فقط، وإنما فى العالم العربى كله.. وأصبحت المادة التى تضمها هذه الكتب هى أساس راسخ لتكوين مواطن المستقبل، وأصبحت معظم الدول العربية والمؤسسات الدولية تطلب تطبيق التجربة المصرية على أرضها.

هل كان مجرد حلم لسيدة عظيمة شخصت بنظرها إلى السماء باحثة عن المستحيل، أم كان مجرد حلم رائع، هائل القيمة والحجم وتحقق.. تحية لهذه السيدة العظيمة «**سوزان مبارك**»، واحترامًا وحبًا بلا حدود على قدرتها لتخيل المستقبل، وبناء إنسان جديد لوطن جديد.

وستظل صورة السيدة **سوزان مبارك** موجودة على كل كتاب، وفى كل بيت تُذكّر كل مصرى أن الحلم الحقيقى ليس بالمال، وليس بالتهافت على الماديات، إنما هو «**المعرفة**» وبدون معرفة فى هذا العصر لا يوجد وطن، وإذا فقد الإنسان الوطن فقد ذاته.. بل فقد كل شىء يربطه بهذه الحياة.

د. سمير سرحان

أزمة الإسلام أم أزمة العصر ؟

طوال الفترة التى استغرقتها ترجمة هذا الكتاب تساءلت كثيرا عن مدى دقة عنوانه بالإنجليزية "أزمة الإسلام" The Crisis of Islam فى الدلالة على ما يحتويه حتى بالنسبة للقارئ الأمريكى. لذا رأيت أن أجعل عنوان الترجمة العربية "الإسلام وأزمة العصر" لسببين أساسيين :

أولا – أن محتوى الكتاب، مع أن مؤلفه يوصف بأنه أحد كبار رواد الدراسات الإسلامية فى هذا العصر، يبتسر من السياق الإسلامى الصحيح أمورا يتخذها مقدمات يبنى عليها استنتاجاته. وإذا كانت المقدمات قاصرة أو خارج سياقها، فلابد من أن تكون النتائج هى الأخرى كذلك. ومن أسف أن هذه المعرفة القاصرة بالإسلام والنتائج التى تنبنى عليها أصبحت ظاهرة منتشرة، ولعلها كانت كذلك منذ زمن طويل، فى كثير من بلاد الغرب ولاسيما لدى غير المتخصصين أو المعنيين بالموضوعية أو بفهم الأمور على وجهها الصحيح.

ثانيا – أن كثيرا من المسلمين، بل ومن الدول الإسلامية، يتصرفون وكأنهم وحدهم يمتلكون الحقيقة المطلقة فى فهم الإسلام كدين وشريعة، ويتناسون كثيرا مما جاء فى القرآن الكريم حول وسطية الإسلام وأن "لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا".

لذا فإن الظواهر التى يتحدث عنها هذا الكتاب وينسبها إلى الإسلام لا ترجع إلى الإسلام من حيث هو ولكن إلى القصور من الجانبين فى فهمه واستيعابه، وكذلك إلى ظروف وسياسات أخرى لا علاقة لها بالإسلام. ولذا ربما كان من الأدق فى التعبير عن محتوى الكتاب أن يكون هو "الإسلام وأزمة العصر".

المترجم

تقديم ودراسة

بقلم : رءوف عباس

أزمة الضمير عند برنارد لويس

لعل مستشرقا لم يحظ بالشهرة الإعلامية الواسعة فى الغرب ، تتردد أصداؤها فى العالم كله، مثلما حظى برنارد لويس، الذى يعدونه " عميد دراسات الشرق الأوسط "، و " حجة تاريخ الإسلام والعرب" ، بل و " حكيم العصر ". وتتسع دائرة " الترويج " له فى جميع أجهزة الإعلام الغربى المقروءة والمسموعة ، وتتوفر معلومات عنه على ما يزيد على ستين موقعا على " الإنترنت "، تضم معلومات عن كتبه ، ونصوص بعض مقالاته ، ومحاضراته ، وأحاديثه ومقابلاته الصحفية والإذاعية ، تتصدرها جميعا – تقريبا – بصورة " نمطية " سيرته الذاتية المختصرة التى وضعها على موقع جامعة برنستون .

ورغم هذه الشهرة الواسعة ، لم يضف برنارد لويس إلى الدراسات التاريخية المتصلة بالإسلام والمسلمين سوى رسالته للدكتوراه عن " الطائفة الإسماعيلية وجماعة الحشاشين " ، وحتى هذه تجاوزتها بحوث العديد من المؤرخين فى الغرب والشرق . غير أنه تبنى مشروعا ظاهره " علمى" ، ولكن جوهره سياسى محض ، وهو تقديم صورة الإسلام إلى الغرب كما تعكسها مرآة لويس ، الذى يريد أن يرسخ فى أذهان قارئه صورة سلبية للإسلام تخدم توجهه الصهيونى المحض ، وما هذا الكتاب الذى نقدمه للقارئ العربى إلا نموذجًا فجًا لأسلوب لويس فى تقديم الإسلام والمسلمين للغرب .

ترى .. من هو برنارد لويس ، وما دلالة ما يقدمه من أعمال عن الإسلام والمسلمين ؟

ولد برنارد لويس بمدينة لندن عاصمة بريطانيا فى مايو ١٩١٦ لأسرة يهودية إشكنازية ، لعلها نزحت إلى بريطانيا فى القرن التاسع عشر مع موجة الاضطهاد الذى عاناه اليهود فى وسط أوروبا فى ذلك الحين ، فلا تتوفر لدينا معلومات محددة عن البلد الذى نزحت منه عائلة لويس أو تاريخ ذلك النزوح ، لأن برنارد لويس لا يذكر فى سيرته الذاتية المختصرة - التى كتبها بنفسه وأودعها موقع جامعة برنستون بالشبكة الدولية للمعلومات (الإنترنت) - شيئًا عن أصوله ، كما لم يشر إلى عائلته ، وطفولته ، وتعليمه العام ، مكتفيا بالإشارة إلى تعليمه العالى . غير أن التحاقه بجامعة لندن فى أوائل الثلاثينيات يوحى بانتمائه إلى أسرة ثرية ، فحصل على درجة الليسانس الممتازة فى التاريخ من مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن عام ١٩٣٦ ، كما حصل على درجة الدكتوراه فى تاريخ الإسلام من نفس المدرسة عام ١٩٣٩ ، وأثناء إعداده لرسالة الدكتوراه ، قضى فترة بجامعة باريس (السوربون) ، كما قام بجولة فى بلاد الشرق الأوسط استغرقت بضعه شهور.

وقبل حصوله على درجة الدكتوراه بعام واحد عين مدرسا مساعدا بمدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية ، غير أنه ترك العمل بالجامعة خلال سنوات الحرب (١٩٤٠ - ١٩٤٥) ليلتحق بخدمة المخابرات العسكرية البريطانية . وعاد للعمل بالجامعة حتى عام ١٩٧٤ ، ولكن صلته بالمخابرات البريطانية ووزارة الخارجية البريطانية لم تنقطع ، فقد ظل مصدرا مهمًا يتم الرجوع إليه طلبا للمشورة فى كل ما يتصل بشئون الشرق الأوسط .

ولعل ذلك يفسر انصرافه عن دراسة تاريخ الإسلام الوسيط ، واتجاهه - بعد الحرب العالمية الثانية - إلى دراسة تاريخ الشرق الأوسط الحديث ، فنشر كتابا عن " قيام تركيا الحديثة" ، وآخر عن " تكوين الشرق الأوسط الحديث" ، ثم أعاد نشر نفس الكتاب بعنوان " تاريخ الشرق الأوسط فى ألفى العام الأخيرة " بعد أن أضاف إليه فصلين غطى فيهما جانبا من التاريخ القديم (بما يخدم دعاوى الصهيونية فى فلسطين) ، وقدم عرضا مختصرا للتاريخ الوسيط . كما نشر كتابا أعاد فيه ترتيب مادة نفس الكتاب ، أعطاه عنوان :" تعدد الهويات فى الشرق الأوسط " . وقد استخدم لويس رصيده المعرفى المتواضع عن تاريخ الإسلام فى صياغة الأفكار التى يطرحها فى

كتبه ، وهو رصيد ضحل ، يشي بالقصور في متابعة ما حققه هذا الحقل الأكاديمي من تطور بعد الحرب العالمية الثانية في الغرب ذاته . والأفكار التي يطرحها برنارد لويس في كتبه سياسية محضة ، موحية لصناع القرار في الغرب ، وموجهة للرأى العام الغربي لإقناعه بصورة الإسلام والمسلمين والعرب كما يرسمها لويس، مغلفة بغلالة أكاديمية رقيقة لإضفاء بعض المصداقية عليها.

وبعد أفول نجم الهيمنة البريطانية في الشرق الأوسط ، واضطرار بريطانيا إلى تنفيذ سياسة " الانسحاب شرق السويس" عام ١٩٧١ ، ليسدل بذلك الستار على النفوذ البريطاني في الإقليم ، وتصبح الولايات المتحدة الوريث الطبيعي للمصالح الغربية في الإقليم ، وجد برنارد لويس أن وجوده في بريطانيا لم يعد له جدوى ، وأن مكانه الطبيعي هناك ، في الولايات المتحدة ، حيث مركز التأثير في صناعة القرار الغربي في الشرق الأوسط . وخاصة أن صهيونية الرجل حقيقة لا مراء فيها ، أكدها في كتاباته ، ومقالاته الصحفية ، وأحاديثه الإذاعية المسموعة والمرئية ، ومحاضراته العامة . ويكفي أن درجتين من بين درجات الدكتوراه الفخرية الثماني التي حصل عليها ، جاءتا من إسرائيل ، وتحرص الجامعة العبرية بالقدس على الاحتفال بعيد ميلاده في خضم الاحتفال بقيام الدولة العبرية ، ويحرص لويس – سنويا – على حضور تلك المناسبة العزيزة على قلبه .

وهكذا جاء انتقال لويس إلى جامعة برنستون بالولايات المتحدة عام ١٩٧٤ أمرا منطقيا ، بعد ما ترك خلفاء له بمدرسة الدراسات الشرقية بلندن عرفوا بمشايعتهم للصهيونية ، من أمثال فاتيكيوتس وياب. وفي أمريكا تولى برنارد لويس قيادة اللوبي الصهيوني في حقل دراسات الشرق الأوسط ، والدراسات الإسلامية بالجامعات الأمريكية ، من صنائعه الذين انتشروا في أقسام ومراكز بحوث الشرق الأوسط والدراسات الإسلامية بالجامعات الأمريكية ، ممن يلعبون دور الخبراء العالمين ببواطن الأمور ، الذين يقدمون المشورة لأعضاء الكونجرس ، ومجلس الأمن القومي ، والخارجية ، ووزارة الدفاع (البنتاجون) ، يتقدمهم لويس ، ويفتح أمامهم أبواب مراكز التأثير في صناعة القرار الأمريكي عامة ، وما اتصل منه بالشرق الأوسط خاصة.

وظـل برنارد لويس أستاذاً لدراسات الشرق الأدنى بجامعة برنستون حتى تقاعد (رسميا) عام ١٩٨٦ عند بلوغه سن السبعين ، ولكنه أصبح منذ ذلك التاريخ أستاذا فخريا Professor Emeritus ، وهو مركز لا يشغله في جامعات الغرب إلا النخبة من العلماء البارزين ، ولكنه يحتل موقعا مؤثرا في صنع السياسة الأمريكية ، شهد به بول وولفوڤتز Paul Wolfowitz – نائب وزير الدفاع الأمريكي – في الكلمة التي وجهها للمحتفلين بالعيد السادس والثمانين لميلاد برنارد لويس بمدينة تل أبيب عام ٢٠٠٢ ، حين قال :

" استطاع برنارد لويس أن يضع – باقتدار – علاقات وقضايا الشرق الأوسط في سياقها الرحب بموضوعية وأصالة ، وفكر ثاقب مستقل .. لقد علمنا برنارد كيف نفهم التاريخ المهم والمركب للشرق الأوسط ، وكيف نهتدي به لتحديد وجهتنا التالية لبناء عالم أفضل للأجيال القادمة " .

ومضى وولفوڤتز في حديثه ليشير إلى أن الإدارة الأمريكية اهتدت بعلم برنارد لويس في صياغة سياستها " للحرب ضد الإرهاب " باعتباره " المنظر الأساسي Chief Ideologue لكل ما اتصل بالعالم العربي والإسلام .

والواقع أن لويس لعب – على ضوء تصريحاته وأحاديثه وكتاباته – دور المنظر لليمين المحافظ الجديد وإدارة بوش الابن ، في صياغة السياسة العدوانية المعادية للعرب ، والداعمة للبلطجة الإسرائيلية في المنطقة ، والداعية للاستخدام المفرط للقوة العسكرية الأمريكية في الإقليم. ويقف دونالد رامسفيلد وزير الدفاع ، ونائبه وولفوڤتز على رأس مريدي برنارد لويس . ولا أدل على ذلك مما نشرته صحيفة USA Today في عددها الصادر يوم ٢١ سبتمبر ٢٠٠١ ، من أن اجتماعا عقد في ١٩ سبتمبر ٢٠٠١ (كان موعده قد حدد سلفا قبل أحداث ١١ سبتمبر) لمجلس مستشاري وزارة الدفاع رأسه ريتشارد بيرل Richard Perle وحضره برنارد لويس . كما التقى الرئيس بوش ، ونائبه ديك تشيني ، ودعي لعشاء عمل مع الأخير ورامسفيلد ووولفوڤتز بعد حادث ١١ سبتمبر بأسبوع واحد ، وضعت فيه خطة ضرب العراق . وصرح مسئول أمريكي (لم يذكر اسمه) لمجلة نيويوركر The New Yorker في أبريل ٢٠٠٢

أن برنارد لويس نصح الإدارة الأمريكية بعدم الاهتمام بالتحذيرات القائلة بضرورة تجنب اشتعال الشارع السياسي العربي ضد أمريكا ؛ لأن الناس في ذلك المكان من العالم لا يفهمون إلا منطق القوة والحزم .

وعلى ضوء ما تقدم كان صدور كتاب لويس: " أين الخطأ ، التأثير الغربي واستجابة المسلمين " الذى نقله إلى العربية محمد عنانى ، ونشرته سطور عام ٢٠٠٣ ، وكذلك هذا الكتاب " أزمة الإسلام ، حرب مقدسة وإرهاب غير مقدس " الذى نقله إلى العربية أحمد هيكل ، وينشره المجلس الأعلى للثقافة فى إطار المشروع القومى للترجمة.

ولا يعنى نشر الكتابين بالعربية ، تزويد القارئ العربى بفيض من المعرفة عن تاريخه القومى وثقافته العربية الإسلامية ، فرغم ما يحظى به لويس من صيت عريض فى الغرب ، لا تضيف معلوماته عن الإسلام شيئا مفيدا للقارئ العربى ، وما يتردد من أصدائها عند الرأى العام الغربى الذى أصبح الإسلام عنده يعنى - بفضل لويس وبطانته - الإرهاب والتعصب ورفض الآخر. هدف الترجمة أن يقف القارئ العربى على مصدر الأفكار المؤثرة فى رسم السياسات العدوانية تجاه العرب والإسلام والمسلمين التى يتبناها المحافظون الجدد فى الإدارة الأمريكية فى تناغم تام مع الصهيونية ، وهدفها أيضا لفت الأنظار إلى ميدان ما يسمى بدراسات الشرق الأوسط فى الغرب الذى يقع تحت هيمنة اللوبى الصهيونى فى توافق تام مع التأثير الصهيونى على الإعلام الأمريكى الذى يصوغ وعى الرأى العام هناك ، ويؤثر على فهمهم لنا تأثيرا سلبيا ، ويستدر تأييدهم للسياسات العدوانية ضدنا لصالح الصهيونية . وأخيرا تأتى ترجمة الكتابين حافزا للنخبة العربية المثقفة لمواجهة افتراءات اللوبى (الأكاديمى) الصهيونى بقيادة لويس ، وتفنيدها ، وكشف بهتانها وضلالها .

يحرص برنارد لويس على أن يوهم قارئه بأن ما يقدمه له يمثل رؤية علمية محايدة منزهة عن الهوى ، ملتزمة الموضوعية ، حتى يقتنع القارئ بما يقدمه له من أفكار . ففى كتابه " الإسلام فى التاريخ" Islam in History - مثلا - يقول:

" قد يؤثر الانتماء الفكرى للمؤرخ على اختياره لموضوع بحثه ، ولكنه لا يجب أن يؤثر على تناوله له . فإذا وجد أن الجماعة التى ينتمى إليها تبدو له دائما على صواب ،

وأن الجماعات الأخرى التى تواجها دائما على خطأ ، وجب أن يشار عليه بضرورة إعادة النظر فيما توصل إليه من نتائج الدراسة ، وأن يعيد النظر فى الفرضيات التى اختار على أساسها أدلته وشواهده ، وقام بتفسيرها . لأنه ليس من طبائع البشر (ومن بينهم المستشرقين) أن يكونوا دائما على حق .

وأخيرا يجب أن يكون المؤرخ منصفا وأمينا فى عرض مادة موضوعه ، وليس معنى ذلك أن يلزم نفسه حرفيا بترديد الحقائق الثابتة . إذ عليه أن يصوغ فرضياته فى مختلف مراحل دراسته ، وأن يستخلص منها النتائج . ولكن من الأهمية بمكان أن يفعل ذلك بطريقة واعية لا لبس فيها ، فيعرض الأدلة والشواهد فى مواجهة ما توصل إليه من نتائج ، مختبراً مختلف التفسيرات الممكنة ، ثم يحدد رأيه ، ويبين الطريقة التى استند إليها فى هذا التحديد ، ويبسط علة ذلك" .

ولكن هيهات أن يدرك القارئ أن ما يقدمه لويس عن الإسلام له شبهة موضوعية، ونزاهة، وخلو من الغرض، والتزام الحقيقة الساطعة كما جاءت فى مظانها، بل يجد القارئ نفسه يتعامل مع رسالة " سياسية" تطفح بالكراهية للإسلام والمسلمين. وخاصة العرب ، وتفيض بالانحياز للصهيونية.

يبدو ذلك واضحا فى كل ما ألفه برنارد لويس بعد الحرب العالمية الثانية، ويتخذ صورة فجة فى كتابيه : " أين الخطأ ؟" و" أزمة الإسلام " على وجه الخصوص. فقد كان الكتاب الأول يطبع عندما وقع حادث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ، وصدر فى غضون الأسابيع التى تلته، فتخاطفته الأيدى، ولقى اهتماما واسعا، فتعددت العروض التى كتبت عنه فى الصحف والمجلات . لأنه قدم الإسلام والمسلمين فى إطار معين باعتبارهم " خطراً " موجهاً ضد الغرب ، وأكد عداء الإسلام للمسيحية ، بل رفضه لغيره من الأديان والثقافات الأخرى ، وذهب إلى أن المسلمين يعادون السامية بدليل موقفهم الرافض لدولة إسرائيل . وأورد فى خاتمة الكتاب نفس المقولات التى جاءت بكتبه السابقة ، فالمسلمون لا يحسنون استيعاب ما اقتبسوه من الغرب ، فباءت مساعيهم للحاق بركب المدنية الحديثة ، مدنية الغرب ، بالفشل الذريع ، فراحوا يبحثون عن" كبش فداء" هنا وهناك ، لتبرير تخلفهم ، وعجزهم وقصورهم ، ويصبون جام

غضبهم على الغرب ، دون أن يدركوا ما وقعوا فيه من أخطاء هى – عنده– رفض الحضارة الغربية والعداء للسامية . وينتهى إلى نتيجة واحدة : فالمسلمون قوم أوغاد بطبعهم ، يكرهون الآخر ، ويريدون ذبح الغرب واليهود انتقاما لعجزهم وتخلفهم.

وجاء حادث ١١ سبتمبر ، ونسبته إلى " القاعدة" ، ليجعل من برنارد لويس فيلسوف ما سمى " الحرب ضد الإرهاب" ، وبات الإرهاب – فى نظر الرأى العام الغربى – يمثل الوجه الآخر للإسلام ، بفضل أبواق الدعاية الإعلامية ، و"حكمة" برنارد لويس ، وجهود تلاميذه من أقطاب اللوبى الصهيونى المهيمن على حقل دراسات الشرق الأوسط بالولايات المتحدة الأمريكية من أمثال : مارتن كريمر **Martin Kremer** ، وستانلى كيرتز **Stanley Kurtz** ، ودانيال پايپس **Daniel Pipes** وغيرهم.

ونشط برنارد لويس خلال عامى ٢٠٠١و ٢٠٠٢ فى إلقاء المحاضرات ، وكتابة المقالات، أو إعادة ترتيب مادة بعض المقالات ، ثم نشرها بعناوين جديدة (تماما كما فعل فى كتبه) ، ليزرع فى أذهان قراءه وسامعيه أن ما حدث فى ١١ سبتمبر ليس غريبا ، بل يعبر عن جوهر الإسلام والمسلمين ، فالدين الإسلامى جعل " الجهاد" فريضة على كل مسلم ، والجهاد يعنى القضاء على غير المسلمين باعتبارهم كفاراً .

وفى عام ٢٠٠٣ ، جمع برنارد لويس مادة تلك المقالات والأحاديث والمحاضرات ، وأعاد ترتيبها ترتيبا يتنافى مع ما سبق أن أوردنا من حديثه عن " الموضوعية" و" النزاهة" ، والتزام " الحيدة" فيبدو التحيز ضد الإسلام والمسلمين واضحا من العنوان الذى اختاره للكتاب " أزمة الإسلام ، حرب مقدسة وإرهاب غير مقدس".

وقد سبق أن قمنا بدحض افتراءات لويس التى جاءت فى كتابه " أين الخطأ" ، وبينّا فساد ما توصل إليه من نتائج، استنادا إلى أعمال مؤرخين ينسبون إلى الغرب، ونشروا أعمالهم بالإنجليزية والفرنسية، وسوف نتناول كتاب " أزمة الإسلام " بنفس المنهج معتمدين – أيضا – على كتابات لبعض المستشرقين المشهود لهم بالتعمق فى فهم الإسلام ، وأهله، وثقافته، ومعرفة مصادر دراسته، وامتلاكهم لناصيتها، ولم نشأ الاستشهاد بأعمال المؤرخين العرب والمسلمين المحدثين حتى نضع عمل لويس فى إطار أدبيات الاستشراق، ليقف القارئ على وزنه الفعلى بين تلك الأدبيات.

اختط لويس لنفسه منهجا خاصا به ، يقوم على التقاط بعض الشواهد ، دون النظر إلى سياقها، ثم استخلاص نتيجة معينة منها، وتعميم هذه النتيجة على الإسلام كله، أو على المسلمين جميعا، حسبما اتفق ذلك مع الغرض الذى كتب لويس من أجله ما كتب. ومقدمة هذا الكتاب " أزمة الإسلام" نموذج لمنهج برنارد لويس الفريد فى بابه. فهو يبدأها بسقوط الخلافة على يد مصطفى كمال (أتاتورك) بعد هزيمة الدولة العثمانية فى الحرب العالمية الأولى، وقيام دولة تركيا الحديثة، باعتباره حدثا جللا أصاب " النظام السياسى " الإسلامى فى مقتل لصالح النظام السياسى الغربى . لماذا؟ لأن "الخليفة" كان الرئيس الدينى والسياسى للدولة الإسلامية والمسلمين، ولذلك حاول بعض حكام المسلمين أن يحصل لنفسه على المنصب الشاغر، كما تعلقت آمال المسلمين باستعادة الخلافة ؛ على نحو ما يرد على لسان " أسامة بن لادن"، ويشرح لقارئه مدى أهمية الخلافة. فمنذ وفاة الرسول تولى رئاسة الأمة والدولة من حمل لقب " الخليفة " وكان " خليفة رسول الله " فى أول الأمر، ثم اختصر لقبه ليصبح " خليفة الله "، وظله على الأرض، مما يعطى للمنصب وزنا دينيا كبيرا ويضفى عليه نوعا من القداسة .

ومن ثم راح لويس يعدد سمات الإسلام " باعتباره دينا ونظاما للحياة وسياسة " فالمسلمون لا يطيقون العيش مع غيرهم ، ولا يعترفون بالأديان الأخرى ، بل يعدون أصحابها كفاراً، بدليل طردهم ليهود خيبر ونصارى نجران من الجزيرة العربية. فالإسلام دين عدوانى، ونبى الإسلام كان قيصرا وصاحب إمبراطورية، ارتبطت عنده الرسالة الدينية بالسلطة السياسية، لأن " الشريعة " تتناول كيفية اكتساب السلطة وممارستها، ومدى شرعيتها، وواجبات الحاكم والمحكوم، لذلك يطالب " رجال الدين " بالسلطة ، ويمارسونها فعلا فى إيران.

ويدلف من هنا إلى تقديم نص كامل لبيان زعمت صحيفة عربية تصدر فى لندن أنها تلقته بالفاكس من أسامة بن لادن فى ٢٣ فبراير ١٩٩٨ حمل عنوان " بيان الجبهة الإسلامية العالمية للجهاد ضد اليهود والصليبيين " وينتهى البيان بالدعوة إلى تلبية أمر الله بقتل جميع الأمريكيين وحلفائهم، دون تمييز بين المدنيين والعسكريين . ويشير إلى ما دعم به ابن لادن " فتواه" من نصوص وأسانيد دينية.

وبغض النظر عن اعتماد " عميد دراسات الشرق الأوسط" و" حجة تاريخ الإسلام " – كما يسميه من يروجون له – اعتماده على مصدر واحد هو تلك الصحيفة التى يعرف الجميع صلاتها بعدد من أجهزة الاستخبارات، وسهولة " فبركة" مثل هذا البيان، ومن ثم ضرورة الحذر فى التعامل معه كمصدر للمعلومات، ما لم يتم التأكد من فحواه بالرجوع إلى مصادر أخرى موثوق منها، وهو ما يعرفه أى باحث مبتدئ، ويجب أن لا يتورط فيه " العميد" و " الحجة "، نجد لويس يتخذ مما جاء فى هذا البيان شاهدا على عدوانية الإسلام والمسلمين ، وتكفيرهم لغيرهم، وحرصهم على القضاء على اليهود والنصارى.

والخلاصة – عنده – أن أسامة بن لادن هو المعبر عن الإسلام ونواياه تجاه العالم، وخاصة أنه المتهم الأول فى حادث ١١ سبتمبر ، وهناك أشرطة تسجيلية منسوبة إليه و إلى أتباعه ، تعترف بتدبيرها للحادث وتنفيذها له، وتتوعد " الصليبيين واليهود" بالموت على أيدى المسلمين. وبذلك يستنتج القارئ أن الإسلام دين دموى، يعتنقه أناس ساديون من مصاصى الدماء ، الذين يجب تخليص العالم من شرهم حتى يعيش العالم فى سلام.

وقبل أن نتناول تلك الصورة المهتزة التى قدمها لويس للإسلام على ضوء ما كتبه مستشرقون من أهل العلم بالإسلام والمسلمين، نتوقف لحظة أمام تنصيب برنارد لويس لأسامة بن لادن متحدثا بلسان الإسلام والمسلمين ومعبرا عن عقيدتهم، فأحيله إلى مقال الكاتب البريطانى جون بلجر **John Pilger** المنشور فى صحيفة **The New Statesman** بتاريخ ١٠ يناير ٢٠٠٤ بعنوان " ما لا يريدونك أن تعرفه" **What They Don't Want You To Know** ، حيث يعبر الكاتب عن عدم اعتراضه على اتهام " القاعدة " وابن لادن بتدبير وتنفيذ هجوم ١١ سبتمبر، ولكنه يذكّر القارئ أن السحر قد انقلب على الساحر، وأن هذا الفصيل الإسلامى المتطرف تربى فى حجر المخابرات المركزية الأمريكية لضرب الوجود السوفييتى فى أفغانستان، وكذلك الحال بالنسبة لطالبان ، فهؤلاء الإرهابيون " صنعوا فى أمريكا " مثلما صنع غيرهم من المنظمات الإرهابية فى أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا طوال النصف الثانى من القرن العشرين. وينبه الكاتب إلى ما تحويه ملفات منظمة العفو الدولية من معلومات عن ملايين البشر الذين قضوا" على

يد الحركات الإرهابية التى رعتها المخابرات المركزية الأمريكية، ومن بينها تنظيم " القاعدة " و "طالبـان"، عندما كانت رعاية التطرف الإسلامى تخدم المصالح الإستراتيجية لأمريكا وصديقتها الحميمة إسرائيل . ومع سقوط الاتحاد السوفييتى وتغير الأوضاع الإقليمية فى آسيا ، أصبح التخلص من " القاعدة" و" طالبان" هدفا إستراتيجيا ، فكان حادث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ - فى رأى الكاتب - يوم سداد فاتورة رعاية الإرهاب. ولا بأس من استخدام " القاعدة " و" الإسلام العدوانى" لدعم ما يسمى " بالحرب ضد الإرهاب" وهو بناء الإمبراطورية الأمريكية على يد المحافظين الجدد.

ومن ثم جاء تنصيب برنارد لويس لأسامة بن لادن مفتيا وشيخا للإسلام والمسلمين !!

ولنعد إلى الإطار الذى وضع فيه لويس الإسلام ، باعتباره دينًا عدوانيًا ، لا يقبل التعايش مع الآخرين، وأن رسوله كان قيصرا وخلفاءه " خلفاء الله" وظله على الأرض. وقد اخترنا عمل المستشرق البريطانى مونتجمرى واط Montgomery Watt الذى يحمل عنوان " الفكر السياسى الإسلامى - المفاهيم الأساسية" The Basic Concepts Islam-ic Political Thought ، الصادر عن جامعة أدنبره ، ١٩٦٨ . ويرجع اختيارنا له إلى أن صاحبه يعد حجة - بحق - فى تاريخ الإسلام وثقافته ، ويحتل مكانا مرموقا فى حقل الاستشراق ، ولكنه لم ينل من الشهرة ما ناله برنارد لويس ، لأن الحقيقة العلمية ضالته ، بينما خدمة الصهيونية وأهدافها ضالة لويس ، وشتان ما بين الرجلين .

لا يدرس واط الإسلام بمعزل عن المجتمع الذى نبت فيه، والمجتمعات التى انضوت تحت لواء دولة الإسلام الواحدة أو دوله ودويلاته المتعددة، واضعا فى اعتباره واقع تلك المجتمعات، وموروثها الثقافى، وما له من أثر فى صياغة الفكر السياسى، ملفتا النظر إلى أن القرآن والسنة لا يشيران إلى " النظام السياسى" الذى يجب أن تقام على أساسه "دولة الإسلام"، وأن ذلك ترك لاجتهاد المسلمين، باعتباره من " أمور الدنيا ". ومن ثم جاء النظام السياسى معبرا عن واقع المجتمع، متغيرا بتغيره، وتغير مواقع وأوزان جماعات المصالح فيه، وصاغ مفاهيمه المختلفة فقهاء من مختلف العصور، اجتهادا منهم - وفق قواعد الاجتهاد - فيما لم يرد فيه نص قرآنى أو حديث صحيح.

فليس صحيحا أن " الشريعة" المنزلة تناولت شيئا من هذا ، ولكن كل ما جاء بأعمال الفقهاء من شروط السلطة وشرعيتها وواجبات الحاكم وحقوق وواجبات المحكومين، وكيفية التخلص من الحكم الفاسد، من اجتهاد فقهاء تغيرت وتعددت وجهات نظرهم بتغير الأحوال وتعاقب العصور، وما تناولوه، في هذا الصدد - يعبر عن إجماع أهل الرأى في عصر محدد على إضفاء الشرعية على الأعراف المتعارف عليها. وهكذا جاء الفكر السياسى الإسلامى معبرا عن إبداع فقهاء المسلمين.

ويقدم واط فى الفصل الأول من كتابه ما يدحض افتراءات لويس حول النبى القيصر، وطرد اليهود والنصارى من جزيرة العرب. عندما أشار واط إلى النظام الذى وضعه الرسول الكريم لحكم المدينة، فاختار له عنوان :" دستور المدينة "، وحدد أهم ما جاء به على النحو التالى :

١- يشكل المؤمنون ومواليهم " أمة" واحدة.

٢- تتحمل كل قبيلة الدية أو الفدية الواجبة على من ينتسبون إليها.

٣- على أفراد الأمة أن يتضامنوا تضامنا تاما فى محاربة الجريمة حتى لو كان مرتكبها من ذوى القربى، ما دامت موجهه ضد أحد أفراد الأمة.

٤- يتعاون أفراد الأمة تعاونا تاما ضد الكفار فى السلم والحرب، وفى منح حق الإجارة لمن يطلبها.

٥- اليهود على اختلاف طوائفهم ينتمون إلى الأمة، ولهم الاحتفاظ بدينهم، وعليهم أن يقدموا العون للمسلمين، وكذلك يلتزم المسلمون بتقديم العون لهم فى السلم والحرب.

وقد رد واط هذه النصوص إلى أصولها فى مجتمع الجزيرة قبل الإسلام، فهذه الشروط تتفق تماما مع صيغة " الحلف" التى كانت تبرمها القبائل العربية لمواجهة عدو مشترك تعبيرا عن العرف السائد فى الجزيرة العربية عندئذ. وتضمن " الدستور " تحديدا لوضع اليهود فى إطار "الأمة" الواحدة، فلم يهمشهم أو يستبعدهم. ولم يقع الصدام معهم إلا عندما نقضوا العهد، وتعاونوا مع قريش ضد المسلمين. ومع ذلك ليس

هناك دليل واحد على طردهم من الجزيرة العربية هم ونصارى نجران، فمع اتساع حجم الدولة الإسلامية - بعد حركة الفتوح - ضرب هؤلاء فى الأرض يلتمسون سبلا أفضل لكسب العيش مما كان متاحا فى الجزيرة العربية وظل لهم وجود فى اليمن وأطراف الجزيرة العزبية.

وبعد فتح مكة، وانضمام قبائل الجزيرة إلى الرسول الكريم، كان ذلك فى إطار الصيغة السياسية التى عرفها العرب، وهى صيغة " الحلف " الذى يرأسه الرسول، فلم تكن صيغة " الحكومة " المركزية معروفة عند عرب الجزيرة. ولما كان العرب بدواً يشكل الغزو جانبا من مصادر عيشهم، فقد استفاد الرسول من ذلك فى توجيههم إلى توسيع مجال الإسلام بضم بقاع جديدة تحت لوائه، وهو الاتجاه الذى تدعم فى زمن الخلفاء الراشدين، فكانت حركة الفتوح الكبرى التى صفت الوجود البيزنطى فى الشام ومصر، وأسقطت إمبراطورية فارس .

ويدحض واط مقولة انتشار الإسلام بحد السيف، أو فرض الإسلام قسراً على شعوب البلاد التى دخلت تحت لواء الإسلام، مؤكدا على التمييز فى المعاملة بين البلاد التى فتحت عنوة وتلك التى فتحت صلحًا، وعلى وضع أهل الذمة الذين كفل لهم عهد الذمة الحماية والأمان، ويبين كيف قامت الإدارة على كواهل أهل الذمة، وتبنى الفاتحين العرب للنظم الإدارية التى كانت سائدة عند الفرس والروم، وأشار إلى مشاركة القبائل النصرانية العربية فى فتوح الشام وأرض الجزيرة فى العراق، واللجوء إلى الأقباط (المصريين) والشوام المسيحيين فى الأسطول الإسلامى أيام الأمويين.

فلم يكن الإسلام عدوانيا، ولم يكن نبى الإسلام قيصراً، ولم ينف الحكم الإسلامى وجود غير المسلمين، طالما كانوا من أهل الكتاب الذين يؤمنون بوحدانية الله، بل عندما امتد الإسلام شرقا ليضم الزرادشت والبوذيين، اعتبرهم من أهل الكتاب، ومد إليهم عهد الذمة، وتأثرت الثقافة الإسلامية بالموروث الثقافى للأقطار التى ضمتها الدولة الإسلامية، فكانت تلك التعددية العبقرية التى اتسمت بها الثقافة الإسلامية فى مختلف المجالات.

ويضع واط " الخلافة " فى إطارها الصحيح ، فبين كيف واجه الصحابة مشكلة قيادة " الأمة عند موت الرسول " دون أن يكون لديهم من الكتاب والسنة ما يدلهم على

كيفية التصرف، فكانت فكرة " الخلافة " التى اهتدت إليها نخبة الصحابة، لتكون خلافة للرسول فى رئاسة " الجماعة" و"إمامة " الصلاة وليست خلافة للنبوة، فقد كان محمداً خاتم النبيين. واهتدى الخلفاء فى إدارة "شئون الدولة" الإسلامية الوليدة بالكتاب والسنة، وذلك فى إطار مبدأ " المصلحة " الذى جعل الخليفة عمر بن الخطاب يخرج الأرض الزراعية من الغنائم التى يجب توزيع أربعة أخماسها على المجاهدين، وجعله يبطل حد السرقة عند وقوع المجاعة، وجعل أبا بكر يحارب من امتنعوا عن دفع الزكاة حفاظا على تماسك " الدولة " الوليدة. وتولى الخلفاء الراشدون الأمر من خلال " البيعة " التى كانت بدورها من التقاليد العربية السابقة على الإسلام . ولذلك انزعج المعارضون للخليفة عثمان بن عفان عندما رد على طلبهم له بالتنحى عن الخلافة بقوله : " كيف أخلع قميصا ألبسنيه الله" فعدوا موقفه هذا مخالفا للشرع، واغتالوه .

وحتى عندما تحولت " الخلافة " إلى ملك عضود على يد معاوية بن أبى سفيان، لم يدّع أحد من خلفاء بنى أمية أن سلطته مفوضة إليه من الله، بل كان الاختيار يتم – أيضا – بالبيعة. وكان العباسيون هم أول من استندوا إلى "الإرادة الإلهية " فى توليهم السلطة. ولم تظهر فكرة " التفويض الإلهى " إلا على يد دعاة الفاطميين، وقال بها بعض العباسيين فى خضم الصراع حول شرعية الحكم بينهم وبين الفاطميين، مع ملاحظة أن أوروبا فى ذلك العصر كانت تسودها فكرة " الحق الإلهى" للملوك، وظلت كذلك حتى القرن السادس عشر على أقل تقدير.

ولم يعد للخلافة وزن سياسى كبير بعد سيطرة العسكر على زمام الأمور فى الدولة العباسية، وظهور منصب " أمير الأمراء" ثم " السلطان" لتتحول " الخلافة " إلى مجرد رمز للدولة، ومصدر لإضفاء الشرعية على الحكم القائم عن طريق " تفويض" الخليفة السلطة للسلطان. ولذلك لم يحفل العثمانيون كثيراً بلقب " الخلافة " قبل السلطان عبد الحميد الثانى الذى حكم فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين، وجاء استخدامه له فى إطار تبنيه لفكرة الجامعة الإسلامية كأداة سياسية لمقاومة السيطرة الأجنبية على ولايات الدولة العثمانية.

وعندما ألغى مصطفى كمال أتاتورك " الخلافة عام ١٩٢٤ لم ينشأ فراغ حقيقى عن هذا الإلغاء لأن المنصب كان قد فقد وزنه ومغزاه، وكانت دوافع المنادين بإحياء الخلافة – فى الأغلب والأعم – شخصية محضة. ومن هذا القبيل دعوة بعض المنظمات الإسلامية المتطرفة من أمثال " القاعدة" وزعيمها أسامة بن لادن – الذى نصبه برنارد لويس متحدثا بلسان جميع المسلمين !.

ويشكل " الجهاد" المحور الأساسى فى كتاب لويس " أزمة الإسلام " ، واختار له كلمة Holy War (الحرب المقدسة) التى تخدم فكرة عدوانية الإسلام التى يروج لها برنارد لويس . ولكن المستشرقين العدول من أمثال واط ، وجون إسبوسيتو John Es-posito صاحب كتاب " التهديد الإسلامى، أسطورة أم حقيقة ", The Islamic Threat Myth Or Reality وهو أستاذ بجامعة جورجتاون، ورجل دين كاثوليكى، ومدير مركز التفاهم الإسلامى المسيحى بواشنطن. هذان المستشرقان (وغيرهما) يشرحان لقرائهما " الجهاد" بمفهومه الواسع. فالجهاد – لغة – يعنى بذل أقصى الجهد، وهو ينطوى على معان عدة : من بذل أقصى الجهد لكسب العيش، وطلب العلم، والسلوك القويم فى الحياة ، ونشر الإسلام عن طريق الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، والسمو بالنفس عن النزوات والخطايا ، إلى مقاومة كل منكر باليد أو اللسان أو حتى القلب (الضمير) ، طالما أن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها، أما الجهاد بالسيف (القتال)، فللدفاع عن الوطن والمال، والعرض، ولتوسيع رقعة الإسلام. ويذهب كل من واط وإسبوسيتو إلى أن مفهوم "الحرب المقدسة " لا يعبر عن " الجهاد " تعبيرا دقيقا، وأن استخدامه من جانب بعض المستشرقين جاء مغرضا، لأن الأقاليم الكبيرة التى كسبها الإسلام كان لجهاد الدعوة على يد المتصوفة والتجار اليد الطولى فى تحقيقه من الصين وجنوب الفلبين شرقا حتى جنوب شرقى آسيا غربا ، ومن وسط آسيا شمالا حتى الهند جنوبا، والكثير من هذه البلاد لم تطأه قدم جندى مسلم.

ومن مات مجاهدا فى سبيل الله أو مدافعًا عن وطنه أو ماله أو عرضه فهو شهيد . ومفهوم الجهاد فى سبيل الله لا يقتصر على الحرب وحدها ولكنه أعم من ذلك وأشمل.

ويبنى برنارد لويس على مفهومه للجهاد - باعتباره عدوانا مسلحا على كل من يعتنق دينا غير الإسلام - الطريقة التى قدم بها لقرائه مصطلح " دار الإسلام " "ودار الحرب"، فيدخل فى روع قارئه أن المسلمين يسعون دائما إلى أسلمه العالم كله بالقوة ، وهو بذلك يضرب على أكثر من وتر حساس. فهو يستعدى الغرب على من يهدده ويبرر ما تفعله إسرائيل بالعرب باعتباره حق دفاع شرعى عن النفس، ويثير مخاوف بلاد الغرب (أوروبا وأمريكا) من الجاليات الإسلامية التى ازدادت عددا أملا فى أن يؤدى ذلك إلى دعم القوى العنصرية المطالبة بطردهم . ويعكس ذلك براعة لويس فى تجسيد ما هو نظرى ليصبح واقعا وهميا ، طالما كان يخدم الخط السياسى الذى ينشر كتبه دعما له . بينما نجد مونتجمرى واط يضع المصطلح فى إطاره الفقهى المحض. فالإسلام يحرم الاقتتال بين المسلمين بعضهم البعض ومن ثم عد بلادهم " دار الإسلام " بينما أجاز لهم قتال غير المسلمين ردا لعدوانهم أو دفاعًا عن مصالح دار الإسلام . ورغم ذلك دارت معظم حروب المسلمين داخل دار الإسلام صراعا على السلطة أو توسيعا لرقعة الدول الإسلامية المستقلة على حساب جيرانها، وأراق المسلمون دماء بعضهم البعض منذ الفتنه الكبرى حتى سقوط الأندلس أكثر مما أراقوا من دماء غير المسلمين من سكان " دار الحرب " ولم يكن للدين دور فى تلك الصراعات ، بل كان بريئا منها .

ويذهب لويس إلى أن الإسلام والمسيحية دينان لا يطيقان النقاش معا ، وأنهما فى صدام دائم لأنهما على نقيض اليهودية لا ينتسب كل منهما إلى عنصر معين، ويتجه إلى نشر دعواه فى العالم كله ، ومن ثم تتقاطع طرقهما ويتفجر الصراع بينهما، حدث هذا فى صدر الإسلام مع الدولة البيزنطية ثم تآكلت تلك الدولة أمام الزحف الإسلامى حتى قضى عليها العثمانيون، كما حدث ذلك فى شبه جزيرة أيبريا (الأندلس). وجاء رد الفعل من جانب المسيحيين ممثلا فى الحروب الصليبية ثم الزحف الاستعمارى الأوروبى.

كانت هذه الفكرة موضوع مقال نشره لويس فى مجلة **The Atlantic Monthly** عدد مايو ٢٠٠٢ بعنوان استفزازى " أنا على حق، وأنت على باطل، فلتذهب إلى الجحيم " وهو المقال الذى ترددت بعض مقولاته فى كتابه الحالى " أزمة الإسلام "، والتى يذهب فيها إلى أن عداء المسلمين للغرب مكون من مكوناتهم " الجينية "، وشعورهم بالمهانة تجاه الغرب المسيحى يعود إلى ذلك الثأر القديم ، وما أصاب

المسلمين من تخلف حضارى، بينما تقدم الغرب (المسيحى)، وفرض هيمنته عليهم، وهم لا يملكون سبيلا للنيل من الغرب إلا تدميره على نحو ما فعله تنظيم " القاعدة " بنيويورك، فهم قوم يستهينون بالحياة، حياة الغير وحياتهم، فى سبيل الانتقام.

وهنا تختلط الأوراق، وتتداخل الصور عند لويس، ويبدو كمن أصيب بعمى الألوان، فالعثمانيون ليسوا هم المسلمون وحدهم، ولا يمثلون منهم إلا قطاعًا محدودًا، وصراعهم مع إمبراطورية النمسا كان سياسيا إقليميا لا شأن للإسلام به، ولا يوجد بين المسلمين (الذى يقدر عددهم الآن بنحو المليار وربع المليار مسلم) من يتذكر العثمانيين إلا نفر قليل، ولا يوجد بينهم من يتذكر حكاية " ثأر فيينا" الغريبة التى يسوقها لويس لقرائه. أما تقدم الغرب فله عوامله الموضوعية المرتبطة بالنمو الرأسمالى والتوسع الخارجى، وكانت بلاد المسلمين هدفًا لذلك التوسع، وكان ذلك التوسع من أبرز عوامل إجهاض محاولات التنمية المستقلة مثل تلك التى شهدتها مصر فى عهد محمد على، وغيرها من المحاولات التى قامت فى النصف الأول من القرن العشرين. ولكن تناول لويس لمسألة تقدم الغرب وتخلف المسلمين تبدو للقارئ، فى ضوء تشخيص لويس للإسلام والمسلمين، وكأن مردها إلى قصور عند المسلمين يرجع إلى دينهم وثقافتهم، وأن مفتاح التقدم هو طرح ذلك كله، واعتناق الثقافة الغربية، عندئذ يتذوقون طعم " التقدم"!.

وفى الفصل الخاص " بالمعايير المزدوجة " يمضى لويس فى ترسيخ فكرة كراهية المسلمين للغرب، فهم يصرون على التمسك بهويتهم الإسلامية، من خلال تكوين منظمة دولية خاصة بهم هى "منظمة المؤتمر الإسلامى" التى تضم فى عضويتها الدول الإسلامية، وهم رغم ذلك عجزة لا وزن لهم، ولم يستطيعوا اتخاذ قرارات تخدم مصالحهم الإقليمية، لأنهم لا يعيشون في إقليم واحد، وكل ما استطاعوا عمله تقديم بعض المعونات للأقليات الإسلامية فى أوروبا وأفريقيا. ولا يوضح لويس لقارئه أن تكوين تلك المنظمة تقرر فى المؤتمر الإسلامى للقمة الذى عقد بالرباط (سبتمبر ١٩٦٩) للنظر فيما ترتب على إضرام الحريق بالمسجد الأقصى على يد الصهاينة، فكان تكوين تلك المنظمة عندئذ للدفاع عن المقدسات الإسلامية والحفاظ عليها، واستخدمتها الولايات المتحدة (من خلال الدول الإسلامية التى تدور فى فلكها) فى الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفييتى . ولعبت تلك الدول دورا مهمًا فى تمييع الهدف الذى أقيمت المنظمة

من أجله، وتحويلها إلى أداة للتضامن الشكلى بين مجموعه من الدول تتباين مصالحها الوطنية تباينا واضحا.

كذلك يتضمن الفصل ذلك الميل الغريب عند المسلمين للارتماء فى أحضان كل من يعادى الغرب نكاية فيه، فقد صادقوا النازية، وتعاونوا مع هتلر على نحو ما فعل الحاج أمين الحسينى فى فلسطين، ورشيد عالى الكيلانى فى العراق، رغم أن ألمانيا النازية هى المسئولة عن اضطهاد اليهود ودفعهم إلى الهجرة إلى فلسطين، بينما كانت بريطانيا تمنع تلك الهجرة. ثم صادق العرب الاتحاد السوفييتى، رغم أنه كان صاحب المبادرة فى الاعتراف بدولة إسرائيل عام ١٩٤٨، وفى مدها بالسلاح عن طريق تشيكوسلوفاكيا.

وهنا نجد طفحا من المغالطات، فهو يعلم أن بريطانيا هى الدولة العظمى التى وعدت اليهود بإقامة وطن قومى فى فلسطين وضمنت صك الانتداب على فلسطين، التزامها بتنفيذ ذلك الوعد (وعد بلفورالشهير)، وأقامت النظام الإدارى فى حكومة الانتداب بما يكفل إرساء قواعد مؤسسات الدولة اليهودية المقبلة، ونظمت الهجرة اليهودية العلنية إلى فلسطين، وتغاضت عن الهجرة غير الرسمية التى اقتربت من أعداد الهجرة العلنية، ودربت عصابات الميليشيا الصهيونية على فنون القتال فى الحرب العالمية الثانية فلا عجب إذا كان الحاج أمين الحسينى قد سعى لكسب تأييد الطرف الآخر فى الحرب العالمية للقضية الفلسطينية، فهو ما كانت تفعله الصهيونية سرا أيضا ، ولا عجب إذا حاول العراق الاستفادة من ظروف الحرب للتخلص من الهيمنة البريطانية، وهى محاولة باءت بالفشل.

أما عن العلاقات مع السوفييت، فلويس يعلم جيدا أن الحظر الذى فرضه الغرب على توريد السلاح للدول العربية، وربطه لتقديم المعونات الاقتصادية بالدخول فى نظام الدفاع عن الشرق الأوسط، وعدم تشجيعه لمشروعات التنمية الاقتصادية فى البلاد العربية، كل ذلك جعل مصر تسعى لكسر احتكار السلاح بالاتجاه نحو عقد صفقة الأسلحة الشهيرة، ومواجهة قرار الغرب سحب عرض تمويل السد العالى بتأميم قناة السويس، و الاتجاه نحو الاتحاد السوفييتى للمعاونة فى مشروعات التنمية . ولم يفرض

الاتحاد السوفييتى على العرب التحالف معه ضد الغرب ، ولم يتدخل فى تحديد مشروعات تنموية بعينها أو يملى شروطا كتلك التى كان يمليها الغرب. لذلك وجدت مصر فى الاتحاد السوفييتى مصدرا مهمًا للخبرة التكنولوجية والمعونة الفنية اللازمة لمشروعات التنمية، وحذت حذوها بعض البلاد العربية الأخرى.

أما عن سر كراهية العرب لأمريكا والغرب ، فلابد أن برنارد لويس يدركه جيدا، فهو يعود إلى الانحياز الأمريكى للصهيونية، وخاصة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، عندما نقلت الصهيونية العالمية مركز نشاطها إلى أمريكا باعتبارها القوة الكبرى الصاعدة فى عالم ما بعد الحرب. ولعبت الولايات المتحدة دوراً فعالا فى حشد الأصوات لدعم قرار تقسيم فلسطين (نوفمبر ١٩٤٧)، وأسرع الرئيس ترومان بإعلان اعتراف الولايات المتحدة بإسرائيل بعد دقائق من إعلان قيامها فى ١٥ مايو ١٩٤٨ .

هذا الانحياز الأمريكى للصهيونية ، أصبح انحيازا لإسرائيل على طول الخط ، استخدمت فيه الولايات المتحدة حق الفيتو فى مجلس الأمن ٢٨ مرة (حتى مارس ٢٠٠٤) لإجهاض قرارات كان المجلس يعتزم إصدارها لردع إسرائيل، فى مواجهة عدوانها الدائم على الشعب الفلسطينى وجيرانها العرب.

هذا الانحياز قال فيه باحث أمريكى - هو إيفان ولسون - فى دراسة نشرها بمجلة الجمعية الأمريكية للعلوم السياسية (عدد مايو ١٩٧٢) بعنوان " الاهتمام الأمريكى بالقضية الفلسطينية وإقامة دولة إسرائيل " جاء فيها :

> **" إن سجل سياستنا تجاه فلسطين سجل مؤسف، لأن التخبط فى تلك السياسة أحبط أصدقاءنا، وأدى إلى الصدام بين الأطراف المعنية، وقد فشلنا فى تسوية المشكلة أو منع الاقتتال الذى ينشب من حين لآخر.**
>
> **ولاشك أن تأييدنا لقيام الدولة اليهودية على حساب أغلبية الشعب العربى فى فلسطين ، كان خطأ جسيما له نتائجه المدمرة بالنسبة لعلاقاتنا بالعرب ومصالحنا بالمنطقة ، فقد ربطنا أنفسنا - فى أذهان العرب - بالعناصر الإمبريالية الاستعمارية التى**

ناضلوا ضدها منذ الحرب العالمية الأولى، وأوقعنا تحيزنا لإسرائيل ودعمها بالمعونات فى تناقض كبير بين ما نقول وما نفعل، وبذلك لا يمكننا إقناع العرب بأننا نقف من الصراع موقفا متوازنا".

هذا ما كتبه إيفان ولسون عام ١٩٧٢، ترى ... ماذا يمكن أن يقول اليوم بعد أن قطعت الولايات المتحدة شوطا بعيدا فى تحدى الأمانى القومية المشروعة للعرب، وفى تأييد إرهاب دولة إسرائيل، ومساعدتها على الإفلات بما ارتكبته من جرائم الحرب فى حق الشعب الفلسطينى ؟ أليس هذا الموقف يشكل انحيازًا أعمى ضد المصالح الأمريكية الإستراتيجية فى الشرق الأوسط ، فى عالم تتلاحق فيه التغيرات، ولا يدرى أحد ما قد يأتى به الغد ؟

يضاف إلى الانحياز الأمريكى للصهيونية وإسرائيل، سياسة الهيمنة الإقليمية التى تمارسها الولايات المتحدة منذ الخمسينيات من القرن العشرين، والتى بلغت ذروتها الآن باجتياح العراق والسعى لفرض نظام إقليمى جديد يحول الدول العربية إلى قوى هامشية ثانوية، ويربطها بحلف الأطلنطى. ومن عجب أن ينعى علينا برنارد لويس – بعد ذلك كله – كراهيتنا للغرب و أمريكا !

يبقى حجر الزاوية فى موضوع الكتاب الذى من أجله نشره لويس، والذى أوقف حياته كلها على خدمته ، ونعنى به " إسرائيل " التى يلومنا على كراهيتها رغم أنها " واحة الديمقراطية " فى الإقليم حتى إن أحد تلاميذه بالأردن ذكر له أن الشباب الأردنى يسعى لتعلم العبرية حتى يفهم الحوار "الديمقراطي" الذى يشاهده في برامج التليفزيون الإسرائيلى ، وخاصة أن الديمقراطية لا وجود لها فى العالم العربى.

وعندما يرد ذكر القدس عنده، يعتبر بناء المسجد الأقصى عام ٦٩١ تحديا لليهود والمسيحيين لأنه بنى فى موقع هيكل سليمان، ويرى أن القدس لم يكن لها أهمية عند المسلمين بدليل تنازل أحد سلاطين الأيوبيين عنها للإمبراطور فردريك الثانى عام ١٢٢٩ كجزء من تسوية سياسية. ويشير عرضا إلى استرداد المسلمين لها بعد ذلك ولكنهم عادوا إلى الاهتمام بها اهتماما غامضا فى القرن التاسع عشر.

كما يذكر أن إسرائيل دخلت فى عملية سلام مع العرب بعد حرب تحرير الكويت ١٩٩١ ، ولكن (الأصوليين) عز عليهم أن يأتى إنقاذ منظمة التحرير الفلسطينية على يد أمريكا واعتبروه أمراً مهينا . وتعد قضية فلسطين هى المسألة المسموح فيها بالشكوى فى العالم العربى، وليس المسائل الاقتصادية والاجتماعية الملحة فى تلك البلاد التى يتم فيها قمع الرأى المعارض، ويرتبط بذلك الشكوى من السياسة الأمريكية لدعمها للحكام المستبدين فى المنطقة.

وهكذا يموه برنارد لويس الأمور على قارئه الذى تصب أجهزة الأعلام فى ذهنه أن فلسطين كانت دائما وطن اليهود السليب ، وأن سكانها من العرب قبائل رحل وفدوا إليها مع المد الإسلامى، وعاش اليهود تحت رحمتهم أذلاء ، وأن تلك الأرض (التى بلا شعب) أولى بها اليهود الذين يمثلون (شعبا بلا أرض). وبذلك يبرر للقارئ كل ممارسات إسرائيل ضد العرب (المتعصبين الذين لا يقبلون التعايش مع الآخر). وتأتى مقولة " واحة الديمقراطية " لتكمل جوانب الصورة البراقة لإسرائيل ، ولتخفى ما يعانيه المجتمع الإسرائيلى من مشاكل عرقية ومذهبية وأيديولوجية لم تنجح دعوة (التوحد فى مواجهة الخطر الخارجى) فى تغطيتها.

ولا يشير لويس – طبعا – إلى عمليات الإبادة التى يتعرض لها الشعب الفلسطينى وهدم البيوت واقتلاع المزروعات ، ونكث كل ما قطع من عهود ، والإعداد لترحيل الفلسطينيين عن ديارهم.

ترى .. من ينفى الآخر ويسعى لطمس هويته، أهم العرب الذين أفسدهم الإسلام، أم اليهود ؟!

أما عن القدس ، فرغم الجهود المتواصلة لرجال الآثار اليهود فى التنقيب حول وتحت المسجد الأقصى، طوال ثلاثة عقود منذ وقوع المدينة تحت الاحتلال، لم يستطيعوا تقديم أدله أثرية على صلة موقع المسجد بهيكل سليمان.

أما عن تنازل أحد سلاطين الأيوبيين عن القدس بعد أن استردها صلاح الدين الأيوبى، فيرجع إلى سوء سياسة ذلك السلطان، ولا يعنى عدم الاهتمام بالقدس، وإلا لما سعى المسلمون لاستردادها. وكانت زيادة الاهتمام بها فى القرن التاسع عشر مصاحبة لظهور الحركة الصهيونية وبداية هجرة اليهود إلى فلسطين.

وغنى عن البيان أن برنارد لويس يريد أن يدخل فى روع قارئه الغربى أن الوجود الإسلامى فى القدس وجود غير مشروع، فيه افتئات على المسيحيين واليهود، وأنهم مغتصبون لموقع المسجد الأقصى، واهتمامهم بالقدس اهتمام طارئ، ومن ثم يصبح تمسك الفلسطينيين بالقدس مجرد نكته سخيفة، وتعد على حق اليهود (التاريخى) فى المدينة.

ولا يشير لويس – من قريب أو بعيد – إلى وجود مسيحيين عرب. ولا يريد لقارئه أن يشعر بوجودهم، ويتعرف على دورهم فى ظل الإسلام، ويحدد موقفهم – مثلا – من الغزو الصليبى للمشرق العربى ، حيث وقفوا إلى جانب إخوانهم المسلمين ضد " الفرنجة " الغزاة ، لأنه لو فعل ذلك لهدم الإطار النظرى لهذا الكتاب وغيره من الكتب.

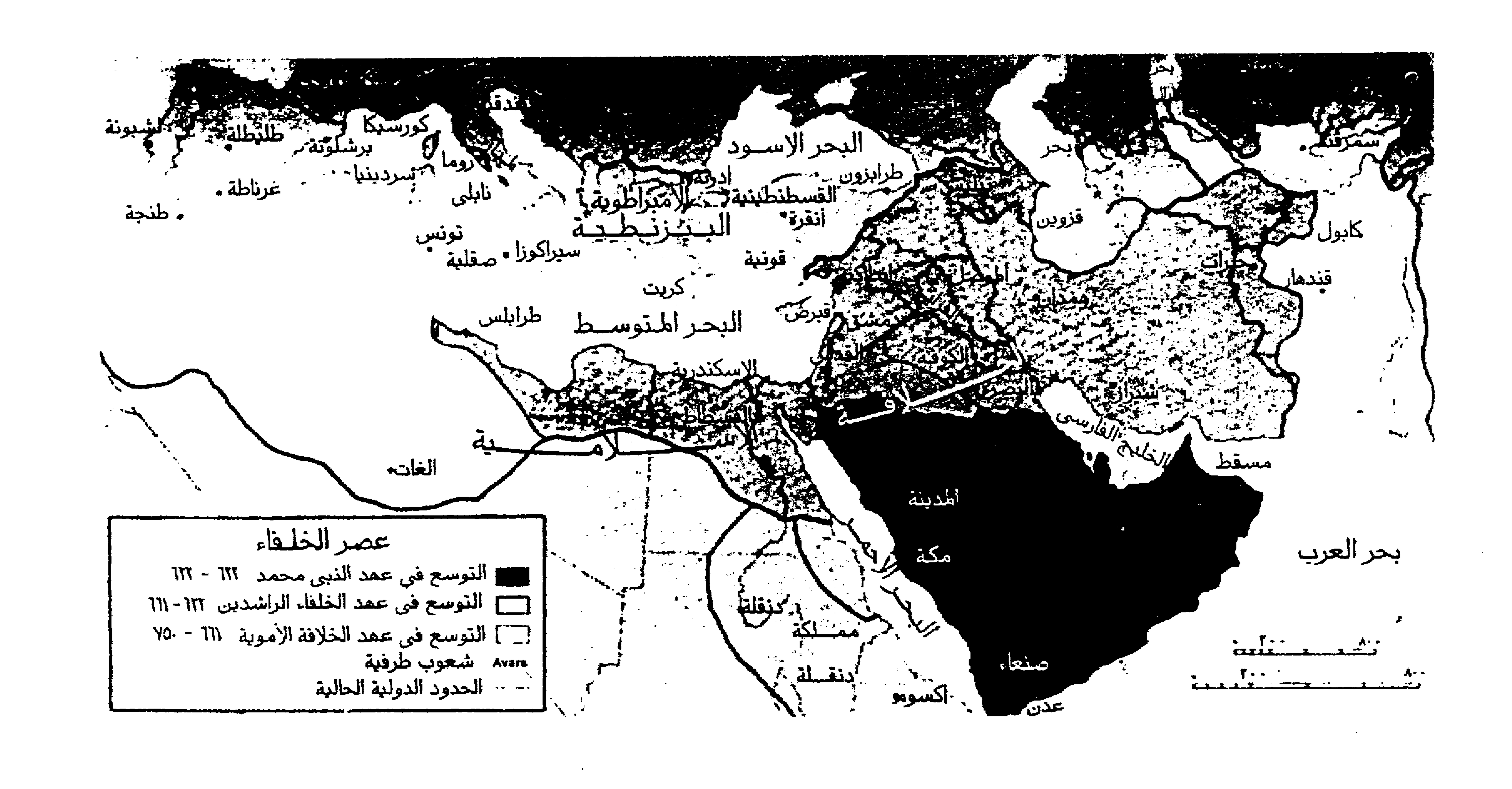
إننا لا ننكر أن الإسلام يعانى أزمة، ولكن نظرتنا " لأزمة الإسلام " وتشخيصنا لها يختلف تماما عن " أزمة الإسلام" كما يراها لويس، فالإسلام فى حاجة إلى فقه جديد يصوغ أحكاما تتفق مع ظروف العصر ويلبى حاجات المجتمع. كما يحتاج المسلمون إلى مشروع نهضوى يحقق التنمية بمختلف أبعادها فى إطار تضامني تكافلى، قاعدته المصلحة الوطنية، وامتداده المصالح المشتركة التى تجمع البلاد الإسلامية بعضها البعض ، فى عالم تتجه فيه الدول إلى التكتل حتى تخفف من آثار " العولمة ".

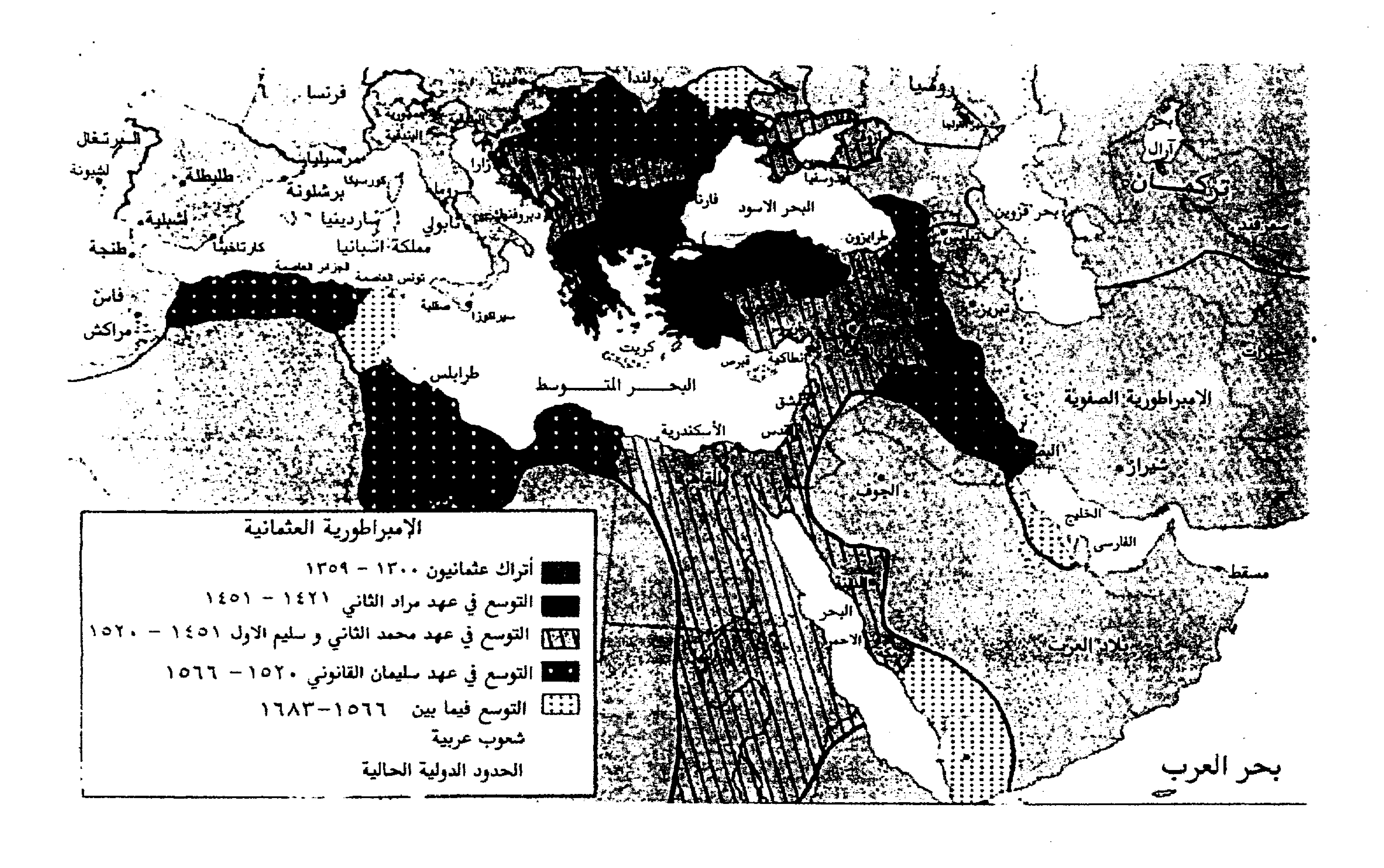
إن كتاب لويس لا يعبر عن " أزمة الإسلام " ولكنه يعبر عن " أزمة الضمير " عند برنارد لويس، وبطانته من الصهاينة الذين يتحكمون فى حقل دراسات الشرق الأوسط فى الولايات المتحدة الأمريكية، ويوجهون صناع السياسات الاستعمارية الجديدة للهيمنة على الوطن العربى، لذلك يجب علينا أن نتبنى مشروعا ثقافيا إعلاميا لمواجهة هذا الخطر الذى يهدد بلادنا فى الحاضر والمستقبل.

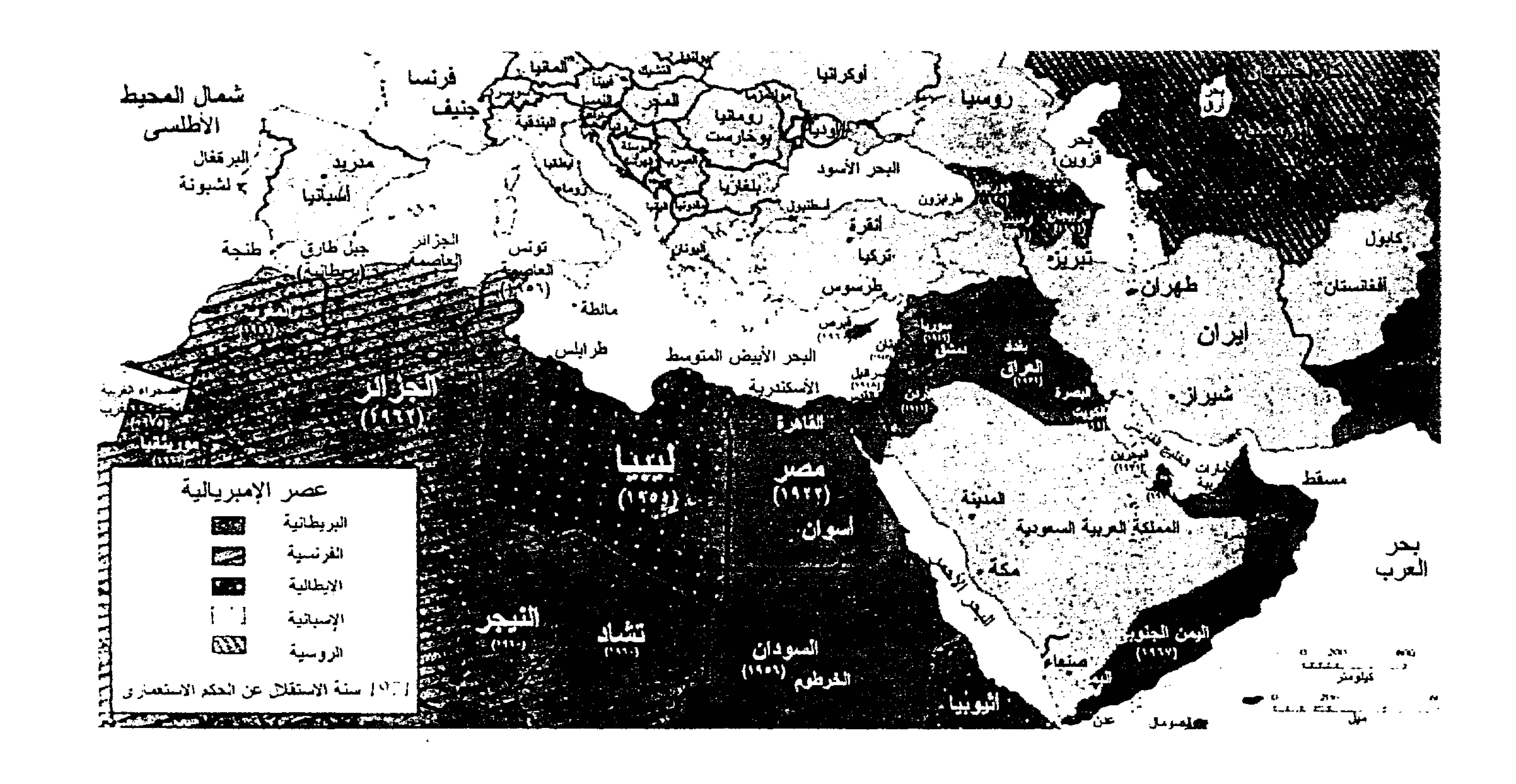
الإسلام وأزمة العصر

"حرب مقدسة وإرهاب غير مقدس"




عصر الخلفاء
التوسع في عهد النبي محمد ٦٢٢ - ٦٣٢
التوسع فى عهد الخلفاء الراشدين ٦٣٢ - ٦٦١
التوسع فى عهد الخلافة الأموية ٦٦١ - ٧٥٠
Avars شعوب طرفية
الحدود الدولية الحالية
البحر الأسود
البحر المتوسط
البيزنطية
الإمبراطورية
بحر العرب
الخليج الفارسي
طنجة
غرناطة
برشلونة
كورسيكا
روما
سردينيا
نابلى
تونس
صقلية
سيراكوزا
طرابلس
القسطنطينية
أنقرة
قونية
كريت
قبرص
طرابزون
قزوين
كابول
قندهار
مسقط
الإسكندرية
المدينة
مكة
صنعاء
عدن
دنقلة
مملكة
إكسوم
الغات


الإمبراطورية العثمانية
أتراك عثمانيون ١٣٠٠ - ١٣٥٩
التوسع في عهد مراد الثاني ١٤٢١ - ١٤٥١
التوسع في عهد محمد الثاني و سليم الاول ١٤٥١ - ١٥٢٠
التوسع في عهد سليمان القانوني ١٥٢٠ - ١٥٦٦
التوسع فيما بين ١٥٦٦-١٦٨٣
شعوب عربية
الحدود الدولية الحالية
فرنسا
البرتغال
لشبونة
طليطلة
برشلونة
مرسيليا
كورسيكا
سردينيا
اشبيلية
طنجة
قرطاجنة
مملكة اسبانيا
نابولي
زارا
الجزائر العاصمة
تونس العاصمة
فاس
مراكش
صقلية
سيراكوزا
طرابلس
البحر المتوسط
كريت
قبرص
انطاكية
الأسكندرية
البحر الاسود
فارنا
طرابزون
بولندا
بحر قزوين
تبريز
تركستان
آرال
الامبراطورية الصفوية
شيراز
الجوف
الخليج
الفارسي
مسقط
البحر
الاحمر
بلاد العرب
بحر العرب



عصر الإمبريالية
البريطانية
الفرنسية
الايطالية
الإسبانية
الروسية
سنة الاستقلال عن الحكم الاستعماري
شمال المحيط الأطلسي
البرتغال
لشبونة
مدريد
أسبانيا
فرنسا
جنيف
رومانيا
بوخارست
بلغاريا
أوكرانيا
روسيا
البحر الأسود
طرابزون
أنقرة
تركيا
طرسوس
تبريز
طهران
إيران
شيراز
كابول
أفغانستان
بحر قزوين
طنجة
جبل طارق
الجزائر العاصمة
تونس العاصمة
مالطة
طرابلس
البحر الأبيض المتوسط
الأسكندرية
القاهرة
الجزائر
(١٩٦٢)
ليبيا
(١٩٥١)
مصر
(١٩٢٢)
أسوان
النيجر
تشاد
السودان
الخرطوم
(١٩٥٦)
أثيوبيا
العراق
بغداد
البصرة
المدينة
مكة
المملكة العربية السعودية
اليمن الجنوبي
(١٩٦٧)
صنعاء
مسقط
بحر العرب
عدن
كيلومتر
ميل

الشرق الأوسط في الوقت الحاضر



مقدمة

حرص الرئيس بوش وغيره من السياسيين الغربيين على إيضاح أن الحرب التى يخوضونها الآن إنما هى حرب ضد الإرهاب وليست حربا ضد العرب ولا ضد المسلمين بوجه عام، بل إنهم دعوا للمشاركة فى هذا الصراع ضد "عدونا المشترك" . ورسالة أسامة بن لادن هى على العكس من ذلك. فهذه الحرب بالنسبة له ولأتباعه حرب دينيـة، حرب من أجل الإسلام ضد الكفار، ومن ثم وبالضرورة فهى ضد الولايات المتحدة باعتبارها أكبر قوة فى عالم الكفار.

ويكثر ابن لادن فى أحاديثه من الإشارة للتاريخ. ومن بين أكثر إشاراته درامية ما ذكره فى شريط الفيديو المسجل فى ٧ أكتوبر ٢٠٠١ عن "الإذلال والعار" الذى تعرض له الإسلام "لأكثر من ثمانين عاما". وبدأ معظم المراقبين لمسرح الشرق الأوسط من الأمريكيين - والأوروبيين أيضا دون شك - بحثا دقيقا عما يمكن أن يكون قد حدث خلال "أكثر من ثمانين عاما" وأسفر بحثهم عن إجابات متباينة. وبوسعنا أن نتأكد، بقدر كبير من الثقة، أن المستمعين لابن لادن من المسلمين - الذين كان الخطاب موجها إليهم - التقطوا هذه الإشارة فورا وقدروا مغزاها.

ففى سنة ١٩١٨ هزم نهائيا السلطان العثمانى، آخر من مثل الإمبراطوريات الإسلامية الكبرى، واحتلت عاصمته - القسطنطينية، وأسر السلطان وقسمت كثير من أراضى الإمبراطورية العثمانية بين الإمبراطوريتين المنتصرتين : إنجلترا وفرنسا. وقسمت الولايات العثمانية السابقة الناطقة بالعربية فى منطقة الهلال الخصيب إلى ثلاثة كيانات جديدة وأطلقت عليها أسماء وحدود جديدة. ووضعت اثنتان منها هى العراق وفلسطين تحت الانتداب البريطانى وأعطيت الثالثة، التى أطلق عليها اسم سوريا، للفرنسيين ثم قسم الفرنسيون الأراضى التى انتدبوا لإدارتها إلى قسمين

أطلقوا على أحدهما اسم لبنان وظل اسم سوريا خاصا بالجزء الباقى. وقام الإنجليز بما يشبه ذلك فى فلسطين حيث فصلوا بين ضفتى نهر الأردن. وسمى القطاع الشرقى شرق الأردن، الذى اختصر فيما بعد إلى الأردن، وظل اسم فلسطين خاصا بالقطاع الغربى أو الجزء الغربى من البلاد.

أما شبه الجزيرة العربية التى تتكون أساسا من أراضٍ قاحلة وصحارى وجبال يصعب الوصول إليها، فقد رؤى حينئذ أنها لا تستحق عناء الاستيلاء عليها وسمح لحكامها بالاحتفاظ بنوع من الاستقلال الهش والمحدود. ونجح الأتراك من بعد فى تحرير وطنهم فى الأناضول، ليس باسم الإسلام ولكن من خلال حركة علمانية وطنية قادها جنرال عثمانى يسمى مصطفى كمال الذى اشتهر من بعد باسمُ كمال أتاتورك. وحتى أثناء حربه - الناجحة - لتحرير تركيا من السيطرة الغربية فقد اتخذ الخطوات الأولى لاتباع الأساليب الغربية، أو كما يسميها هو، الأساليب الحديثة فى الحياة. وكان من أول ما قام به من أعمال فى نوفمبر ١٩٢٢ إلغاؤه السلطنة.

لم يكن السلطان العثمانى سلطانا لتركيا فقط، أى حاكما لدولة معينة، لكنه كان معترفا به على نطاق واسع على أنه الخليفة، أى أنه زعيم لكل المسلمين السنيين، وآخر الحكام الذين تولوا الحكم بعد وفاة النبى محمد فى سنة ٦٣٢ ميلادية وتعيين خليفة له ليحل محله، ليس فى الزعامة الروحية، ولكن كرئيس دينى وسياسى للدولة وللمجتمع الإسلامى. وبعد تجربة قصيرة الأمد عين خلالها خليفة منفصل ألغى الأتراك الخلافة كذلك فى مارس ١٩٢٤ .

وقد تعرضت الخلافة، طوال القرون الثلاثة عشر التى عاشتها تقريبا، لكثير من التقلبات، ولكنها ظلت رمزا قويا للوحدة الإسلامية بل وللهوية الإسلامية، وقد كان لاختفائها، بفعل الهجوم المزدوج من جانب الإمبرياليين الأجانب من جهة والحداثيين المحليين من جهة أخرى صدى واسع فى جميع أنحاء العالم الإسلامى وقد جرت بعض المحاولات البسيطة من جانب بعض الملوك والزعماء المسلمين للمطالبة بهذا اللقب الشاغر لكنها لم تحظ بأى تأييد. ولا يزال كثير من المسلمين يدركون بشعور مقترن بالألم ما أحدثه هذا الفراغ، ويقال إن أسامة بن لادن كان - ولا يزال - يتطلع إلى أن يكون خليفة المسلمين.

ومن الغريب أن كلمة "خليفة"، المستمدة من الكلمة العربية "خلافة"، تجمع بين معنى "الخلف" ومعنى "النائب" فى نفس الوقت. وكان رئيس الجماعة الإسلامية فى الأصل هو "خليفة رسول الله". ثم اختصر بعض المتحمسين اللقب من بعد إلى "خليفة الله". وقد لقى هذا الادعاء للسلطة الروحية معارضة شديدة وتم التخلى عنه من بعد رغم أن الحكام المسلمين استخدموا على نطاق واسع لقبا يعبر عن مثل هذا الادعاء، وإن كان بدرجة أقل، هو "ظل الله على الأرض". على أن الخلفاء اكتفوا عادة، بلقب أكثر تواضعا وهو "أمير المؤمنين" طوال فترة قيام مؤسسة الخلافة الذى يترجم عادة باللغة الإنجليزية إلى Commander of the Faithful.

إن التلميحات التاريخية، مثل تلك التى استخدمها ابن لادن، والتى قد تبدو غامضة بالنسبة للكثير من الأمريكيين، شائعة بين المسلمين ولا يمكن فهمها فهما صحيحا إلا فى إطار رؤى أهل الشرق الأوسط لهويتهم وفى ضوء المعرفة بتاريخ هذه المنطقة. بل إن مفاهيم التاريخ والهوية نفسها لابد من إعادة التعريف بها بالنسبة للغربيين الذين يحاولون فهم الشرق الأوسط المعاصر. فكثيرا ما يستخدم الأمريكيون فى حديثهم عبارة " this is history"، أى أن "هذا تاريخ" بقصد تجنب تناول أمر ما باعتباره قليل الأهمية ولا علاقة له بالاهتمامات الراهنة. وبالرغم من الاستثمار الضخم فى تعليم التاريخ وتدوينه فإن درجة المعرفة بالتاريخ فى المجتمع الأمريكى محدودة للغاية. والشعوب الإسلامية، شأنها شأن غيرها من شعوب العالم، تتشكل وفقا لتاريخها ولكنها، على خلاف بعض هذه الشعوب، حريصة غاية الحرص على فهم هذا التاريخ وإدراك مغزاه. على أن هذا الوعى بالتاريخ يرجع إلى عهد ظهور الإسلام، مع إشارات محدودة إلى العصور السابقة على الإسلام بالقدر اللازم لفهم التلميحات التاريخية التى وردت فى القرآن وفى التراث الإسلامى وحولياته المبكرة. وللتاريخ الإسلامى، بالنسبة للمسلمين، دلالة دينية وقانونية على أساس أنه إعمال لإرادة الله بالنسبة للمؤمنين به، أى أولئك الذين يقبلون بتعاليم الإسلام ويلتزمون بشريعته. أما تاريخ الدول والشعوب غير الإسلامية فإنه لا يحمل مثل هذه الدلالة ومن ثم فإنه لا ينطوى على قيمة أو أهمية خاصة. بل إنه حتى فى البلدان ذات الحضارة القديمة، مثل بلدان الشرق الأوسط، فإن معرفة التاريخ الوثنى لأجدادهم، والذى تحيط بهم نقوشه

وأبنيته الأثرية، كانت محدودة للغاية. فقد نسيت اللغات والحروف القديمة، ودفنت السجلات القديمة إلى أن اكتشفها وفك شفرتها المنقبون من الأثريين واللغويين الغربيين فى العصر الحديث. إلا إنه منذ العصر الذى بدأ بظهور الإسلام أنتجت الشعوب الإسلامية أدبيات غنية ومتنوعة حتى إنه فى كثير من الأقاليم، بل وفى البلدان ذات الحضارة القديمة مثل الهند، لم يبدأ تدوين التاريخ على نحو جاد إلا مع قدوم الإسلام.

ولكن أى تاريخ؟ إن الوحدة الأساسية للتنظيم الإنسانى فى العالم الغربى هى الأمة، والتى تكاد فى السياق الأمريكى، وليس الأوروبى، أن تكون متطابقة مع البلد نفسه. ثم يأتى بعد ذلك تقسيمات فرعية بأشكال مختلفة يتم أحدها بحسب الدين. أما المسلمون فإنهم لا ينظرون إلى الأمر على أساس وجود أمة تنقسم إلى مجموعات دينية فرعية ولكن على أساس وجود دين واحد ينقسم إلى أقسام فرعية تمثلها الأمم. ولاشك أن ذلك يرجع جزئيا إلى أن معظم الدول القومية التى تشكل الشرق الأوسط المعاصر تعتبر كيانات حديثة نسبيا تخلفت عن العهد الإمبريالى الإنجليزى- الفرنسى الذى أعقب هزيمة الإمبراطورية العثمانية، وأنها لا تزال تحتفظ ببنية الدولة وبالحدود التى رسمها لها سادتها من الإمبرياليين السابقين. بل إن أسماءها نفسها تعبّر عن هذا الوضع المصطنع : فالعراق فى العصور الوسطى كان ولاية تختلف حدودها اختلافا كبيرا عن حدود الجمهورية الحالية حيث تستبعد منها بلاد ما بين النهرين فى الشمال ويدخل فيها قطاع من غربى إيران، كما أن أسماء سوريا وفلسطين وليبيا التى ترجع إلى العصور الكلاسيكية القديمة، كانت قد توقف استخدامها فى المنطقة منذ نيف وألف عام، حتى أعاد الإمبرياليون الأوروبيون إحياءها وفرضها من جديد فى القرن العشرين(*) بحدود جديدة وشديدة الاختلاف فى معظم الأحوال عن الحدود القديمة.

(*) ظهر أول هذه الأسماء لفترة قصيرة فى أواخر العهد العثمانى، عندما أعيد تسمية ولاية دمشق وأطلق عليها اسم ولاية سوريا. وكانت حدودها مختلفة تمامًا عن حدود الجمهورية التى نشأت فى أعقاب الحرب. واحتفظ الغزاة العرب بالاسم الرومانى - البيزنطى لفلسطين لفترة من الوقت ولكنه كان قد نسى فعلاً عندما جاء الصليبيون. وعاد الاسم إلى الظهور مع فرض نظام الانتداب البريطانى بعد الحرب العالمية الأولى. ولم يكن الاسم الرومانى لليبيا معروفا حتى أعيد إلى الوجود رسميا على يد الإيطاليين .

واسم الجزائر وتونس لا وجود لهما فى اللغة العربية. والاسم نفسه يطلق على المدينة وعلى البلد بكامله. وأكثر ما يلفت النظر أنه لا يوجد فى اللغة العربية اسم لبلاد العرب، والسعودية الحالية يطلق عليها عادة "المملكة العربية السعودية" أو "شبه الجزيرة العربية" حسب السياق الذى تستخدم فيه. ولا يرجع ذلك إلى فقر فى اللغة العربية – بل العكس هو الصحيح – ولكن إلى أن العرب لم يفكروا فى الأمر من حيث هويتهم العرقية والإقليمية. والواقع أن هناك مقولة منسوبة للخليفة عمر يخاطب فيها العرب مفادها: "تعلموا أنسابكم ولا تكونوا كأولئك الذين إذا سئلوا عمن يكونون قالوا نحن من هذا المكان أو ذاك"(*).

كانت الجماعة الإسلامية فى القرون الأولى من العصر الإسلامى دولة واحدة يحكمها حاكم واحد. وحتى بعد انقسام الجماعة إلى العديد من الدول فإن الكيان السياسى الإسلامى الواحد ظل قائما كمثل أعلى. وكانت معظم هذه الدول تخضع لحكم الأسرات ولها حدود متغيرة. ومما له مغزى مهم بالتأكيد أن التدوين التاريخى للعالم الإسلامى باللغات العربية والفارسية والتركية، رغم ثرائه وغناه، تضمن تأريخا للأسرات وللمدن، وقبل كل شيء، للدولة والجماعة الإسلامية ولكنه لم يتضمن تأريخا لفارس أو لتركيا. وعلى خلاف أسماء سوريا وفلسطين والعراق، فإن هذين الاسمين لا يرمزان إلى كيانات سياسية جديدة، بل إلى كيانات قديمة كانت تتمتع بسيادتها واستقلالها منذ قرون عديدة. ومع ذلك فإنه حتى هذين الاسمين لم يكن لهما وجود فى اللغات العربية والفارسية والتركية. فاسم تركيا، الذى يدل على بلد يسكنه شعب يسمى الأتراك ويتحدثون لغة هى اللغة التركية، يبدو متفقا مع النمط الأوروبى المعتاد فى تحديد الدول بأسماء عرقية. لكن هذا الاسم الذى كان متداولا فى أوروبا منذ العصور الوسطى، لم تعتمده تركيا نفسها إلا بعد إعلان الجمهورية فى سنة ١٩٢٣ . أما اسم فارس فهو أوروبى المنشأ، وهو تطور للاسم اليونانى Pars (بارس)، ثم (Fars) فيما بعد، وهو اسم ولاية تقع فى غربى إيران. وأصبحت تعرف، بعد الغزو العربى، باسم فارس نظرا لعدم وجود حرف (P) فى الأبجدية العربية. وكما أصبحت القشطالية هى

(*) مقدمة ابن خلدون، الناشر : E. Quatremère (باريس ١٨٥٨) المجلد الأول ص ٢٣٧ .

الإسبانية، والتوسكانية هى الإيطالية، أصبحت الفارسية، وهى فى الأصل اللهجة الإقليمية لولاية فارس سالفة الذكر، هى اللغة السائدة فى البلاد بالرغم من أن اسم الولاية نفسه لم يطلق أبدا، فى الاستخدام الفارسى، على البلد ككل.

وقد أصدر كل من العرب والأتراك أدبيات مطولة تصف صراعهم مع أوروبا المسيحية منذ الغارات العربية الأولى فى القرن الثامن حتى الانسحاب النهائى لتركيا فى القرن العشرين. على أن الجنود والمسئولين والمؤرخين المسلمين كانوا يشيرون إلى خصومهم، ليس بحسب انتمائهم الإقليمى أو القومى، ولكن بوصفهم، ببساطة "بالكفار"، أو بوصفهم أحيانا بمصطلحات غامضة كالفرنجة أو الروم، وظل الأمر كذلك إلى أن سادت المفاهيم والتصنيفات الأوروبية فى العصر الحديث. وكذلك فإنهم لم يتحدثوا عن أنفسهم باعتبارهم عربا أو فرسا أو أتراكا بل كانوا يسمون أنفسهم بالمسلمين. وتساعد هذه النظرة، ضمن أمور أخرى، على تفسير اهتمام باكستان بحركة طالبان وخلفائها فى أفغانستان. كما أن اسم باكستان نفسه، الذى ظهر فى القرن العشرين، إنما يدل على بلد يعرّف كلية بحسب دينه وولائه الإسلامى التام. وفيما عدا هذا الجانب فإن باكستان، كبلد وكشعب، تعد - كما كانت لآلاف السنين - جزءا من الهند. ومن الطبيعى أن تكون أفغانستان، التى تعرّف بحسب هويتها الإسلامية، حليفا لباكستان بل تابعا لها. وعلى العكس فإن أفغانستان، إذا عرّفت بحسب هويتها العرقية، فإنها يمكن أن تمثل جارا خطرا قد يثير مطالب تتعلق بتحرير واتحاد الأقاليم الناطقة بلغة الباشتو الواقعة فى شمال غربى باكستان، بل وربما تحالفت كذلك مع الهند.

واستدعاء التاريخ الحديث، بل والقديم، يعتبر أمرا شائعا فى الخطاب العام. ففى الثمانينيات، خلال الحرب بين إيران والعراق مثلا، شن الجانبان حملات دعائية ضخمة كثيرا ما تضمنت الإشارة إلى أحداث وشخصيات ترجع إلى القرن السابع وإلى معارك القادسية (٦٣٧ ميلادية) وكربلاء (٦٨٠ ميلادية). وقد انتصر العرب المسلمون فى القادسية عند غزوهم لإيران على جيش الشاه الفارسى الذى كان يدافع عنها، والذى لم يكن قد اعتنق الإسلام بعد، ومن ثم كان الفرس لا يزالون فى نظر المسلمين كفارا وثنيين. وبذلك كان باستطاعة كل من الجانبين أن يزعم أن النصر قد حالفه فيها : بالنسبة لصدام حسين انتصار العرب على الفرس، وبالنسبة لآية الله الخمينى انتصار

المسلمين على الكفار. ولم تكن الإشارة إلى هذه المعارك إشارة تفصيلية أو سردية ولكنها كانت أقرب إلى التلميحات الصغيرة غير المكتملة التى لجأ إليها كل من الطرفين مدركين تمام الإدراك أن المخاطبين بها سيتلقونها وسيفهمونها حتى ولو كانت نسبة كبيرة منهم من الأميين. ومن الصعب أن نتصور أن يلجأ القائمون بالحملات الدعائية فى الغرب من أجل تأييد وجهات نظرهم إلى التلميح بأمور ترجع إلى نفس هذه الفترة مثل الحكم السباعى الأنجلو- سكسونى فى إنجلترا أو إلى ملوك الفرنجة من آل شارل مارتل فى فرنسا. وعلى نفس هذا النحو يوجه أسامة بن لادن الشتائم إلى الرئيس بوش بالربط بينه وبين فرعون ويتهم نائب الرئيس تشينى ووزير الخارجية باول (معا) بأنهما جلبا من الدمار على العراق خلال حرب الخليج فى سنة ١٩٩١ وما بعدها ما يزيد على ما جلبه عليه "خانات" المغول الذين غزوا بغداد فى أواسط القرن الثالث عشر وقضوا على الخلافة العباسية. وتتشكل نظرة أهل الشرق الأوسط للتاريخ مما يرد فى المواعظ وما يتلقونه فى المدارس وما تقدمه وسائل الإعلام، ورغم أنها قد تكون محرفة أو غير دقيقة - وهى كثيرا ما تكون كذلك - إلا أنها مع ذلك حية وذات صدى قوى فى الأذهان.

فى ٢٣ فبراير ١٩٩٨ نشرت "القدس العربى"، وهى صحيفة تصدر فى لندن باللغة العربية، النص الكامل "لإعلان الجبهة الإسلامية العالمية بشأن الجهاد ضد اليهود والصليبيين". ووفقا لما ذكرته الصحيفة فإن البيان أرسل إليها بالفاكس ويحمل توقيع أسامة بن لادن وزعماء جماعات الجهاد فى مصر وباكستان وبنجلاديش. ويكشف البيان - الذى كتب بصيغة أدبية رفيعة تصل فى بعض أجزائها إلى مستوى الشعر العربى المنثور - عن جانب من التاريخ قد لا يكون مألوفا لدى معظم الغربيين. والشكوى التى يطرحها ابن لادن فى هذه الوثيقة ليست تماما ما قد يتوقعه الكثيرون. فالإعلان يبدأ بتمهيد اقتبست فيه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الأشد حثا على النضال، ثم يستطرد قائلا :

"منذ أن خلق الله شبه الجزيرة العربية وخلق فيها الصحارى وأحاطها بالبحار لم تحل بها كارثة كتلك التى جاء بها هؤلاء الصليبيون الذين انتشروا فيها كالجراد متكاثرين على أرضها، يأكلون ثمارها، ويدمرون خضرتها، وذلك فى وقت تتداعى فيه الأمم ضد المسلمين كما تتداعى الأكلة على قصعتها"

ثم يتحدث الإعلان بعد ذلك عن الحاجة إلى فهم الوضع الراهن والعمل على تصحيحه. فالوقائع، كما ذكر الإعلان، معروفة للجميع، وهى ترد تحت ثلاثة عناوين رئيسية .

أولا – تحتل الولايات المتحدة منذ ما يزيد على سبع سنوات بلاد الإسلام فى أقدس أراضيه: فى بلاد العرب، وتنهب ثرواتها، وتطغى على حكامها وتذل شعوبها وتهدد جيرانها وتستخدم قواعدها فى شبه الجزيرة كرأس حربة لمهاجمة الشعوب الإسلامية المجاورة.

ورغم مجادلة البعض، فى الماضى، حول الطبيعة الحقيقية لهذا الاحتلال فإن أمره قد بات معروفا لكل أبناء بلاد العرب.

وليس أدل على ذلك من استمرار العدوان الأمريكى على الشعب العراقى، ذلك العدوان الذى ينطلق من بلاد العرب بالرغم من معارضة جميع حكام هذه البلاد لاستخدام أراضيهم لهذا الغرض ولكنهم مرغمون عليه.

ثانيا – بالرغم من الدمار الشديد الذى أصاب الشعب العراقى على يد الحلف الصليبى – اليهودى، وبالرغم من العدد المخيف للموتى، الذى تجاوز المليون، فإن الأمريكيين مع ذلك كله يحاولون تكرار هذه المذبحة البشعة مرة أخرى. ويبدو أن الحصار الطويل الذى أعقب حربا ضروسا والتفكيك والتدمير الذى أحدثوه لا يكفيهم. لذا يجيئون اليوم للقضاء على ما تبقى من هذا الشعب ولإذلال جيرانه المسلمين.

ثالثا – رغم أن أهداف الأمريكيين فى هذه الحروب أهداف دينية واقتصادية إلا أنهم يخدمون كذلك دولة اليهود التافهة ليصرفوا الانتباه عن احتلالها للقدس ولقتلهم المسلمين فيها.

ولا أدل على كل ذلك من حرصهم على تدمير العراق، وهى أقوى الدول العربية المجاورة، ومحاولتهم تجزئة جميع دول المنطقة مثل العراق والسعودية ومصر والسودان وتحويلها إلى دويلات صغيرة يسمح انقسامها وضعفها بضمان بقاء إسرائيل واستمرار كارثة الاحتلال الصليبى لبلاد العرب.

ويواصل البيان بالقول "بأن هذه الجرائم بمثابة إعلان صريح للحرب من جانب الأمريكيين ضد الله ورسوله والمسلمين. وقد أجمع العلماء فى مختلف العصور على أنه فى مثل هذا الوضع الذى يهاجم فيه الأعداء بلاد المسلمين يصبح الجهاد فرض عين على كل مسلم".

ويقتبس موقعو البيان العديد من المرجعيات الإسلامية ليصلوا بذلك إلى خاتمة إعلانهم وأهم أجزائه، أى الفتوى نفسها، التى تقول بأن "قتل الأمريكيين وحلفاءهم، سواء من المدنيين أو العسكريين، إنما يعتبر فرض عين على كل مسلم قادر عليه يكون موجودا فى بلد يمكنه فيه أن يقوم بذلك، إلى أن يتحرر المسجد الأقصى [فى القدس] والمسجد الحرام [فى مكة] من قبضتهم وإلى أن ترحل جيوشهم مقهورة من جميع بلاد الإسلام وهى عاجزة عن تهديد أى مسلم".

وبعد اقتباس آيات أخرى من القرآن تستطرد الوثيقة قائلة : "إننا بإذن الله ندعو كل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يطيع أمر الله بقتل الأمريكيين ونهب ممتلكاتهم أينما وجدها وكلما استطاع ذلك. كما ندعو علماء المسلمين وزعماءهم وندعو الشباب والجنود إلى مهاجمة جيوش الشيطان الأمريكى ومهاجمة حلفائهم أعوان الشيطان".

ويختتم الإعلان والفتوى بسلسلة من الاقتباسات الأخرى من الكتابات الإسلامية المقدسة.

والنظرة الشائعة فى الغرب لحرب الخليج فى سنة ١٩٩١ هى أنها حرب شنتها الولايات المتحدة ومجموعة من الدول المتحالفة معها، عربية وغير عربية، لتحرير الكويت من الغزو والاحتلال العراقى وحماية السعودية من اعتداء العراق عليها. ويبدو غريبا النظر إلى هذه الحرب على أنها عدوان على العراق، لكن هذه النظرة شائعة بدرجة كبيرة فى العالم الإسلامى. ومع تباعد ذكريات اعتداء صدام حسين على الكويت يتركز الانتباه على العقوبات المفروضة على العراق، وعلى الطائرات الأمريكية والبريطانية التى تحلق فى سماء العراق انطلاقا من قواعد فى بلاد العرب، وعلى معاناة الشعب العراقى، وبشكل متزايد من التحيز الأمريكى لصالح إسرائيل.

ومجالات الشكوى الثلاث التى أوضحها الإعلان - بلاد العرب، والعراق، والقدس - مألوفة بالنسبة لمراقبى مسرح الأحداث فى الشرق الأوسط. وربما يكون تسلسل هذه القضايا وشدة التركيز فى عرض كل منها هو الأمر غير المألوف. وليس ذلك بغريب على من يعرف التاريخ والآداب الإسلامية. فالأراضى المقدسة بالنسبة للمسلمين، وهذا ما ننساه نحن فى الغرب أحيانا، هى فى المقام الأول فى بلاد العرب وبوجه خاص فى الحجاز ومدينتيه المقدستين: "مكة" التى ولد بها النبى و"المدينة" التى أقام فيها أول دولة إسلامية، وأول بلد انضم أهله إلى العقيدة الجديدة وأصبحوا حملة رايتها. وقد ولد النبى محمد ومات فى بلاد العرب، وكان هذا شأن خلفائه الأولين على رئاسة الجماعة الإسلامية. أما بعد ذلك، فإن مركز العالم الإسلامى والمسرح الذى تحققت فيه أهم إنجازاته كان فى العراق، باستثناء فاصل زمنى قصير كان خلاله فى سوريا، وكانت عاصمته بغداد مقرا للخلافة لأكثر من خمسمائة عام. وبالنسبة للمسلمين فإنه لا يمكن التخلى نهائيا عن أى قطعة أرض دخلت فى الإسلام لكن ليس من بينها ما يمكن مقارنته ببلاد العرب أو بالعراق.

وتعد بلاد العرب هى الأكثر أهمية بين هذه البلدان. ويقول المؤرخون العرب الكلاسيكيون أن الخليفة عمر قرر فى العام العشرين للهجرة، والموافق لسنة ٦٤١ ميلادية، إخراج اليهود والنصارى من كافة أنحاء بلاد العرب فيما عدا أطرافها الجنوبية والشرقية نفاذا لأمر النبى الذى نطق به وهو على فراش الموت قال : "لأخرجنّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلما".

والجماعات المعنية بذلك كانت اليهود فى واحة خيبر فى الشمال، والنصارى فى نجران فى الجنوب. وكان كلاهما من الجماعات القديمة عميقة الجذور، وكانت لغتهم وثقافتهم هى العربية وكذلك أسلوب حياتهم ولم يكونوا يختلفون عن جيرانهم إلا فى عقيدتهم.

وقد شكك بعض العلماء المسلمين الأوائل فى نسبة هذا القول إلى النبى، ولكنه قُبل بوجه عام ووضع موضع التنفيذ. وطرد الأقليات الدينية أمر نادر الحدوث فى التاريخ الإسلامى، على خلاف ما حدث فى العالم المسيحى فى العصور الوسطى حيث كان

طرد اليهود، ثم المسلمين بعد إعادة الغزو أمرا طبيعيا ومتواترا. وبالمقارنة للطرد الذى وقع فى أوروبا فإن قرار عمر كان محدودا ورحيما. فهو لم يشمل جنوبى بلاد العرب ولا جنوبها الشرقى لأنهما لم يدخلا ضمن الأراضى الإسلامية المقدسة. وعلى خلاف اليهود والمسلمين الذين طردوا من إسبانيا وغيرها من البلاد الأوروبية ليبحثوا عن ملجأ لهم فى أى مكان يستطيعون فيه ذلك، فإن يهود ونصارى بلاد العرب أعيد توطينهم فى أراض خصصت لهم : اليهود فى سوريا وفلسطين والمسيحيون فى العراق. كما أن هذه العملية تمت بالتدريج ولم تتم فجأة وهناك تقارير تفيد بأن اليهود والنصارى بقوا فى خيبر ونجران بعد هذا القرار لفترة من الزمن.

وقد استكمل هذا الطرد مع مرور الوقت وظلت الأراضى المقدسة فى الحجاز منذ ذلك الحين وحتى الآن محظورة على غير المسلمين. ووفقا لما تراه مدرسة الفقه الإسلامى المعتمدة لدى الدولة السعودية ولدى أسامة بن لادن وأتباعه فإن من الكبائر أن تطأ أقدام غير المسلمين الأراضى المقدسة. أما فى بقية أنحاء المملكة فإنه بإمكان غير المسلمين أن يحضروا إليها زوارا مؤقتين لكنهم لم يكن يصرح لهم بالإقامة الدائمة فيها أو ممارسة شعائر أديانهم. وقد ظل ميناء جدة على البحر الأحمر لفترة طويلة بمثابة منطقة حجر دينى سمح للممثلين الدبلوماسيين والقنصليين والتجاريين الأجانب بالإقامة فيها على أساس مؤقت.

ومنذ الثلاثينيات أدى اكتشاف واستغلال البترول، وما ترتب عليه من نمو العاصمة السعودية، الرياض، من واحة صغيرة إلى مدينة كبيرة، إلى إحداث تغييرات كثيرة وإلى تدفق الأجانب عليها بأعداد كبيرة، وغالبيتهم من الأمريكيين، مما أثر على كافة جوانب الحياة العربية. وهذا التواجد، الذى لا يزال الكثيرون يرون فيه تدنيسا، قد يساعد على تفسير تزايد الشعور بالاستياء.

وقد تعرضت بلاد العرب لتهديد الصليبيين لفترة وجيزة فى القرن الثانى عشر الميلادى. وبعد هزيمتهم وطردهم جاء التهديد الثانى لبلاد العرب من جانب الكفار فى القرن الثامن عشر مع تعزيز السيطرة الأوروبية فى جنوب أسيا، وظهور البواخر الأوروبية، أو بعبارة أخرى المسيحية، بالقرب من الشواطئ العربية. وكانت الصدمة

التى ترتبت على ذلك أحد العوامل التى ساعدت على الإحياء الدينى الذى شهدته بلاد العرب على يد الحركة الوهابية بقيادة آل سعود، مؤسسى الدولة السعودية. وخلال فترة النفوذ الإنجليزى - الفرنسى وسيطرته على الشرق الأوسط فى القرنين التاسع عشر والعشرين حكمت القوى الإمبريالية مصر والسودان والعراق وسوريا وفلسطين. وظلت هذه القوى تحوم حول تخوم بلاد العرب فى عدن والخليج الفارسى ولكنها كانت من الحكمة بما يكفى لتجنب التدخل العسكرى والاقتصار على الحد الأدنى من التدخل السياسى فى شئون شبه الجزيرة العربية.

وربما كان من الممكن تحمل الغرباء طالما أن هذا التدخل الأجنبى كان اقتصاديا بحتا وطالما كان عائده كافيا ويزيد للتخفيف من وطأة أى مظالم أو شكاوى. لكن شروط هذا التدخل تغيرت فى السنوات الأخيرة. فمع انهيار أسعار البترول وزيادة السكان وتزايد الإنفاق لم تعد العائدات كافية وزادت الشكاوى وأصبح صوتها أكثر ارتفاعا. كما أن التدخل لم يعد مقتصرا على النشاط الاقتصادى. فقد أدت الثورة فى إيران، ومطامع صدّام حسين، وما ترتب عليها من تزايد حدة جميع مشاكل الإقليم، وبوجه خاص النزاع الإسرائيلى - الفلسطينى، إلى إضفاء بعد سياسى وبعد عسكرى على التدخل الأجنبى، الأمر الذى أضفى بدوره قدرا من المنطق على صيحات "الإمبريالية" التى أصبحت مسموعة بدرجة متزايدة. ومتى تعلق الأمر بالأراضى المقدسة للمسلمين فإن بعضهم، بل وبعض أعدائهم أحيانا، سيصف الصراع بأنه صراع دينى وينظر إلى القوات الأمريكية التى أرسلت لتحرير الكويت وإنقاذ السعودية من صدام حسين باعتبارها غزوا واحتلالا من جانب الكفار. ويدعم هذه النظرة التفوق الأمريكى الذى لا جدال فيه بين القوى الكافرة فى العالم.

ويرى معظم الأمريكيين أن إعلان ابن لادن هو تصوير زائف وتشويه جسيم لطبيعة التواجد الأمريكى فى بلاد العرب والغرض منه. وعلى هؤلاء أن يدركوا كذلك أن هذا الإعلان هو بالنسبة لمعظم المسلمين كذلك تصوير بالغ الزيف لطبيعة الإسلام، بل ولطبيعة مفهوم الجهاد فيه. فالقرآن يتحدث عن السلام كما يتحدث عن الحرب. كما أن مئات الآلاف من السنن والأحاديث المنسوبة للنبى، على اختلاف درجة الثقة فى إسنادها إليه، والتى تفسر أحيانا بطرق مختلفة، تتضمن مجموعة واسعة من

التوجيهات لا يزيد التفسير النضالي والعنيف للدين فيها عن أن يكون واحدا من بين العديد من التفسيرات.

. وفى الوقت نفسه فإن أعدادا كبيرة من المسلمين على استعداد لإقرار مثل هذا التفسير للدين وإن كان عدد أولئك الذين هم على استعداد لتطبيقه على هذا النحو أقل بكثير. والإرهاب لا يتطلب إلا عددا قليلا. ومن البديهى أنه يجب على الغرب أن يدافع عن نفسه بأية وسيلة يراها فعالة. ولكن من المفيد قطعا، عند اختيار الوسائل اللازمة لمكافحة الإرهابيين، فهم القوى التى تدفعهم إلى القيام بما يفعلون.

الفصل الأول

تعريف الإسلام

من الصعب إطلاق التعميمات حول الإسلام. فالكلمة نفسها تستخدم عادة بمعنيين متميزين وإن كانا مرتبطين، فهى تستخدم باعتبارها مقابلا للمسيحية من جهة وللعالم المسيحى من جهة أخرى. وهى فى أحد المعنيين تدل على الدين، وهو نظام للعقيدة والعبادة، وتدل فى الآخر على الحضارة التى نشأت وازدهرت فى ظل هذا الدين. ومن هنا فإن دلالة كلمة "إسلام" تشير إلى أكثر من أربعة عشر قرنا من التاريخ، وإلى مليار وثلث المليار من البشر، وإلى تراث دينى وثقافى شديد التنوع. وتمثل المسيحية والعالم المسيحى عددا أكبر وفترة زمنية أطول : أكثر من مليارين من البشر وأكثر من عشرين قرنا من الزمان وتشير كذلك إلى تنوع أكبر. ومع ذلك فإنه يؤخذ فى شأنها، أو يمكن أن يؤخذ، ببعض التعميمات حول ما يسمى أحيانا بالحضارة المسيحية، أو اليهودية - المسيحية، أو ما بعد المسيحية - أو بعبارة أكثر بساطة - الحضارة الغربية. بينما يصعب التعميم عند التعرض للحضارة الإسلامية، وقد يكون ذلك محفوفا بالمخاطر أحيانا، إلا أنه ليس بمستحيل وقد يكون مفيدا فى أحيان أخرى.

ويمتد العالم الإسلامى، من الناحية المكانية، من المغرب إلى إندونيسيا، ومن كازاخستان إلى السنغال. وهو يرجع، من الناحية الزمنية، إلى أكثر من أربعة عشر قرنا أى إلى عهد ظهور النبى محمد وبعثته فى بلاد العرب فى القرن السابع من التقويم الميلادى، وقيام المجتمع والدولة الإسلامية بقيادته. وخلال الفترة التى يعتبرها المؤرخون الأوروبيون فاصلا مظلما بين انهيار الحضارة القديمة - الإغريقية والرومانية - وقيام الحضارة الحديثة فى أوروبا، كان الإسلام هو الحضارة الرائدة فى العالم التى تميزت

بممالكها الكبيرة والقوية، وصناعتها وتجارتها الغنية والمتنوعة، وعلومها وآدابها المبتكرة والخلاقة. وكان الإسلام، بأكثر مما كان العالم المسيحى بكثير، هو المرحلة الوسيطة بين الشرق القديم والغرب الحديث الذى أسهم فيه إسهاما كبيرا. لكن العالم الإسلامى، خلال القرون الثلاثة الأخيرة، فقد سيطرته وريادته وتخلف وراء كل من الغرب الحديث ووراء الشرق الأقصى الذى يسير بسرعة نحو التحديث. وتثير هذه الفجوة المتزايدة الاتساع مشكلات حادة، من الناحية العملية ومن ناحية المشاعر، لم يجد لها الحكام والمفكرون والمتمردون فى العالم الإسلامى حلولا فعّالة بعد.

والإسلام كدين أقرب من جميع الوجوه إلى التراث اليهودى - المسيحى عنه إلى أى من الديانات الكبرى فى آسيا مثل الهندوسية أو البوذية والكنفيشيوسية. فاليهودية والإسلام يشتركان فى الاعتقاد بوجود قانون إلهى ينظم جميع أوجه النشاط الإنسانى بما فى ذلك المأكل والمشرب. ويشترك المسيحيون والمسلمون فى الشعور بالفوز. فهم يعتقدون على خلاف أتباع الديانات الأخرى التى عرفتها البشرية، بما فيها اليهودية، أنهم هم وحدهم الذين أسعدهم الحظ بتلقى الرسالة الإلهية الختامية إلى البشر والحفاظ عليها، وأن من واجبهم نقلها إلى بقية العالم. وترتبط أديان الشرق الأوسط الثلاثة - اليهودية والمسيحية والإسلام - فيما بينها ارتباطا وثيقا، بالمقارنة بأديان الشرق الأخرى النائية، بل إنها تبدو فروعا تنتمى إلى تراث دينى واحد.

ويعتبر العالم المسيحى والإسلام من وجوه كثيرة حضارتين شقيقتين، يعتمد كل منهما على التراث المشترك للوحى والنبوة الموسوية وعلى الفلسفة والعلوم اليونانية ويتغذيان من تراث الشرق الأوسط القديم الضارب بجذوره فى أعماق التاريخ. وقد ظلا يتحاربان، فى معظم فترات تاريخهما المشترك، ولكن حتى فى وقت الصراع والجدل فإنهما يكشفان من حيث الجوهر عن علاقة القربى بينهما وعن الملامح المشتركة التى تربط أحدهما بالآخر والتى تفصل بينهما وبين الحضارات الأكثر بعدا فى آسيا.

وكما أن هناك أوجه شبه بينهما فإن هناك تباينا عميقا أيضا يتجاوز مجرد الاختلافات الظاهرة فى العقيدة والعبادة. وأكثر ما تكون هذه الاختلافات عمقا- وأشد ما تكون وضوحا أيضا - فى مواقف هذين الدينين، ورموزهما المعتمدة، من العلاقة بين الحكم والدين والمجتمع. فقد أمر مؤسس المسيحية أتباعه "بإعطاء ما لقيصر

لقيصر وما لله لله" (إنجيل متى ٢٢:٢١). ونشأت المسيحية وتطورت طوال قرون عديدة باعتبارها ديانة المقهورين إلى أن اعتنق الإمبراطور قسطنطين المسيحية حيث أصبح قيصر نفسه مسيحيا مفتتحا بذلك سلسلة من التغيرات استحوذت فيها العقيدة الجديدة على الإمبراطورية الرومانية وغيرت حضارتها. أما مؤسس الإسلام فقد كان هو نفسه قيصر وأنشأ هو نفسه دولته وإمبراطوريته الخاصة به. وبالتالى فإنه لم ينشئ كنيسة ولم يكن بحاجة إلى ذلك. ولم يكن هناك فى الإسلام مقابل للانفصام بين ما يتعلق بالحكم من جهة وما يتعلق بالروح من جهة أخرى، ذلك الانفصام ذى الأهمية الحاسمة فى تاريخ العالم المسيحى الغربى. وخلال حياة محمد شكل المسلمون مجتمعا سياسيا ودينيا فى نفس الوقت وأصبح النبى فيه رئيسا للدولة. وقد حكم بهذه الصفة مكانا وشعبا، وأقام العدل، وجمع الضرائب وقاد الجيوش وأعلن الحرب وصنع السلام. ولم تتعرض الأجيال الأولى للرواد المسلمين المؤسسين، الذين تمثل سيرتهم التاريخ المقدس للإسلام، لاختبار طويل الأمد من الاضطهاد ولم يكن لديهم تقليد راسخ فى مقاومة سلطة دولة معادية. بل على العكس، فقد كانت الدولة التى تحكمهم هى دولة الإسلام وكان تأييد الله لقضيتهم واضحا من خلال انتصاراتهم وإقامتهم إمبراطورية لهم فى هذا العالم.

أما روما الوثنية فقد كان قيصر فيها هو الله. وكان أمام المسيحيين الخيار بين الله وبين قيصر وظلت أجيال لا نهاية لها من المسيحيين محاصرة أمام هذا الخيار. ولم يكن هناك فى الإسلام مثل هذا الاختيار المؤلم. ففى التنظيم السياسى الإسلامى للعالم، كما يتصوره المسلمون، ليس هناك قيصر بل هناك الله فقط وهو وحده صاحب السيادة وهو وحده مصدر التشريع. وقد كان محمد نبى الله وكان أثناء حياته يعلّم ويحكم باسمه. وعندما مات محمد فى سنة ٦٣٢ ميلادية كانت رسالته الروحية والنبوية إلى البشرية قد اكتملت. أما ما تبقى بعد ذلك فقد كان الواجب الدينى المتمثل فى نشر الوحى الإلهى حتى يقبله فى النهاية العالم كله. وكان لابد لتحقيق ذلك من أن يتسع نطاق السلطة وبالتالى أن تتسع الجماعة التى تعتنق العقيدة الصادقة وتتمسك بشريعة الله. وحتى يتوافر التجانس والقيادة اللازمين لهذه المهمة كان لابد من وجود نائب أو خليفة للنبى. وكلمة "خليفة" فى اللغة العربية هى اللقب الذى اتخذه لنفسه حمو النبى وخليفته الأول، أبو بكر، الذى كان فى توليه رئاسة المجتمع الإسلامى إرساء لقواعد المؤسسة التاريخية الكبرى التى عرفت باسم "الخلافة".

وفى ظل الخلفاء نما مجتمع المدينة، الذى كان يحكمه النبى، فيما لا يزيد على قرن من الزمان ليصبح إمبراطورية شاسعة وأصبح الإسلام دينا عالميا. وتدل تجارب المسلمين الأوائل، كما حفظت وسجلت للأجيال التالية، على أن الحقيقة الدينية والسلطة السياسية كانتا مرتبطتين ارتباطا لا انفصام له : فقد أسبغت الأولى القدسية على الثانية وساندت الثانية الأولى. وقد لاحظ آية الله الخومينى يوما أن "الإسلام هو السياسة وبغيرها لا يكون شيئا". قد لا يكون هذا رأى جميع المسلمين لكن أغلبهم يوافقون على أن الله معنى "بالسياسة"، وأن هذا الاعتقاد تؤكده وتسانده الشريعة، وهى القانون المقدس، الذى يتناول باستفاضة مسألة اكتساب السلطة وممارستها، وطبيعة الشرعية والسلطة، وواجبات الحاكم والمحكوم، أى بعبارة أخرى ما نطلق عليه نحن فى الغرب القانون الدستورى والفلسفة السياسية.

أدى التفاعل الطويل بين الإسلام والمسيحية وأوجه الشبه الكثيرة والتأثير المتبادل بينهما ببعض المراقبين إلى إغفال بعض الاختلافات الجوهرية. فقد قيل إن القرآن هو إنجيل المسلمين، وإن المسجد هو كنيستهم، وإن "العلماء عند المسلمين هم المقابل لرجال الكنيسة". ورغم ما فى هذه العبارات الثلاث من صحة إلا أنها مضللة أيضا بشكل خطير. فالعهد القديم والعهد الجديد يتكونان من تجميع لكتب مختلفة تم عبر فترة طويلة من الزمن، ينظر إليها المؤمنون بها على أنها تنطوى على الوحى الإلهى. أما القرآن فهو بالنسبة للمسلمين كتاب واحد جاء فى زمن واحد وصدر عن رجل واحد هو النبى محمد. وبعد نقاش اتسم بالحيوية خلال قرون الإسلام الأولى رسخ الاعتقاد بأن القرآن نفسه قديم لم يخلق وأنه أبدى وإلهى وغير قابل للتبديل. وأصبح ذلك من التعاليم الأساسية للعقيدة.

والواقع أن المسجد هو بالفعل المقابل للكنيسة عند المسلمين بمعنى أنه مكان للعبادة الجماعية. ولكن لا يمكن أن نتحدث عن "المسجد" بمثل ما نتحدث عن "الكنيسة" باعتبارها مؤسسة لها تدرجها الهرمى الخاص بها ولها قوانينها الخاصة بها كمقابل للدولة. وربما أمكن أن يوصف العلماء (فى إيران وفى البلدان الإسلامية التى تأثرت

بالثقافة الفارسية حيث يعرفون باسم الملا أو الملالى) بأنهم "رجال الدين" بالمعنى السوسيولوجى، من حيث إن مهنتهم هى الاشتغال بالدين وإنهم أُعتمدوا لهذا الغرض بحكم تدريبهم ومؤهلاتهم. لكن الإسلام لا يعرف الرهبنة - فليس هناك راهب وسيط بين الله وبين المؤمنين، وليست هناك رسامة ولا أسرار كهنوتية ولا طقوس يمتنع على غير رجال الكنيسة الذين تمت رسامتهم أن يقوموا بها. وربما كان من الممكن أن نضيف فى الماضى أنه ليست هناك مجامع أو مجالس كنسية ولا أساقفة لفرض الأصولية ولا محققين لإنفاذها. لكن الأمر لم يعد تماما كذلك فى إيران على الأقل.

المهمة الأولى للعلماء - واللفظ مشتق من كلمة عربية تعنى العلم أو المعرفة - هى الحفاظ على الشريعة المقدسة وتفسيرها. ومنذ العصور الوسطى المتأخرة بدأت فى الظهور فئة مشابهة لقساوسة الأبرشيات لتلبية احتياجات بسطاء الناس فى المدن والقرى، لكن هؤلاء كانوا منفصلين عن العلماء ولم يكونوا موضع ثقتهم وكان تركيزهم منصبا على الجوانب الغيبية فى الإسلام أكثر منه على جانب العقائد فيه. لكن ذلك لم يكن له جذور فى التراث الإسلامى التقليدى، كما أن أعضاءه لم يطالبوا يوما، ولم يمارسوا، سلطات الرهبان المسيحيين. أما فى العصور الحديثة فقد وقعت تغييرات كثيرة ترجع أساسا إلى التأثير الغربى، حيث ظهرت مؤسسات ومهن أشبه بالكنائس والرهبان فى العالم المسيحى إلى حد يثير الشك. على أن تلك المؤسسات والمهن تعتبر ابتعادا عن الإسلام التقليدى وليست عودة إليه.

وإذا كان من الممكن أن يتحدث المرء عن رجال دين، بالمعنى السوسيولوجى الضيق لهذه الكلمة، فى العالم الإسلامى فلا معنى على الإطلاق للحديث عن كيان علمانى. ففكرة وجود شىء منفصل، أو قابل للانفصال، عن السلطة الدينية، وهو ما يعبر عنه فى اللغات المسيحية بمصطلح "الزمنى" أو "الدنيوى" أو "العلمانى"، فكرة غريبة تماما عن الفكر الإسلامى وممارساته. فحتى العصور الحديثة نسبيا لم يكن يوجد فى اللغة العربية مقابل لهذه المصطلحات، ثم استعيرت حديثا مما يستخدمه المسيحيون الناطقون بالعربية، أو تم اختراعها.

كان للمجتمع الإسلامى، منذ أيام النبى، طابعا مزدوجا. فمن جهة كان يعتبر بمثابة جماعة سياسية - أى جماعة لها رئيس تحولت من بعد إلى دولة ثم إلى إمبراطورية. وكان كذلك جماعة دينية أسسها نبى وحكمها نواب عنه، ثم أصبحوا خلفاء له. لقد تم صلب المسيح، ومات موسى دون أن يدخل أرض الميعاد وتأثرت عقائد ومواقف أتباع دينيهما تأثرا عميقا بذكرى هذه الوقائع. أما محمد فقد انتصر أثناء حياته ومات ملكا وغازيا. وقد تأكدت مواقف المسلمين الناتجة عن ذلك من خلال تاريخهم الدينى فيما بعد. فقد أتى الغزاة البرابرة - القابلون للتعلم - إلى أوروبا الغربية ليجدوا فيها دولة ودينا قائمين : الإمبراطورية الرومانية والكنيسة المسيحية واعترف الغزاة بهما معا وعملوا على تحقيق غاياتهم وتلبية احتياجاتهم من خلال البنيات القائمة للجماعة السياسية الرومانية والدين المسيحى، وكانت اللغة التى يستخدمها كلاهما هى اللغة اللاتينية. أما العرب المسلمون الذين غزوا الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. فقد جاءوا بعقيدتهم الخاصة، وبكتاباتهم الدينية وبلغتهم الخاصة؛ وأنشأوا جماعتهم السياسية الخاصة، بقوانينها الجديدة، وبلغة وبنية إمبراطورية جديدة، كان الخليفة هو رئيسها الأعلى. وقد حدد الإسلام هذه الدولة والجماعة السياسية، وكان الأعضاء الذين يتمتعون بالعضوية الكاملة فيها هم وحدهم أولئك الذين يعتنقون العقيدة الغالبة.

وتنقسم الحياة العملية للنبى محمد، والتى تعد فى هذا الشأن، وفى كل شأن آخر، النموذج الذى يسعى كل مسلم حسن الإسلام إلى التشبه بها، إلى قسمين. ففى القسم الأول الذى قضاه فى مسقط رأسه، مكة (٥٧٠ - ٦٢٢)، كان معارضا لحكم الأقلية الوثنية. وفى القسم الثانى، بعد انتقاله من مكة إلى المدينة (٦٢٢ - ٦٣٢)، كان رئيسا لدولة. ويعبّر القرآن عن كل من هاتين المرحلتين، مرحلة المقاومة ومرحلة الحكم، حيث يأمر المؤمنين فى سور عديدة بطاعة رسول الله وعصيان الفرعون، نموذج الحكم الظالم المستبد. وكان هذان الجانبان من حياة النبى وعمله مصدر إلهام لتقليدين إسلاميين أحدهما سلطوى يسلم بالواقع، والآخر راديكالى يميل إلى الحركة. ويجد كل منهما تعبيرا وافيا عنه فى تطور هذا التقليد نفسه من جهة، وفيما طرأ من أحداث من جهة أخرى. فلم يكن من السهل دائما تحديد من الذى يمثل الله ومن الذى يمثل فرعون. وقد

وضعت كتب كثيرة، ووقعت معارك كثيرة فى سبيل ذلك لكن المشكلة لا تزال قائمة ويمكن مشاهدة كل من هذين التقليدين بوضوح فى مجادلات ومعارك عصرنا الحالى.

وبين النقيضين، التسليم التام بالواقع وأقصى الراديكالية، هناك موقف عام واسع الانتشار من التحفظ تجاه الحكومات بل وعدم الثقة فيها. ومما يعد مثالا على ذلك الاختلاف الكبير فى المواقف الشعبية خلال العصور الوسطى تجاه القاضى، وهو الذى يحكم فى النزاعات بين الناس، وتجاه المفتى، وهو الفقيه فى الشريعة المقدسة. فالقاضى، الذى كان يعين من قبل الحاكم، تظهر صورته فى الأدب والفولكلور الشعبى، كشخصية فاسدة بل وموضع السخرية، بينما يحظى المفتى، وهو المنصب الذى استحدثه المسلمون فى العصور الوسيطة من خلال اعتراف زملائه وعامة الشعب به، بالتقدير والاحترام. ومن الأمور الشائعة فى سير الأتقياء من الرجال - ولدينا منهم مئات الآلاف - أن يعرض على البطل منصب حكومى فيرفضه. وهنا يكون العرض دليلا على علمه وسمعته ويكون الرفض دليلا على نزاهته.

وقد وقع تغيير مهم فى العهد العثمانى. فقد اكتسب القاضى مزيدا من القوة ومن السلطة، كما أن منصب المفتى نفسه أدمج فى تدرج السلطة العامة. لكن الموقف القديم من عدم الثقة بالحكومة ظل على ما كان عليه، وكثيرا ما كان يجد تعبيرا عنه فى الأمثال والحكايات الشعبية بل وفى الأدب الرفيع أيضا.

وقد قدم الإسلام لما يزيد على ألف عام، المجموعة الوحيدة المقبولة عالميا من القواعد والمبادئ التى تنظم بمقتضاها الحياة العامة والحياة الاجتماعية. وحتى فى الفترة التى بلغ فيها النفوذ الأوروبى ذروته، سواء فى البلدان التى كانت تحكمها أو تسيطر عليها القوى الاستعمارية الأوروبية أو تلك التى ظلت مستقلة عنها، ظل للأفكار والمواقف السياسية الإسلامية تأثير عميق. وقد بدت فى السنوات الأخيرة مؤشرات عديدة على أن هذه الأفكار والمواقف قد تعود إلى سيطرتها السابقة وإن يكن فى أشكال مغايرة.

إن أشد الاختلافات بين الإسلام وبقية العالم تظهر فى مجال السياسة : الداخلية منها والإقليمية والدولية على السواء. فرؤساء الدول أو وزراء الخارجية فى البلدان الإسكندنافية والمملكة المتحدة مثلا لا يجتمعون من حين إلى آخر فى مؤتمرات قمة

بروتستانتية، ولم يكن من شأن حكام اليونان ويوغوسلافيا وبلغاريا والاتحاد السوفييتى أن يغفلوا مؤقتا خلافاتهم السياسية والأيديولوجية ليعقدوا اجتماعات منتظمة على أساس انتمائهم الحالي أو السابق للكنيسة الأرثوذكسية. كذلك فإن الدول التى تدين بالبوذية فى شرق آسيا وجنوب شرقها لا تشكل كتلة بوذية فى الأمم المتحدة، ولا فى غير ذلك من أنشطتها السياسية. فمجرد التفكير فى مثل هذا التجمع الذى يعتمد على الدين قد يبدو فى العالم الحديث أمرا عفا عليه الزمن، بل قد يبدو غير معقول. لكنه بالنسبة للإسلام ليس كذلك. فمن خلال التوترات التى صاحبت الحرب الباردة وما بعدها أنشأت أكثر من خمسين حكومة إسلامية - من بينها الملكيات والجمهوريات، والمحافظون والراديكاليون، والذين يأخذون بالرأسمالية أو بالاشتراكية، ومؤيدو الكتلة الغربية أو الكتلة الشرقية، وطيف واسع ممن يأخذون بأشكال مختلفة للحياد - جهازا موسعا للتشاور الدولى بل وللتعاون حول العديد من القضايا.

ففى سبتمبر ١٩٦٩ انعقد فى الرباط بالمغرب مؤتمر إسلامى على مستوى القمة قرر إنشاء هيئة أطلق عليها اسم منظمة المؤتمر الإسلامى وأنشأ لها أمانة دائمة فى جدة بالمملكة العربية السعودية. وقد أنشئت هذه الهيئة بالفعل وتطورت بسرعة خلال السبعينيات من القرن العشرين. وعنيت المنظمة بوجه خاص بتقديم المساعدة للبلدان الإسلامية الفقيرة، ومساندة الأقليات المسلمة فى البلدان غير الإسلامية، وبالوضع الدولى للإسلام والمسلمين أى - على حد تعبير أحد المراقبين - بالحقوق التى يقررها الإسلام للبشر.

وتضم هذه المنظمة فى عضويتها فى الوقت الحاضر سبعًا وخمسين دولة، بالإضافة إلى ثلاث دول لها صفة المراقب. وهناك دولتان من بين هذه الدول، هما ألبانيا وتركيا، توجدان فعلا أو تتطلعان إلى التواجد فى أوروبا (فالبوسنة لها فقط صفة المراقب)، ودولتان، هما سورينام (التى انضمت فى ١٩٩٦) وجويانا (التى انضمت فى ١٩٩٨) تقعان فى نصف الكرة الغربى. وتقع بقية الدول الأعضاء فى آسيا وأفريقيا وكانت قد حصلت على استقلالها عن الإمبراطوريات الغربية خلال نصف القرن الأخير ومنذ عهد أقرب عن الإمبراطورية السوفييتية، فيما عدا استثناءات قليلة.

والغالبية العظمى من السكان فى هذه الدول تدين بالإسلام رغم أن بعضها دخل إلى المنظمة على أساس وجود أقلية مسلمة كبيرة فيه. وتوجد، بخلاف هذه الدول، أقليات إسلامية كبيرة فى بلدان أخرى يرتبط بعضها بصلة القرابة مع الأغلبية، كما هو الحال فى الهند، أو يختلف عنها إثنيا ودينيا، كما هو الحال فى الشيشان والتتر فى الاتحاد الروسى. وتوجد فى بعض البلدان، مثل الصين، أقليات مسلمة من كل من النوعين. وهناك دول عديدة أخرى تستقبل أقليات مسلمة عن طريق الهجرة.

وهناك قيود مهمة تحد من تأثير منظمة المؤتمر الإسلامى كطرف فاعل فى العلاقات الدولية. فالغزو السوفييتى لأفغانستان، وهو عمل من أعمال العدوان الصريح على دولة إسلامية ذات سيادة، لم يثر أى احتجاج جدى من جانبها، بل إن بعض أعضائها دافعوا عنه. ومنذ وقت قريب أخفقت المنظمة فى معالجة الحروب الأهلية التى شهدتها بعض دولها مثل السودان والصومال. كما أن سجل أعمالها فى الشئون الإقليمية لا يثير الإعجاب. ففيما بين سنتى ١٩٨٠ و ١٩٨٨ خاضت دولتان إسلاميتان، هما العراق وإيران، حربا مدمرة أصابت كلا منهما بخسائر فادحة. ولم تفعل منظمة المؤتمر الإسلامى شيئا لمنع وقوع هذه الحرب أو لإنهائها. وعلى خلاف منظمة الدول الأمريكية أو منظمة الوحدة الأفريقية فإن منظمة المؤتمر الإسلامى لا تنظر فى انتهاكات حقوق الإنسان وغيرها من الشئون الداخلية للدول الأعضاء؛ وقد اقتصر اهتمامها بحقوق الإنسان على المسلمين الذين يعيشون فى ظل حكم غير إسلامى، وبصفة خاصة فى فلسطين. على أنه لا ينبغى مع ذلك إغفال شأن منظمة المؤتمر الإسلامى. فأنشطتها الثقافية والاجتماعية أنشطة مهمة ومتزايدة كما أن آلية التشاور المنتظم التى توفرها للدول الأعضاء يمكن أن تتزايد أهميتها مع تباعد العهد بالحرب الباردة وما كانت تحدثه آثارها من الاضطرابات.

وإذ ننتقل من السياسة الدولية والإقليمية إلى السياسة الداخلية فإننا سنجد الاختلاف بين الإسلام وسائر العالم، رغم أنه أقل لفتا للنظر، إلا أنه لا يزال جوهريا. ففى بعض البلدان التى تتبع النظام الديموقراطى ذى الأحزاب المتعددة هناك أحزاب سياسية تحمل أسماء دينية : مسيحى فى الغرب، هندوسى فى الهند، بوذى فى الشرق الأقصى. لكن عدد هذه الأحزاب قليل نسبيا وأقل منه من يقوم من بينها بدور ذى

شـأن. والمسـائل الدينيـة قليلة الأهميـة عـادة فى برامج هذه الأحـزاب وفى اجـتـذابهـا للناخبين. بينما لا يزال الدين فى كثير من البلدان الإسلامية، بل فى معظمها، عاملا سياسيا رئيسيا. وهو كذلك فى الشئون الداخلية بأكثر كثيرا منه فى الشـئون الدولية أو حتى الإقليمية. لماذا إذن هذا الاختلاف ؟.

الإجابة البديهية الأولى على ذلك هى أن معظم البلدان الإسلامية لا تزال متمسكة بإسلامها تمسكا عميقا على نحو تخلت عنه معظم البلدان المسيحية. ولا شك فى أن العقائد المسيحية، ورجال الدين الذين يساندونها، لا يزالون يشكلون قوة لها شأن كبير فى كثير من هذه البلدان. وبالرغم من أن دورهم لم يعد كما كان فى القرون الماضية، إلا أنه على أية حـال ليس دورا قليل الأهمـيـة. لكن الزعـمـاء الدينيـين فى أى بلد من البلدان المسيحية لا يستطيعون فى الوقت الحاضر الاعتماد على نفس القدر من قوة العقيـدة والمشاركة اللذين لا يزالان يعـتـبران أمـرا طبيـعـيا فى البلدان الإسـلاميـة. ولا تتمتع المقدسات المسيحية بالحصانة من النقد والمناقشة إلا فى القليل من البلدان المسيحية، إن وجد، بينما يعتبر ذلك أمرا طبيعيا فى المجتمعات الإسلامية حتى فى تلك التى يوجد فيها ظاهر من العلمانية والديموقراطية. والواقع أن ميزة الحصانة هذه قد امتدت، بحكم الأمر الواقع، إلى البلدان الغربيـة التى استـقـرت فيـهـا الآن جـمـاعـات إسلامية والتى تحظى فيها العقائد والممارسات الإسلامية بدرجة من الحصانة من النقد فقدتها الأغلبية المسيحية ولم تحصل عليها أبدا الأقليات اليهودية. والأهم من ذلك أن رجال الدين المسيحى، باستثناءات قليلة، لم يعودوا يمارسون نوعا من السـلطة العامة أو يطالبون بها، وهو الأمر الذى لا يزال عاديا ومقبولا فى معظم البلدان الإسلامية.

وتفسر شدة التمسك بالعقيدة الدينية وممارستها بين المسلمين، بالمقارنة لأتباع الديانات الأخرى، جزئيا وليس كليا، الموقف الإسلامى الفريد من السياسة. ذلك أن من الممكن ملاحظة وجود مثل هذا الموقف بين أفراد بل وجماعات يعتبر تمسكها بالعقيدة وممارستها لها سطحيا فى أحسن الأحوال. فالإسلام ليس فقط عقيدة وممارسة بل إنه أيضا هوية وولاء يتجاوزان بالنسبة للكثيرين أية هوية وأى ولاء آخر.

على أن استيراد الأفكار الغربية في الوطنية والقومية قد أدى، في الظاهر، إلى تغيير هذا كله وإلى إقامة سلسلة من الدول القومية الممتدة في أنحاء العالم الإسلامي من المغرب إلى إندونيسيا.

لكن الأمور ليست دائما كما تبدو على السطح. ويكفي أن نضرب مثلين على ذلك. ففي سنة ١٩٢٣، بعد الحرب اليونانية - التركية الأخيرة، اتفق البلدان على حل مشكلة الأقليتين الموجودتين فيهما بتبادل سكانهما: فأرسل اليونانيون من تركيا إلى اليونان وأرسل الأتراك من اليونان إلى تركيا. هذا - على الأقل - ما تقوله كتب التاريخ عن تلك القصة. إلا أن الوقائع مختلفة إلى حد ما. فالبروتوكول الذي وقعته الحكومتان في لوزان سنة ١٩٢٣، الذي يتضمن اتفاق المبادلة، لا يتحدث عن "اليونانيين" أو عن "الأتراك". بل إنه يعرِّف الأشخاص الذين سيتم تبادلهم بأنهم "الرعايا الأتراك الذين يدينون بالأرثوذكسية اليونانية المقيمون في تركيا" و "الرعايا اليونانيين الذين يدينون بالإسلام المقيمون في اليونان". ويعني ذلك أن البروتوكول يعترف فقط بنوعين من الهوية: أحدهما أن يكون الشخص من رعايا دولة معينة والآخر أن يكون من أتباع ديانة معينة. فهو لا يشير إلى جنسية قائمة على الانتماء الإثني أو اللغوي. وقد تأكدت دقة هذه الوثيقة في التعبير عن المعنى الذي يقصده موقعوها من خلال التبادل الفعلي. فكثير ممن يسمون باليونانيين ينتمون إلى إقليم كرمان في الأناضول التركية ويتحدثون التركية باعتبارها لغتهم الأم ولكنهم يكتبونها بالحروف اليونانية ويتعبدون في الكنائس الأرثوذكسية. وكثير ممن يسمون بالأتراك من اليونان لم يكونوا يعرفون التركية، أو لا يكادون يعرفونها، وكانت اللغة الشائعة التي يتكلمونها بينهم هي اليونانية والتي كانوا يكتبونها بالحروف التركية - العربية. ولعل المراقب الغربي، الذي اعتاد على نظام التصنيف الغربي، كان سيخلص إلى أن ما اتفقت عليه حكومتا اليونان وتركيا ونفذتاه لم يكن تبادلا أو توطينا للأقليتين القوميتين اليونانية والتركية بل كان ترحيلا مزدوجا نحو المنفى: ترحيل للمسلمين اليونانيين إلى تركيا وترحيل للمسيحيين الأتراك إلى اليونان. وحتى وقت قريب للغاية كانت وثائق الهوية التي تصدرها الدولة في كل من اليونان وتركيا، وكلاهما من الديموقراطيات ذات النمط الغربي وإحداهما عضو في الاتحاد الأوروبي والأخرى تقدمت بطلب لعضويته، تتضمن سطرا خاصا يبين الديانة.

المثل الثانى هو مصر. فلا تكاد تكون هناك دولة أفضل من مصر من حيث تحديد انتمائها القومى. فهى بلد دقيق التحديد من الناحيتين التاريخية والجغرافية، ولها تاريخ حضارى متصل يرجع إلى أكثر من خمسة آلاف سنة. لكن للمصريين هويات متعددة؛ فطوال الأربعة عشر قرنا الأخيرة، أى منذ الغزو العربى - الإسلامى لمصر فى القرن السابع الميلادى وما أعقبه من دخول الإسلام والعروبة إلى البلاد، نادرا ما كانت الهوية المصرية هى السائدة، فقد تخلت عن مكانتها المرموقة للهوية الثقافية واللغوية للعروبة، وفى معظم الفترات، للهوية الدينية الإسلامية. ومصر - كأمة - من أقدم أمم العالم بينما هى - كدولة قومية - حديثة النشأة ولا تزال تواجه العديد من التحديات فى الداخل. ويأتى أشد هذه التحديات فى الوقت الحاضر فى مصر وفى بعض البلدان الإسلامية الأخرى من الجماعات الإسلامية الراديكالية، التى شاعت تسميتها "بالأصولية" وإن كانت تلك تسمية مضللة.

يقترن الإسلام، منذ حياة مؤسسه، ومن ثم فى الكتابات المقدسة التى يقوم عليها، فى أذهان المسلمين وفى ذاكرتهم بممارسة السلطة السياسية والحربية. ويقر الإسلام التقليدى بالتفرقة بين أمور الدنيا وأمور الآخرة، وبين التقوى والاعتبارات الدنيوية. وهو لا يقر بوجود مؤسسة منفصلة لها تدرجها الهرمى وقوانينها الخاصة تتولى تنظيم الشئون الدينية.

فهل يعنى ذلك أن الإسلام ثيوقراطى ؟ إذا كان المقصود بذلك أن الله هو أسمى الملوك وأعلاهم قدرا فالإجابة لابد أن تكون بالإيجاب. أما إذا كان المقصود هو الحكم بواسطة رجال الدين فإن الإجابة ستكون قطعا بالنفى. فظهور تنظيم ذى تدرج هرمى لرجال الدين وتوليه السلطة العليا فى الدولة إنما هو ابتكار حديث ويمثل إسهاما فريدا لآية الله الخومينى الراحل فى الفكر والتطبيق الإسلاميين فى إيران.

وكان للثورة فى إيران، شأنها شأن الثورة الفرنسية والثورة الروسية التى تشبههما فى كثير من الجوانب، تأثير ضخم ليس فقط فى الداخل وبين شعبها ولكن كذلك فى جميع الدول والشعوب التى يجمعها بها خطاب مشترك. فقد أثارت الثورة الإيرانية، على غرار الثورتين الفرنسية والروسية، فى عهدهما، آمالا عريضة وحماسا

بالغا. وعلى غرار هاتين الثورتين أيضا عانت من إرهابها ومن حربها من أجل التدخل، وعلى غرارهما أيضا كان لها "يعاقبتها" و "بلاشفتها" الذين كانوا مصممين على القضاء على أى مظهر من مظاهر البراجماتية أو الاعتدال. وعلى غرارهما أيضا، وبوجه خاص على غرار الثورة الروسية، كانت لها شبكة من العملاء والمبعوثين الذين يجاهدون بمختلف الطرق لمساندة قضية الثورة أو على الأقل النظام الذى يبدو أنه يجسدها.

لقد شاع استخدام كلمة "ثورة" استخداما خاطئا فى العصر الحديث فى الشرق الأوسط حيث أطلقت - أو طلب إطلاقها - على كثير من الأحداث التى يمكن وصفها بصورة أدق بكلمة coup d'etat الفرنسية أو Putsch الألمانية أو Pronunciamiento الإسبانية(*). ومن المدهش أن التجربة السياسية للشعوب الناطقة بالإنجليزية لم تتمخض عن كلمة مقابلة. أما ما حدث فى إيران فلم يكن شيئا من ذلك ولكنه كان فى أصله حركة ثورية حقيقية من أجل التغيير. ومثل سابقاتها فقد اتجهت فى كثير من الأمور اتجاها شديد الخطأ أدى إلى الاستبداد فى الداخل وإلى الإرهاب والتخريب فى الخارج. وعلى خلاف فرنسا وروسيا الثوريتين، فإن إيران الثورية تفتقر إلى الوسائل والموارد والمهارات اللازمة لتصبح قوة عالمية يخشى خطرها. والخطر الذى تمثله هو فى المقام الأول، وبدرجة ساحقة، على المسلمين وعلى الإسلام نفسه.

فالموجة الثورية فى الإسلام لها مكونات عديدة. وأحد هذه المكونات هو الشعور بالإذلال : شعور طائفة من الناس تعودت على النظر إلى نفسها باعتبارها الحارس الوحيد للحقيقة الإلهية، وأن الله أمرها بإبلاغ هذه الحقيقة إلى الكفار، ثم تجد نفسها فجأة وقد سيطر عليها هؤلاء الكفار أنفسهم واستغلوها، ثم تجد نفسها بعد أن تزول عنها هذه السيطرة وقد تأثرت بها تأثرا عميقا على نحو يغير من أسلوب حياتها وينقلها من الإسلام الصحيح إلى سبل أخرى. أضف إلى الإذلال الشعور بالإحباط بعد تجربة وسائل الإصلاح المختلفة، ومعظمها مستورد من الغرب، وإخفاق الواحدة تلو الأخرى.

(*) وكلها تعنى الانقلاب على الحكم القائم (المترجم).

وبعد الإذلال والإحباط يجيء مكوّن ثالث لازم من أجل الانتقاض : ثقة مستجدة وشعور بالقوة. وقد نتج هذان العنصران عن أزمة البترول فى سنة ١٩٧٣ حين قامت الدول العربية المنتجة للبترول، من أجل دعم مصر فى حربها ضد إسرائيل، باستخدام إمدادات البترول وسعره كسلاح ثبت أن له فعالية كبيرة. وقد عزز ما نتج عن ذلك من ثروة واعتزاز وثقة بالنفس عنصر جديد هو الازدراء. فقد بدأ الزوار المسلمون فى التعرف عن كثب على أوروبا وأمريكا وفى ملاحظة ووصف ما اعتبروه انحلالا أخلاقيا فيها وما يترتب على ذلك من ضعف فى الحضارة الغربية.

وفى زمن يشهد توترات متزايدة وأيديولوجيات متداعية وولاءات مشتتة ومؤسسات متهالكة فإن الإيديولوجية ذات الوجه الإسلامى تحقق مزايا عديدة : فهى توفر أساسا شعوريا مألوفا للهوية والتضامن والإقصاء الجماعى، وأساسا مقبولا للشرعية والسلطة، وصياغة يمكن استيعابها فورا للمبادئ التى يقوم عليها نقد الحاضر وبرنامج المستقبل. وبهذه الوسائل يستطيع الإسلام أن يقدم أكثر الرموز والشعارات فاعلية فى تعبئة الآراء سواء لصالح قضية أو نظام ما أو ضدهما.

وتتمتع الحركات الإسلامية بميزة ضخمة أخرى بالمقارنة بجميع منافسيها. فأمامها فى المساجد شبكة جاهزة للمشاركة والاتصال لا تستطيع أكثر الحكومات ديكتاتورية أن تُحكم الرقابة عليها. والواقع أن أشد الديكتاتوريات استبدادا تساعد هذه الحركات عن غير قصد بقضائها على أية معارضة تنافسها.

والراديكالية "الإسلامية"، التى أصبح من الشائع تسميتها بالأصولية الإسلامية، ليست حركة واحدة ومتجانسة. فهناك أنواع عديدة من الأصولية الإسلامية فى بلدان مختلفة بل وأحيانا فى داخل نفس الدولة. وبعضها تشرف عليه الدولة وتنشئه بنفسها وتستخدمه وتدعمه هذه أو تلك من حكومات الدول الإسلامية لخدمة أغراضها الخاصة، وبعضها يمثل حركة شعبية أصيلة تنبع من أسفل. وتوجد بين الحركات الإسلامية التى تشرف عليها الدولة عدة أنواع كذلك بعضها راديكالى وبعضها محافظ، وبعضها تخريبى وبعضها استباقى. وقد بدأت الحركات المحافظة والاستباقية بواسطة الحكومات التى تملك السلطة سعيا منها لحماية نفسها من الموجة الثورية، وذلك مثل

الحركات التى شجعها فى أوقات مختلفة كل من المصريين والباكستانيين وبصفة خاصة السعوديين. والنوع الآخر وهو الأكثر أهمية يأتى من أسفل وله قاعدة شعبية أصيلة. وأول هذه الحركات فى الاستيلاء على السلطة وأكثرها نجاحا فى ممارستها هى الحركة المعروفة باسم الثورة الإسلامية فى إيران. وهناك أنظمة إسلامية راديكالية تحكم الآن فى السودان وحكمت لفترة من الزمن فى أفغانستان. وتمثل الحركات الإسلامية تهديدا كبيرا للأنظمة القائمة - المعرضة للخطر بالفعل - فى بلدان أخرى وبوجه خاص فى الجزائر ومصر.

وعلى خلاف الجماعات البروتستانتية، التى تحمل هذا الاسم نفسه،(فإن الأصوليين الإسلاميين لا يختلفون عن سائر المسلمين فى أمور العقيدة وتفسير النصوص المقدسة. والنقد الذى يوجهونه نقد مجتمعى بوجه عام. فهم يرون أن العالم الإسلامى اتجه اتجاها خاطئا، وأن حكامه يسمون أنفسهم مسلمين ويدّعون الإسلام ولكنهم فى الواقع مرتدون خالفوا الشريعة المقدسة واتبعوا قوانين وأعراف الكفار. والحل الوحيد فى نظرهم هو العودة إلى أسلوب الحياة الإسلامى الأصيل، ويتعين كخطوة أساسية لتحقيق ذلك القضاء على الحكومات المرتدة. والأصوليون معارضون للغرب من حيث إنهم ينظرون للغرب على أنه مصدر الشر الذى يعمل على تآكل المجتمع الإسلامى، لكن هجومهم الأساسى موجه إلى حكّامهم وزعمائهم أنفسهم. كان هذا شأن الحركات التى أطاحت بشاه إيران فى سنة ١٩٧٩ وقتلت الرئيس السادات فى مصر بعد ذلك بعامين. وكان ينظر إلى كل منهما باعتباره رمزا لشر أكثر عمقا لابد لإصلاحه من تطهير داخلى. على أنهم استطاعوا فى مصر قتل الحاكم ولكنهم فشلوا فى الاستيلاء على الدولة، أما فى إيران فقد قضوا على النظام القائم وأنشأوا نظامهم الخاص.

الإسلام أحد ديانات العالم الكبرى. لقد أسبغ على الحياة الرتيبة والفقيرة معنى وكرامة. وعلّم البشر من الأجناس المختلفة العيش فى إخاء وعلّم الشعوب التى تدين بعقائد مختلفة العيش جنبا إلى جنب بقدر معقول من التسامح. وكان الإسلام مصدر الإلهام لحضارة كبرى عاش فى ظلها غير المسلمين كذلك حياة مبدعة ونافعة، أفادت بإنجازاتها العالم كله. لكن الإسلام، شأنه شأن الأديان الأخرى، عرف أزمنة بعث فيها

مزاج الكراهية والعنف فى نفوس بعض أتباعه. ومن سوء حظنا أن نكون مضطرين لمواجهة جانب من العالم الإسلامى فى الوقت الذى يمر فيه بمثل هذه المرحلة، وأن يكون الجانب الأكبر من هذه الكراهية - وبالتأكيد ليس كلها - موجها إلينا.

لماذا إذن ؟ علينا ألا نبالغ فى أبعاد المشكلة. فالعالم الإسلامى أبعد ما يكون عن الإجماع على رفض الغرب، كما أن الأقاليم الإسلامية فى العالم الثالث لم تكن هى وحدها التى تشعر بهذا العداء. فلا يزال هناك أعداد كبيرة من المسلمين، وربما غالبيتهم فى بعض الأوساط، نشترك وإياهم فى بعض القيم الثقافية والأخلاقية الأساسية، والمعتقدات والتطلعات الاجتماعية والسياسية؛ ولا يزال هناك حضور غربى كبير - ثقافيا واقتصاديا ودبلوماسيا - فى البلاد الإسلامية كما أن بعضها حليف للغرب. لكن هناك تصاعد فى الكراهية يحزن الأمريكيين وينذرهم، لكنه فوق ذلك يثير حيرتهم.

وكثيرا ما تتجاوز هذه الكراهية حد العداء لمصالح أو تصرفات أو سياسات معينة بل وحتى لدول معينة ليصبح رفضا للحضارة الغربية نفسها، ليس بسبب ما تفعله ولكن بسبب ما هى عليه وبسبب المبادئ والقيم التى تتبعها وتدعو إليها. فتلك ينظر إليها على أنها شر فى ذاتها وينظر إلى أولئك الذين يدعون إليها أو يقبلونها على أنهم "أعداء الله".

ولابد أن هذه العبارة، التى تتكرر كثيرا فى بيانات القادة الإيرانيين - سواء منها ما يتعلق بالشئون القانونية أو بالشئون السياسية - تبدو شديدة الغرابة فى نظر الذين يأخذون بأسباب الحداثة فى الخارج، سواء كانوا من المتدينين أو العلمانيين. فمن الصعب استيعاب فكرة وجود أعداء لله، وأنه بحاجة إلى مساعدة البشر من أجل معرفتهم والقضاء عليهم. لكن الفكرة نفسها ليست غريبة إلى هذا الحد. فمفهوم أعداء الله مفهوم مألوف فى العصور القديمة، الكلاسيكية منها والسابقة عليها، وهو مألوف كذلك فى العهدين القديم والجديد ومألوف كذلك فى القرآن.

وقد اكتسب الصراع بين الخير والشر فى الإسلام، أبعادا سياسية بل وعسكرية منذ البداية. ويذكر أن محمدا لم يكن نبيا ومعلما فقط، مثل مؤسسى الأديان الأخرى، لكنه كان حاكما وجنديا كذلك. من ثم فإن كفاحه شمل الدولة وقواتها المسلحة. وإذا كان المحاربون من أجل الإسلام يخوضون حربا مقدسة "فى سبيل الله"، ويحاربون من

أجل الله، فإن ذلك يستتبع أن خصومهم يحاربون ضد الله. وما دام المبدأ أن الله هو صاحب السيادة وأنه الرئيس الأعلى للدولة الإسلامية، ويعده النبي، ومن بعد النبي الخلفاء، كنواب عن الله، فإن الله صاحب السيادة هو قائد الجيش. والجيش هو جيش الله والعدو هو عدو الله، وواجب الجنود فى جيش الله هو الإمساك بأسرع ما يمكن بأعداء الله وإرسالهم إلى حيث يعاقبهم الله أى إلى الدار الآخرة.

والسؤال الأساسى الذى يشغل صانعى السياسة فى الغرب فى الوقت الحاضر يمكن أن يصاغ ببساطة على النحو التالى: هل يعتبر الإسلام، سواء كان أصوليا أو غير ذلك، تهديدا للغرب؟ وقد أجيب على هذا السؤال البسيط بإجابات بسيطة متعددة ولكن معظمها مضلل. فوفقا لما تراه إحدى المدارس الفكرية أنه بعد انهيار الاتحاد السوفييتى والحركة الشيوعية حل الإسلام والأصولية الإسلامية محلهما باعتبارهما التهديد الأكبر للغرب ولأسلوب الحياة الغربى. ووفقا لما تراه مدرسة فكرية أخرى فإن المسلمين أناس محترمون فى الأساس ومحبون للسلام وأتقياء وإن كان البعض منهم قد تعرض لأكثر مما يحتمل بسبب المآسى العديدة التى ألحقناها نحن الغربيون بهم. وقد اخترنا أن ننظر إليهم كأعداء لأننا نحتاج سيكولوجيا إلى عدو يحل محل الاتحاد السوفيتى المنهار.

ويحتوى كل من الرأيين على بعض عناصر حقيقية؛ ولكن كلا منهما خاطئ إلى حد خطير. فالإسلام فى ذاته ليس عدوا للغرب، وهناك أعداد متزايدة من المسلمين، هنا وهناك، لا ترغب إلا فى قيام علاقة أوثق وأكثر صداقة مع الغرب وفى نمو المؤسسات الديموقراطية فى بلدانها. لكن عددا كبيرا من المسلمين - وبوجه خاص أولئك الذين نطلق عليهم الأصوليون، وإن لم يكن الأمر قاصرا عليهم، يعتبرون معادين وخطرين ليس لأننا بحاجة إلى وجود عدو ولكن لأنهم هم بحاجة إلى ذلك.

وقد حدثت فى السنوات الأخيرة بعض التغيرات فى النظرة للأمور وبالتالى فى التكتيكات لدى المسلمين. فبعضهم لا يزال يرى فى الغرب بوجه عام وفى قائده الحالى، الولايات المتحدة بوجه خاص، العدو القديم للإسلام الذى لا تصالح معه، والعائق الأساسى الوحيد فى سبيل الإيمان بالله والعمل بشريعته فى الداخل وفى سبيل

انتصارهما نهائيا فى الخارج. وبالنسبة لهؤلاء فلا سبيل إلا الحرب حتى الموت التزاما بما يرون أنه تنفيذ لما تأمرهم به عقيدتهم. وهناك آخرون ممن يلتزمون تماما بإسلامهم ويدركون تماما مثالب المجتمع الغربى الحديث إلا أنهم يرون كذلك ما فيه من جوانب إيجابية : روح البحث السائدة فيه التى أنتجت العلم والتكنولوجيا الحديثين، وعنايته الكبرى بالحرية والتى أدت إلى ظهور الحكومة الديموقراطية الحديثة. ومع احتفاظ هؤلاء بعقائدهم وثقافتهم الخاصة فإنهم يسعون لمشاركتنا فى تطلعنا لبلوغ عالم أفضل وأكثر حرية. وهناك أيضا البعض ممن ينظرون إلى الغرب على أنه عدوهم الأكبر ومصدر كل شر إلا أنهم يدركون مع ذلك قوته ويسعون إلى نوع من التسوية المؤقتة معه من أجل الاستعداد على نحو أفضل للمعركة الفاصلة. ومن الحكمة ألا نخلط بين الفئتين الثانية والثالثة.

الفصل الثانى

دار الحرب

شهد التاريخ الإنسانى قيام وسقوط حضارات عديدة – الصين، والهند، اليونان، وروما ومن قبلها الحضارات القديمة فى الشرق الأوسط. وخلال القرون التى يطلق عليها فى التاريخ الأوروبى العصور الوسطى كانت أكثر الحضارات تقدما فى العالم – بغير شك – الحضارة الإسلامية. وربما تساوت حضارة الهند والصين مع الحضارة الإسلامية أو تجاوزتها، لكن كلا من هاتين الحضارتين ظل محدودا فى إقليم واحد وقاصرا على جماعة إثنية واحدة، ومن ثم كان تأثيرهما على بقية أنحاء العالم محدوداً أما الحضارة الإسلامية فقد كانت على العكس عالمية فى نظرتها كما أن تطلعاتها فى ذلك كانت أكثر صراحة.

ومن المهام الأساسية التى أوصى بها النبى المسلمين الجهاد. وهذه الكلمة مشتقة من مصدرها فى اللغة العربية وهو "جهد" التى تعنى بذل الجهد. وكثيرا ما تستعمل هذه الكلمة فى النصوص الكلاسيكية للتعبير عن معنى يرتبط بها هو الكفاح وبالتالى أيضا القتال. ويرد ذكر هذه الكلمة كثيرا فى العبارة القرآنية "الجهاد فى سبيل الله" (مثل ما ورد فى السورة التاسعة {التوبة} الآية ٢٤، وفى السورة الستين {الممتحنة}، الآية ١ وغيرها) وقد فسرت هذه الكلمة تفسيرات متعددة بمعنى الجهاد المعنوى وبمعنى الصراع المسلح. ومن السهل نسبيا أن نفهم من السياق أيًا من هذه المعانى هو المقصود. فالكلمة ترد كثيرا فى القرآن بكل من هذين المعنيين المختلفين وإن كانا مرتبطين. ففى السور المبكرة التى ترجع إلى العهد المكّى، حين كان النبى لا يزال زعيما لمجموعة قليلة العدد تكافح ضد حكم الأغلبية الوثنية، كثيرا ما ترد الكلمة بمعنى

الجهاد المعنوى، وهو المعنى الذى يفضله الشرّاح المحدثون. أما فى السور اللاحقة، التى نزلت فى المدينة حين كان النبى رئيسا للدولة وقائدا لجيشها، فإن الكلمة تحمل عادة وبصراحة أكبر طابعا عمليا. والمعنى الحربى قاطع فى كثير من هذه السور. وهناك مثل طيب على ذلك فى السورة الرابعة ({النساء} الآية ٩٥) : ﴿لا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. وهناك دلالات مماثلة تنم عنها السور : الثامنة ({الأنفال} الآية ٧٢ ، والتاسعة {التوبة} الآيات ٤١ و ٨١ و ٨٨) ، والسادسة والستين ({التحريم} الآية ٩) وغيرها.

ويفسر بعض المسلمين المحدثين، ولاسيما عندما يخاطبون العالم الخارجى، واجب الجهاد بمعناه الروحى والمعنوى. ولكن الغالبية العظمى من الثقاة السابقين، عندما يتعرضون للآيات المتعلقة بالجهاد فى القرآن وفى أحاديث وسنن النبى، يتناولون الجهاد بمعناه الحربى. ووفقا للشريعة الإسلامية فإن من المشروع شن الحرب على أربعة أنواع من الأعداء : الكفار، والمرتدون، والمتمردون، وقاطعو الطريق. ورغم مشروعية هذه الأنواع الأربعة من الحروب إلا أن النوعين الأولين فقط هما اللذان يدخلان فى مفهوم الجهاد. ومن ثم يكون الجهاد التزاما دينيا. ويفرّق الفقهاء المسلمون التقليديون، عند تناولهم للالتزام بالحرب المقدسة، بين الحرب الهجومية والحرب الدفاعية. ففى الحرب الهجومية يعتبر الجهاد فرضا على الجماعة الإسلامية ككل ويجوز لذلك أن يضطلع به المتطوعون والمهنيون. أما فى الحرب الدفاعية فإنه يصبح التزاما على كل فرد قادر عليه جسديا(*). وهذا هو المبدأ الذى احتج به أسامة بن لادن فى إعلانه الحرب على الولايات المتحدة.

وعبر معظم فترات القرون الأربعة عشر من التاريخ الإسلامى المسجل كان الجهاد يفسر فى الغالب على أنه الكفاح المسلح من أجل الدفاع عن قوة الإسلام أو تقدمه. والعالم، فى التراث الإسلامى، ينقسم إلى دارين : دار الإسلام، حيث تتولى الحكم

(*) يعبّر الفقهاء المسلمون عن النوع الأول بأنه فرض كفاية وعن النوع الثانى بأنه فرض عين (المترجم).

حكومات إسلامية وتسود الشريعة الإسلامية، ودار الحرب وتشمل بقية العالم الذى لا يزال يقطنه الكفار أو يحكمونه ، وهذا هو الأهم. والمفترض أن واجب الجهاد سيستمر، ولن توقفه سوى الهدنة؛ إلى أن يعتنق العالم كله العقيدة الإسلامية أو إلى أن يخضع للحكم الإسلامى. والذين يحاربون جهادا على هذا النحو سيفوزون بأجر عظيم فى الدنيا والآخرة: بالغنائم فى هذه الدنيا وبالجنة فى الآخرة.

والتوجيه القرآنى هنا، كما هو فى أمور كثيرة أخرى، تعززه وتشرحه الأحاديث والسنة النبوية، أى الأقوال والأفعال المأثورة عن النبى، وكثير منها يتعلق بالحرب المقدسة. وفيما يلى بعض الأمثلة على ذلك :

"الخَيْل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة : الأجر والغنيمة"

"رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه"

"الشهيد لا يجد مس القتل إلا كما يجد أحدكم القرصة يُقرصها"

"من مات ولم يغزُ ولم يحدّث به نفسه مات على شعبة من نفاق"

"عجب الله من قوم يدخلون الجنة فى السلاسل" [أى الذين اعتنقوا الإسلام بعد أسرهم]

" تعلموا الرماية فمن بلغ بسهم فى سبيل الله فهو له درجة فى الجنة"

"إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف"

وتضع السنة بعض قواعد الحرب التى يتعين العمل بها فى الجهاد؛ فقد أوصى النبى بحسن معاملة الأسرى، ونهى عن قتل النساء والصبيان وعن السلب والنهب، وأوصى المسلمين بالوفاء بالعهد إذ قال "من قتل معاهدا فى غير كنهه حرّم الله عليه الجنة".

وتتضمن المؤلفات الفقهية الكلاسيكية فى الشريعة الإسلامية عادة فصلا عن الجهاد بمعناه الحربى باعتباره حربا منظمة ضد الكفار والمرتدين. لكن هذه المؤلفات توصى بالسلوك الصحيح واحترام قواعد الحرب فيما يتعلق بأمور مثل بدء الاشتباكات وإنهائها ومعاملة غير المحاربين ومعاملة الأسرى، ناهيك عن المبعوثين الدبلوماسيين.

وفى معظم فترات التاريخ الإسلامى المسجل، منذ عهد النبى محمد ومن تلاه، فإن كلمة الجهاد استخدمت فى المقام الأول بمعناها الحربى. وقد بدأ محمد رسالته النبوية فى مسقط رأسه، مكة، ولكنه اضطر بسبب الاضطهاد الذى تعرّض له هو وأتباعه على يد الأقلية الوثنية الحاكمة فى هذه البلدة، إلى الانتقال إلى بلدة أخرى هى المدينة، حيث رحبت به القبائل المحلية ونصبته أولا حكَما بينها ثم حاكما لها. ويعرف هذا الانتقال فى اللغة العربية بالهجرة، والتى يحدث أحيانا خطأ فى هجائها بالإنجليزية فتكتب He-gira أو فى ترجمتها بكلمة "flight"(ومعناها الفرار). ويبدأ العصر الإسلامى من بداية السنة العربية التى وقعت فيها الهجرة. وقد شن النبى الجهاد الأول ضد حكام مسقط رأسه الذى انتهى بفتح مكة خلال شهر رمضان من العام الثامن للهجرة، الموافق لشهر يناير سنة ٦٣٠ بالتقويم الميلادى. وقد استسلم قادة مكة بغير قتال تقريبا، ومنح أهل مكة، فيما عدا أولئك الذين ارتكبوا جرائم محددة ضد النبى أو ضد أحد المسلمين، الأمان على حياتهم وأموالهم بشرط أن يلتزموا فى سلوكهم بما تم الاتفاق عليه. وكانت المهمة التالية هى نشر نفوذ الإسلام فى بقية أنحاء بلاد العرب ونشره فى عهد خلفاء النبى، إلى بقية أنحاء العالم.

وقد بدا ذلك فى القرون الأولى من العصر الإسلامى أمرا ممكنا بل مرجحا. فخلال فترة قصيرة للغاية تغلبت الجيوش الإسلامية الغازية على الإمبراطورية الفارسية القديمة وضمت كافة أراضيها إلى سلطان الخلافة، مما فتح الطريق لغزو آسيا الوسطى والهند. أما من جهة الغرب فإنه لم يكن قد تم بعد القضاء على الإمبراطورية البيزنطية ولكنها كانت قد حرمت من أجزاء واسعة من أراضيها. فقد تم ضم ولايات سوريا وفلسطين ومصر وشمال أفريقيا، والتى كانت مسيحية فى ذلك الوقت، ثم نشر فيها الإسلام والعروبة من بعد، واستخدمت كقاعدة لمزيد من الغزو لأوروبا ولفتح إسبانيا والبرتغال وجزء كبير من جنوب إيطاليا. وبحلول أوائل القرن الثامن كانت الجيوش العربية الغازية تتقدم فيما وراء جبال البرانس نحو فرنسا.

بعد عدة قرون من الانتصارات شبه المتصلة أوقف الجهاد العربى أخيرا وتم صده على يد أوروبا المسيحية. ففى الشرق تشبث البيزنطيون بالمدينة المسيحية الكبرى : القسطنطينية وصدوا سلسلة من الهجمات العربية. وفى الغرب بدأوا العملية التى طال

انتظارها والمعروفة فى التاريخ الإسبانى بـ Reconquista أو إعادة الغزو التى أدت فى النهاية إلى طرد المسلمين من الأراضى التى كانوا قد غزوها فى إيطاليا وفى شبه الجزيرة الأيبيرية. كما شرعوا فى محاولة للانتقال بهذه العملية إلى الشرق الأوسط لاستعادة مسقط رأس المسيح، الذى كان المسلمون قد غزوه فى القرن السابع. وقد أخفقت هذه المحاولة، المعروفة باسم الحروب الصليبية، إخفاقا تاما، وطرد منه الصليبيون فخرجوا فى غير انتظام.

لكن الجهاد لم يكن قد انتهى. بل بدأت مرحلة جديدة، لم تأت على يد العرب فى هذه المرة، ولكن على يد من دخلوا إلى الإسلام من بعد أى الأتراك والتتار. واستطاع هؤلاء أن يغزوا أراضى الأناضول التى كانت مسيحية حتى ذلك الوقت، وفى مايو سنة ١٤٥٣ استولوا على القسطنطينية، التى أصبحت منذ هذا التاريخ عاصمة لسلاطين آل عثمان، وهم الذين تولوا قيادة الجهاد الإسلامى بعد الخلفاء المسلمين الأوائل. واستأنف العثمانيون فى البلقان والتتار الذين أسلموا فى روسيا محاولة غزو أوروبا، من الشرق فى هذه المرة، وبدا فى وقت ما أنهم كانوا على وشك النجاح فى ذلك.

لكن أوروبا المسيحية استطاعت مرة أخرى إخراج الغزاة المغيرين وأن تشن، بنجاح أكبر من ذى قبل، هجوما مضادا على البلاد الإسلامية. كان الجهاد فى ذلك الوقت قد أصبح كله تقريبا دفاعيا. فقد تمثل فى مقاومة عملية إعادة الغزو فى إسبانيا وروسيا، ومقاومة حركات التحرر الوطنية التى قام بها الرعايا المسيحيون فى الإمبراطورية العثمانية وأخيرا، على نحو ما يرى المسلمون، الدفاع عن قلب الأراضى الإسلامية ضد هجمات الكفار. وأصبحت هذه المرحلة معروفة باسم الإمبريالية.

وحتى فى فترة التراجع هذه فإنه لم يتم التخلى بأية حال عن الجهاد الهجومى. فحتى وقت متأخر، فى سنة ١٨٩٦، غزا الأفغان المناطق الجبلية فى هندكوش التى أصبحت تمثل الآن شمال شرق أفغانستان. ولم يكن سكان هذا الإقليم حتى ذلك الوقت قد أسلموا، وكان المسلمون يطلقون عليه اسم "كافرستان" أى "أرض الكفار". وأعيدت تسميته بعد الغزو الأفغانى باسم "نورستان" أى "أرض النور". وخلال نفس الفترة كانت هناك أنواع مختلفة من الجهاد تدور فى أفريقيا ضد السكان غير المسلمين. لكن مفهوم

الجهاد وممارسته، وتطبيقه فى العالم الإسلامى الحديث كان فى جانبه الأكبر دفاعيا بحتا.

واستمر استخدام هذا التعبير، بمعناه الحربى أساسا، حتى العصور الحديثة نسبيا. ففى العصر العثمانى أطلق على مدينة بلجراد، وهى قاعدة متقدمة فى الحرب ضد النمساويين، اسم قريب فى إيقاعه هو "دار الجهاد". وفى أوائل القرن التاسع عشر، عندما أراد حاكم مصر التقدمى، محمد على باشا، إصلاح قواته المسلحة وإدارتها على النمط الفرنسى والبريطانى، أنشأ "وزارة للحرب" لإدارتها. وعرفت باللغة العربية باسم "ديوان الجهادية" وعرف رئيسها المشرف على شئون الجهاد باسم "ناظر الجهادية". ويمكن أن نضرب أمثلة أخرى فقدت فيها لفظة "الجهاد" قداستها واحتفظت فقط بطابعها الحربى. وفى العصور الحديثة جرى إحياء كل من المعنيين الحربى والمعنوى لكن الكلمة فهمت وطبقت على نحو متباين لدى المجموعات المختلفة. ومن الواضح أن المنظمات التى تتبنى اسم الجهاد فى الوقت الحاضر، فى كشمير والشيشان وفلسطين، لا تقصد به دلالته على الجهاد المعنوى.

ويطرح الجهاد أحيانا على أنه المقابل الإسلامى للحرب الصليبية، وينظر إلى اللفظين على أنهما مترادفين. وذلك صحيح إلى حد ما، فكلاهما أُعلن وشُن على أنه حرب مقدسة من أجل العقيدة الصحيحة ضد عدو كافر. لكن هناك فرقا بينهما. فالحروب الصليبية تعد تطورا متأخرا فى التاريخ المسيحى وتمثل ابتعادا جوهريا عن القيم المسيحية الأساسية كما جاءت فى الأناجيل. لقد تعرض العالم المسيحى للهجمات منذ القرن السابع وفقد أراض شاسعة لصالح الحكم الإسلامى؛ ومفهوم الحرب المقدسة، أو بالأحرى الحرب العادلة، كان مألوفا منذ العصور القديمة. ومع ذلك فإنه خلال الصراع الطويل بين الإسلام والعالم المسيحى كانت الحروب الصليبية متأخرة ومحدودة وقصيرة الأمد نسبيا. أما الجهاد فهو حاضر منذ بداية التاريخ الإسلامى : فهو وارد فى النصوص المقدسة، وفى حياة النبى وأفعال صحابته وخلفائه الأولين. واستمر الجهاد طوال التاريخ الإسلامى ولا زالت له جاذبيته حتى اليوم. وعبارة الحروب الصليبية مستمدة بالطبع من الصليب وكانت دلالتها تنصرف إلى الحرب المقدسة من أجل المسيحية. ولكنها فقدت فى العالم المسيحى هذه الدلالة منذ زمن بعيد وأصبحت

تستخدم بمعناها العام باعتبارها حملة أخلاقية الدوافع من أجل قضية سليمة. فيمكن للمرء أن يشن حربا "صليبية" من أجل البيئة، أو المياه النظيفة، أو من أجل خدمات اجتماعية أفضل، أو حقوق النساء أو مجموعة كبيرة من القضايا الأخرى. والسياق الوحيد الذى لم تعد تستعمل فيه هذه العبارة هو سياقها الدينى الأصلى. وعبارة الجهاد تستخدم كذلك بمعان متعددة لكنها، على خلاف "الحروب الصليبية"، احتفظت ضمن هذه المعانى بمعناها الأصلى الأول.

ويطلق على أولئك الذين يموتون أثناء الجهاد وصف الشهداء ومفردها باللغة العربية واللغات الإسلامية الأخرى شهيد. والكلمة الإنجليزية **martyr** أصلها من اللغة اليونانية **martys** بمعنى شاهد، ويقصد بها عند استخدامها فى السياق اليهودى - المسيحى ذلك الذى يكون على استعداد لتحمل العذاب والموت دون الرجوع عن عقيدته. والاستشهاد دليل أو شاهد على هذه العقيدة والاستعداد لتحمل العذاب والموت فى سبيلها. والكلمة العربية "شهيد" تعنى كذلك شاهد وتترجم عادة إلى الإنجليزية بـ **martyr** ولكن لها دلالة مختلفة. فكلمة الاستشهاد يقصد بها فى الاستخدام الإسلامى عادة الموت أثناء الجهاد والجزاء عليه هو الخلود فى الجنة، وهو ما وصف بشىء من التفصيل فى النصوص الدينية المبكرة. وعلى العكس من ذلك فإن الانتحار خطيئة معنوية تجلب على صاحبها اللعنة الأبدية حتى بالنسبة لأولئك الذين كان يمكن لولا ذلك أن يدخلوا الجنة. ويفرّق الفقهاء التقليديون بوضوح بين مواجهة الموت المؤكد على يد الأعداء وبين قتل الإنسان نفسه بيده. فالأول يفضى إلى الجنة والثانى إلى النار. وقد تجاهل بعض الفقهاء الأصوليين المحدثين وغيرهم هذه التفرقة بل أغفلوها تماما. ولكن وجهة نظرهم هذه بعيدة عن أن تحظى بقبول إجماعى. لذا فإن أولئك الذين يقومون بالعمليات الانتحارية يأخذون على عاتقهم مخاطر كبيرة من حيث الدقة الثيولوجية.

ولأن الحرب المقدسة واجب تفرضه العقيدة فقد نظمتها الشريعة تنظيما مفصلا. فقد أُمر المقاتلون فى الجهاد بعدم قتل النساء والأطفال والشيوخ ما لم يهاجموهم أولا، وبعدم تعذيب الأسرى أو التمثيل بهم، والإنذار باستئناف القتال بعد الهدنة، والوفاء بما يتفق عليه. ويناقش فقهاء العصور الوسطى وعلماء الدين بشىء من الاستفاضة قواعد الحرب بما فى ذلك المسائل المتعلقة بالأسلحة المسموح باستخدامها وغير المسموح

باستخدامها. بل إن هناك بعض النقاش في نصوص العصور الوسطى حول مدى مشروعية استخدام الصواريخ والحرب الكيماوية عند الحديث بالنسبة للأولى عن المنجنيق والنبال، وبالنسبة للثانية عن السهام ذات الأطراف المسممة ووضع السم فى إمدادات العدو من المياه. وهناك اختلاف كبير حول هذه النقاط. فبعض الفقهاء يسمحون بها وبعضهم يقيدها بشروط وبعضهم يحرّم استخدام هذه الأسلحة. والسبب الذى يثير مخاوفهم هو أنها تحدث الأضرار دون تمييز. ولم تأمر النصوص الأساسية للإسلام فى أى موضع من مواضعها بالإرهاب والقتل. كما أنها لا تتناول فى أى موضع منها – حسبما أعلم – القتل العشوائى لمن لا شأن لهم بالأمر. ويشدد بعض الفقهاء على أن أضرار الحرب يجب أن تكون أمرا عرضيا وليست غاية أساسية فى حد ذاتها. بل يذهب بعضهم إلى حد أنه إذا أصبحت تلك الأضرار غرضا أساسيا للحرب فإن ذلك يبطل الجهاد ويلغى فائدته، إن لم يكن فى هذه الدنيا ففى الدار الآخرة. وحتى يكون الجهاد صحيحا فإنه يجب أن يكون "فى سبيل الله" وليس من أجل المكاسب المادية. على أن هناك شكاوى عديدة من إساءة استخدام كلمة "الجهاد" ذات المعنى الشريف لأغراض غير شريفة. فالفقهاء الأفريقيون بوجه خاص يستنكرون استخدام كلمة جهاد من جانب أولئك الذين يغيرون على الرقيق لتبرير الاستيلاء عليهم وإثبات ملكيتهم لضحاياهم على نحو قانونى. وتنص الشريعة المقدسة على حسن معاملة غير المحاربين ولكنها تعطى للمنتصر حقوقا واسعة على الممتلكات وعلى الأشخاص المهزومين وأسرهم. فوفقا للتقليد العالمى الذى كان متبعا فى العصور القديمة كان الأعداء الذين يتم أسرهم فى الحرب يصبحون هم وأسرهم رقيقا يجوز بيعهم أو الاحتفاظ بهم لاستخدامهم لدى الذين أسروهم. وقد أدخل الإسلام تعديلا على هذه القاعدة بقصر الحق فى الاسترقاق على أولئك الذين أسروا أثناء الجهاد وليس فى أى نوع آخر من الحروب.

على أن قواعد الحرب ضد المرتدين مختلفة بعض الشىء وهى أشد صرامة عنها فى الحرب ضد الكفار. فالمرتد، فى نظر المسلمين أسوأ كثيرا من الكافر. فالكافر لم ير النور، وهناك دائما أمل فى أن يراه يوما. وإلى أن يحدث ذلك، فإنه يمكن أن يحظى بتسامح الدولة الإسلامية معه والسماح له، بعد استيفاء بعض الشروط، بممارسة دينه

الخاص به بل وبتطبيق قوانينه الدينية الخاصة. أما المرتد فهو شخص عرف العقيدة الصحيحة، وإن يكن لوقت قصير، ثم تخلى عنها. وليس لبشر أن يعفو عن هذا الجرم. ووفقا لما تراه الغالبية العظمى من الفقهاء فإن المرتد يجب أن يقتل إذا كان ذكرا. أما الإناث فإن عقوبتهن أخف وقد يكفى فيها الجلد أو السجن. وقد يعفو الله - ذو الرحمة - عنه فى الدار الآخرة إذا شاء ذلك. لكن ذلك ليس من سلطة أى إنسان. ومثل هذه التفرقة لها أهميتها فى العصر الحاضر، حيث أعلن قادة المناضلين الجهاد المزدوج : جهاد ضد الكفار الأجانب وجهاد ضد المرتدين فى الداخل. فمعظم الحكام المسلمين - إن لم يكن جميعهم - الذين يسعدنا هنا فى الغرب أن ننظر إليهم على أنهم أصدقاؤنا وحلفاؤنا - تنظر إليهم كثير من شعوبهم - إن لم يكن كلها - على أنهم خونة بل، وهذا هو الأخطر، على أنهم مرتدون.

ومنذ أزمنة مبكرة كانت هناك تفرقة قانونية بين الأراضى التى تم الاستيلاء عليها "عنوة" (وهذه الكلمة العربية ترادف عند الفقهاء الرومان **vi et armis**) وتلك التى فتحت "صلحا" أى بشكل من أشكال الهدنة أو الاستسلام بغير حرب. وتختلف القواعد المتعلقة بالغنائم، وبمعاملة السكان بوجه عام فى الأراضى المكتسبة فى كل من الحالتين فى بعض جوانبها المهمة . ويُرمز إلى هذا الاختلاف، حسبما جاء فى الأثر، فى المسجد كل يوم جمعة : ففى الأراضى التى تم فتحها عنوة كان الخطيب يحمل سيفا، أما فى تلك التى فتحت صلحا فإنه كان يحمل عصا خشبية. ولا يزال لصورة السيف أهمية خاصة. فالعلم السعودى يحمل حتى اليوم شعارين وسط خلفية خضراء : الأول هو نص الشهادة الإسلامية باللغة العربية : "لا إله إلا الله محمد رسول الله" والثانى هو رسم للسيف لا يخطئه النظر.

وفى بعض العصور عرف الفقهاء وضعا وسطا فيما بين دار الحرب ودار الإسلام، هو دار الصلح أو دار العهد. وتتكون هاتان الداران عادة من البلدان غير الإسلامية، المسيحية فى الغالب، التى أبرم حكامها نوعا من الاتفاق مع الحكام المسلمين يدفعون بمقتضاه ما يشبه الضريبة (أو الخراج) التى ينظر إليها على أنها مقابلة للجزية، أو لضريبة الرءوس، ويحتفظون بموجبه بقدر كبير من الاستقلال الذاتى فى شئونهم الداخلية. ومن الأمثلة المبكرة على ذلك الاتفاق الذى أبرمه الخلفاء الأمويون فى القرن

السابع مع أمير أرمينيا المسيحي. والمثل التقليدي على "دار الصلح" أو دار الهدنة هو الحلف الذي أبرم سنة ٦٥٢ ميلادية مع الحكام المسيحيين للنوبة الذين لم يدفعوا بمقتضاه ضريبة رءوس لكنهم كانوا يقدمون خراجا سنويا يتكون من عدد معين من الرقيق. وباختيارهم اعتبار هذه الهدايا نوعا من الجزية فإن الحكام المسلمين ومستشاريهم القانونيين استطاعوا تطويع القانون ليشمل مجموعة واسعة من العلاقات السياسية والعسكرية والتجارية مع القوى غير الإسلامية. ولم يختف هذا النهج تماما حتى الآن.

وقد عرف المسلمون منذ وقت مبكر أن هناك بعض الاختلافات بين شعوب دار الحرب وكان معظمها من المشركين أو ممن يعبدون الأصنام الذين لا يشكلون خطرا جديا على الإسلام وممن يرجح إمكان اعتناقهم له. وقد وجد هؤلاء أساسا في آسيا وأفريقيا. وتمثل الاستثناء الكبير من ذلك في المسيحيين، الذين اعترف المسلمون بأن لهم دينا من نفس نوع دينهم، ومن ثم كانوا أول منافسيهم في النضال من أجل السيطرة على العالم، أو بحسب التعبير الذي كان يمكنهم استخدامه، من أجل نشر الاستنارة فيه. فالعالم المسيحي والإسلام حضارتان تعرّفان من زاويتهما الدينية وقد دخلا في صراع ليس بسبب اختلافاتهما بل بسبب أوجه الشبه بينهما.

وقد استكمل بناء أقدم الأبنية الدينية الإسلامية القائمة حتى اليوم خارج بلاد العرب، وهو مسجد قبة الصخرة في القدس، في سنة ٦٩١ أو ٦٩٢ ميلادية. وينطوي إنشاء هذا المبنى الأثري في موقع المعبد اليهودي القديم، وعلى طراز الأبنية الأثرية المسيحية وبالقرب منها، مثل قبر المسيح وكنيسة القيامة، على رسالة واضحة موجهة إلى اليهود، بل وربما، وهذا هو الأهم، إلى المسيحيين أيضا. فما أوحي إليهم، رغم أنه كان صحيحا في يوم من الأيام، تعرّض للإفساد بسبب عدم جدارتهم بحفظه مما أدى إلى أن يلحق به الوحي الخاتم والكامل الذي جاء به الإسلام. فكما أنه تم تجاوز اليهود وجاء بعدهم المسيحيون، فإن النظام المسيحي في العالم ستحل محله الآن العقيدة الإسلامية والخلافة الإسلامية. وللتدليل على ذلك فإن الآيات القرآنية التي نقشت في مسجد قبة الصخرة تنكر ما يعتبره المسلمون أكبر أخطاء المسيحيين : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ④ ﴾ (سورة الإخلاص، رقم ١١٢). كان

ذلك تحديا صريحا للعالم المسيحى فى مكان نشأته. وبعد ألف سنة من ذلك التاريخ فإن كثيرا من المسلمين، وبوجه خاص أسامة بن لادن، رأوا فى استقرار القوات الأمريكية فى بلاد العرب تحديا مماثلا للإسلام ولكنه يجىء هذه المرة من جانب العالم المسيحى.

وللتأكيد على هذا التحدى المبكر للعالم المسيحى صك الخليفة لأول مرة عملة ذهبية، وهو الأمر الذى كان حتى ذلك العهد امتيازا مقصورا على الإمبراطورية الرومانية. ومما له أهميته أن الاسم الذى أطلق على العملة الإسلامية الذهبية الأولى هو الدينار، أخذ عن الديناريوس الرومانى. وتحمل بعض هذه العملات اسم الخليفة ولقبه : أمير المؤمنين وبنفس الآيات موضع الجدل. كانت الرسالة واضحة إذن. فمن المنظور الإسلامى كان اليهود، ومن بعدهم المسيحيون، قد ضلوا واتبعوا عقائد غير صحيحة. ومن ثم تم تجاوز الدينين وحل محلهما الإسلام، وهو الوحى الخاتم والكامل فى سلسلة ما أوحى به الله. وتدين الآيات المنقوشة فى قبة الصخرة والتى سجلت على العملات الذهبية ما يعتبر فى نظر المسلمين أسوأ ما فى هذا الإفساد للعقيدة الصحيحة. وهنا بالطبع رسالة إضافية من الخليفة إلى الإمبراطور : "إن عقيدتك قد شوهت وزمنك قد فات. أنا اليوم حاكم إمبراطورية الله على ظهر الأرض".

فُهمت هذه الرسالة تماما، وقد رأى الإمبراطور فى سك العملات الذهبية مبررا للحرب. ودار الصراع بعد ذلك لأكثر من ألف عام من جانب الخلفاء المسلمين من عواصمهم المتعاقبة فى المدينة ودمشق وبغداد والقاهرة وإسطنبول ضد الأباطرة المسيحيين فى القسطنطينية وفيينا وبعد ذلك، وتحت مسميات أخرى، فى بلدان أكثر بعدا إلى ناحية الغرب. وكان كل من هؤلاء الأباطرة فى عصره هو الهدف الأساسى للجهاد.

والواقع أن التطبيق العملى لعقيدة الجهاد لم يكن، بالطبع، صارما أو عنيفا على الدوام . فقد كان من الممكن أن تتوقف حالة الحرب التى يفرضها القانون الدينى بناءً على ما عرف قانونا بالهدنة. لكن هذه الهدنة كانت تختلف نوعا ما عن معاهدات السلام التى كانت توقعها القوى الأوروبية المتحاربة فيما بينها. وكان النبى قد عقد مثل هذه

الهدنة مع أعدائه الوثنيين، وأصبح ذلك هو الأساس لما يمكن للمرء أن يسميه القانون الدولي الإسلامي. فالتسامح مع الأديان القائمة على أساس الوحي الإلهي السابق بها، لا يعتبر في الشريعة مجرد فضيلة بل إنه يعد واجبا (سورة البقرة، الآية ٢٥٦ : ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ . ذلك أن الشريعة الإسلامية تتطلب، في الأراضي التي خضعت للحكم الإسلامي، أن يسمح لليهود والمسيحيين بممارسة أديانهم وإدارة شئونهم الخاصة وفقا لبعض القيود وأهمها فرض ضريبة الروس على كل ذكر بالغ. وهذه الضريبة، التي تسمى بالجزية، منصوص عليها في القرآن (سورة التوبة، الآية ٢٩) : ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ . (والمقصود بذلك اليهود والنصارى) وقد فسرت الكلمة الأخيرة في هذه الآية تفسيرات مختلفة سواء من الناحية النظرية أو العملية.

ومن القيود الأخرى التي فرضت ارتداء ملابس أو شارات مميزة وحظر حمل السلاح وركوب الخيل أو تملك الرقيق المسلمين أو تجاوز ارتفاع الأبنية الإسلامية. وباستثناء الشرطين الأخيرين والجزية فإن القيود الأخرى لم تكن تطبق بصرامة. ومقابل ذلك كان الرعايا غير المسلمين الذين تسامحت معهم الدولة الإسلامية يتمتعون بقدر كبير من الاستقلال الذاتي في إدارة الشئون الداخلية لطائفتهم بما في ذلك التعليم والضرائب وإنفاذ قوانينهم الخاصة في الأحوال الشخصية وبوجه خاص بالنسبة للزواج والطلاق والميراث. وكان يطلق على الحلف أو العقد القائم بين الدولة الإسلامية وطائفة رعاياها غير المسلمين "أهل الذمة" وعلى الفرد فيها أنه "ذمي". وبالتعبير المعاصر فإن اليهود والمسيحيين في الدولة الإسلامية التقليدية كانوا بمثابة ما يمكن أن نسميه اليوم مواطنون من الدرجة الثانية. ولكن المواطنة من الدرجة الثانية، التي تأتي بحكم القانون والوحي، ويعترف بها الرأي العام على أنها كذلك، كانت أفضل بكثير من انعدام المواطنة تماما، وهو المصير الذي تعرض له في الغرب غير المسيحيين، بل وحتى بعض المسيحيين الذين انحرفوا عن دينهم.

ولم يمنع الجهاد كذلك الحكومات الإسلامية من السعي إلى إقامة التحالفات أحيانا مع المسيحيين ضد منافسيهم من المسلمين حتى أثناء الحروب الصليبية.

الفصل الثالث

من الصليبيين إلى الإمبرياليين

تحتل الحروب الصليبية مكانا بارزا فى الضمير والخطاب الشرق أوسطى الحديث، سواء لدى العرب القوميين أو لدى الإسلاميين الأصوليين وبوجه خاص لدى أسامة بن لادن. ولم يكن الأمر دائما كذلك.

فقد كان سقوط القدس فى يد الصليبيين فى سنة ١٠٩٩ ميلادية انتصارا للعالم المسيحى وكارثة على المسلمين وكذلك على اليهود فى هذه المدينة. وإذا كان لنا أن نحكم على ضوء التاريخ المدون عن هذه الفترة سنجد أن الأمر لم يثر إلا قليلا من الاهتمام فى المنطقة. فالنداءات التى وجهها المسلمون المحليون إلى دمشق وبغداد لمساعدتهم ظلت بغير جواب، وسرعان ما دخلت الإمارات التى أنشأها الصليبيون حديثا من أنطاكية إلى القدس فى اللعبة السياسية المشرقية، وصاحبها تحالفات متعددة الأديان فى إطار من المنافسات بين الأمراء المسلمين والمسيحيين وفيما بينهم.

ولم تبدأ الحرب الكبرى المضادة للصليبيين التى أدت فى النهاية إلى هزيمتهم وطردهم إلا بعد ما يقرب من قرن كامل. وكان السبب المباشر لها هو ما قام به قائد صليبى، هو رينالد دى شاتيون، من أعمال لا تهدف إلا للحصول على الغنائم. فقد كان يسيطر على قلعة الكرك، التى تقع اليوم فى جنوبى الأردن، فيما بين ١١٧٦ و ١١٨٧ ميلادية، وكان يستخدمها لشن سلسلة من الغارات على القوافل والتجارة الإسلامية فى المناطق المجاورة، بما فيها الحجاز. ولعل مؤرخو الحروب الصليبية على حق حين يقولون إن دافع رينالد إلى ذلك كان اقتصاديا أساسا، أو بعبارة أخرى الرغبة فى السلب والنهب. لكن المسلمين رأوا فى حملاته استفزازا وتحديا موجها للأماكن الإسلامية المقدسة. وفى سنة ١١٨٢، وبالمخالفة لاتفاق عقده ملك القدس الصليبى مع

القائد المسلم صلاح الدين، قام ريناالد بمهاجمة قوافل إسلامية ونهبها بما فى ذلك إحدى قوافل الحجاج المتجهة إلى مكة. وكان الأشد خطرا، من وجهة النظر الإسلامية، تهديده لبلاد العرب وبالذات حملة القراصنة التى بعث بها إلى البحر الأحمر للإغارة على الملاحة الإسلامية وموانئ الحجاز التى كانت تخدم مكة والمدينة. كانت هذه الأحداث هى السبب المباشر الذى أدى بصلاح الدين إلى إعلان الجهاد ضد الصليبيين. ويعد ذلك مثلا حيا على الأهمية الجوهرية التى تحتلها بلاد العرب فى نظر المسلمين.

وقد ظلت انتصارات صلاح الدين واستيلائه على القدس من الصليبيين فى عام ١١٨٧ ميلادية مصدر إلهام للقادة العرب لزمن طويل، ولا تزال كذلك حتى اليوم. وكثيرا ما يشير صدام حسين إلى حاكمين سابقين للعراق يعتبرهما سلفين له فى رسالته هما : صلاح الدين الذى أنهى التهديد الغربى فى عصره بالانتصار على الصليبيين وطردهم، ونبوخذ نصر الذى عالج المشكلة الصهيونية بسرعة وبصورة نهائية. وفى الثامن من أكتوبر سنة ٢٠٠٢ ذكر رئيس وزراء فرنسا، جان - بيير رافاران، فى كلمة له أمام الجمعية الوطنية الفرنسية، كيف استطاع صلاح الدين "هزيمة الصليبيين فى الجليل وتحرير القدس". ومما يثير الاهتمام استخدام رئيس وزراء فرنسى لكلمة "تحرير" لوصف استيلاء صلاح الدين على القدس وانتزاعها من يد الصليبيين، وقد يكون ذلك تعبيرا عما نشهده اليوم من إعادة تنظيم الصفوف، أو ربما يكون حالة من اللياقة السياسية المبالغ فيها. وقد تُعزى مثل هذه الصياغة فى بلدان أخرى إلى الجهل بالتاريخ ولكن الأمر ليس كذلك فى فرنسا بكل تأكيد.

وحتى فى أوروبا المسيحية فقد تم الاحتفاء بصلاح الدين - عن حق - والإعجاب به لأخلاق الفروسية التى تميز بها ولمعاملته الكريمة لأعدائه الذين انتصر عليهم. لكن هذه المعاملة لم تشمل ريناالد دى شاتييون. ويشرح المؤرخ العربى الكبير ابن الأثير هذه الظروف قائلا إن صلاح الدين عاهد نفسه مرتين على قتله إذا وضع يده عليه : الأولى عندما حاول السير نحو مكة والمدينة والأخرى عندما استولى غدرا على القافلة (التى كانت متجهة إلى الحجاز)(*) وبعد الانتصار العظيم لصلاح الدين، وبعد أن أسر

(*) ابن الأثير : "الكامل فى التاريخ"، نشر C. J. Tornverg، المجلد ١١، سنة ٥٨٩ ،ليدن ١٨٥٣-١٨٦٤) ص : ٣٥٤-٣٥٥ .

الكثيرين من أمراء الصليبيين وقادتهم ثم أفرج عنهم، فصل رينالد دى شاتيون عن الباقين، وقتله وضرب رأسه بيديه.

ويبدو أنه بعد نجاح الجهاد واسترداد القدس لم يعد صلاح الدين وخلفاؤه من بعده يهتمون بالمدينة إلى حد أن أحدهم، فى سنة ١٢٢٩ ميلادية، تنازل عنها للإمبراطور فريدريك الثانى كجزء من اتفاق تم التوصل إليه كحل وسط بين الحاكم المسلم والصليبيين. واسترد المسلمون المدينة بعد أن حاول الصليبيون أن يجعلوا منها مدينة مسيحية بحتة. وبعد فترة طويلة من الغموض النسبى، عاد الاهتمام بالمدينة إلى الظهور فى القرن التاسع عشر، بدءا بالمناوشات بين القوى الأوروبية على حماية الأماكن المسيحية المقدسة، ثم مع الهجرة اليهودية الحديثة.

وقد شهدت نفس هذه الفترة بدء الاهتمام من جانب المسلمين، لأول مرة، بالحروب الصليبية، التى لم تكن قد أثارت لديهم عند وقوعها إلا قلقا محدودا إلى درجة تثير الدهشة. فقد سجل التاريخ الغنى وواسع النطاق المدون باللغة العربية لهذه الفترة وصول الصليبيين ومعاركهم والدويلات التى أنشأوها، ولكنه لا يكاد يبدى أى إدراك لطبيعة هذه المغامرة وأغراضها. وكلمة الحرب الصليبية أو الصليبيين لا تكاد تظهر فى التاريخ المدون باللغة العربية لهذه الفترة، حيث يشار إليهم بالكفار أو بالمسيحيين أو بالفرنجة، وهو الأغلب، وهو مصطلح يقصد به عادة الكاثوليك - وكذلك البروتستانت فيما بعد - من الأوروبيين المسيحيين للتمييز بينهم وبين الأرثوذكس والشرقيين الآخرين الذين يشاطرونهم دينهم. ويرجع الوعى بأهمية الحروب الصليبية كظاهرة تاريخية متميزة إلى القرن التاسع عشر وإلى ترجمة كتب التاريخ الأوروبية. ومنذ ذلك الوقت ظهرت رؤية جديدة للحروب الصليبية باعتبارها نموذجا مبكرا للتوسع الإمبريالى الأوروبى فى العالم الإسلامى. ولعل الوصف الأكثر دقة لهذه الحروب هو أنها تمثل ردا محدودا طال انتظاره - وبالتالى أصبح عديم الأثر - على الجهاد. لقد انتهت الحروب الصليبية بالفشل والهزيمة وسرعان ما نسيت فى بلاد الإسلام، لكن الجهود الأوروبية لمقاومة تقدم المسلمين نحو العالم المسيحى وصدهم حققت نجاحا أكبر، وأدت إلى ما أصبح يشكل سلسلة من الهزائم المؤلمة على حدود العالم الإسلامى.

كانت الإمبراطورية الإسلامية، فى ظل الخلافة العربية فى العصور الوسطى ثم فى ظل الأسرات الفارسية والتركية، أكثر مناطق العالم غنى وقوة وإبداعا واستنارة، وكان العالم المسيحى طوال الجانب الأكبر من العصور الوسطى فى موقف دفاعى. وفى القرن الخامس عشر اتسع نطاق الهجوم المسيحى المضاد. فقد طرد التتار من روسيا، والعرب من إسبانيا. أما فى جنوب شرق أوروبا حيث واجه السلطان العثمانى الإمبراطور البيزنطى أولا ثم الإمبراطور الرومانى المقدس، تغلبت القوة الإسلامية واعتبرت تلك الانتكاسات الأخرى قليلة الأهمية وهامشية. وظل الباشوات الأتراك حتى وقت متأخر من القرن السابع عشر يحكمون بودابست وبلجراد، كما كانت القوات التركية تحاصر ڤيينا، وكان القراصنة البربر يغيرون على السفن وعلى شواطئ البحار فى مناطق بعيدة مثل إنجلترا وأيرلندا ويلغوا أحيانا ماديرا وأيسلندا. وقد ساعد الأوروبيون الذين استقروا لسبب أو لآخر فى شمال أفريقيا القراصنة كثيرا فى عملهم وأطلعوهم على كيفية بناء السفن الصالحة للملاحة فى بحر الشمال بل وفى المحيط الأطلسى واستخدام العاملين عليها وتشغيلها. لكن هذه المرحلة لم تستمر طويلا.

ثم طرأ بعد ذلك تغيير عظيم. فقد انتهى الحصار التركى الثانى لڤيينا فى سنة ١٦٨٣ بالفشل التام وأعقبه انسحاب متسرع وغير منتظم - وتلك تجربة جديدة تماما بالنسبة للجيوش العثمانية. وقد أثارت هذه الهزيمة التى تعرض لها جيش كان يعتبر فى ذلك الوقت القوة الحربية الكبرى للعالم الإسلامى، نقاشا جديدا يبدو أنه ظل مستمرا منذ ذلك الحين. فقد ثار الجدل بين النخبة العثمانية العسكرية والسياسية، ثم الفكرية بعد ذلك، حول مسألتين : لماذا انهزمت الجيوش العثمانية - التى كانت يوما دائمة الانتصار - على يد العدو المسيحى الذى كان موضع الاحتقار؟ . وكيف يستطيعون استعادة سيطرتهم السابقة ؟ . ومع الزمن اتسع النقاش من النخبة إلى دوائر أوسع، وامتد من تركيا إلى كثير من البلدان الأخرى وشمل مجموعة متزايدة من القضايا.

وكانت أسباب القلق فى محلها. فقد تعاقبت الهزائم وقامت القوات المسيحية الأوروبية، بعد أن حررت أراضيها، بملاحقة الغزاة فى أراضيهم فى آسيا وأفريقيا. فحتى القوى الأوروبية الصغيرة مثل هولندا والبرتغال استطاعت إقامة إمبراطوريات

شاسعة فى الشرق وأن يكون لها دور تجارى مسيطر. وقد سجل مسئول عثمانى فى سنة ١٥٩٣ كان يقوم بتسجيل الأحداث الجارية أيضا، وهو سيلانيكى مصطفى أفندى، واقعة وصول سفير بريطانى إلى إسطنبول. ولا يبدو أنه اهتم كثيرا بالسفير بل كان أكثر اندهاشا للسفينة الإنجليزية التى أقلته. فقد كتب يقول : "لم تدخل سفينة بمثل هذه الغرابة أبدا إلى ميناء إسطنبول. لقد قطعت ٣٧٠٠ ميلا فى البحر وحملت ثلاثة وثمانين بندقية بالإضافة إلى أسلحة أخرى .. لقد كانت أعجوبة العصر لم ير أحد أو يسجل مثلها من قبل[*]. وكان من الأسباب الأخرى للدهشة ذلك الملك الذى أوفد السفير "فحاكم جزيرة إنجلترا امرأة تحكم البلاد التى ورثتها .. وسلطتها عليها كاملة".

وهناك تفصيل آخر لم يذكره المؤرخ العثمانى له أهميته. ذلك أن السفير الإنجليزى المذكور، الذى كان بالفعل معينا رسميا من قبل الملكة إليزابيث، لم يتم اختياره وتكليفه بواسطة الحكومة الإنجليزية ولكن بواسطة شركة تجارية - وكان هذا الترتيب مفيدا فى وقت كان الاهتمام الأساسى للعالم الغربى فيه بالشرق الأوسط منصبا على الأعمال التجارية. والواقع أن بداية العصر الجديد تميزت بالتوسع التكنولوجى والاقتصادى السريع والمجدد الذى عرفه الغرب - المصانع وبواخر شحن البضائع والشركات المساهمة. لذا كان من السهل أن تتفوق السفن الأوروبية الغربية التى بنيت للمحيط الأطلسى على تلك التى بنيت للبحر المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهندى سواء فى الحرب أو فى التجارة؛ كما أن هذه التجارة تعززت بفضل عادتين غربيتين : التعاون والمنافسة. وبحلول القرن الثامن عشر كانت منتجات الشرق الأوسط التقليدية مثل البن والسكر تزرع فى المستعمرات الغربية الجديدة فى آسيا والأمريكتين وتصدّر إلى الشرق الأوسط بواسطة تجار وشركات غربية. وحتى الحجاج المسلمون القادمون من جنوبى آسيا وجنوب شرقها إلى الأماكن المقدسة فى بلاد العرب كانوا يحجزون رحلاتهم على السفن الأوروبية لأنها كانت أسرع وأرخص ثمنا وأكثر أمانا وراحة.

(*) سيلانيكى مصطفى أفندى : "تاريخ السيلانيكى"، نشر Mehmet Ipsirli ، الطبعة الثانية، إسطنبول، ١٩٩٩، ص ٣٣٤

إن البداية التقليدية للتاريخ الحديث فى الشرق الأوسط، فى نظر المؤرخين من أبنائه أو من الغرب على السواء ، ترجع إلى سنة ١٧٩٨ حين هبطت الثورة الفرنسية ممثلة فى شخص جنرال شاب يدعى نابليون بونابرت أرض مصر. وخلال فترة قصيرة استطاع الجنرال بونابرت ، والحملة الصغيرة التى كانت تصاحبه ، غزو البلاد واحتلالها وحكمها. حدثت قبل ذلك هجمات وانسحابات وخسائر فى الأراضى وعلى الحدود النائية حيث كان الأتراك والفرس يواجهون النمسا وروسيا. أما أن تغزو قوة غربية صغيرة بلدا يقع فى قلب الأراضى الإسلامية فقد شكل ذلك صدمة عميقة. وكانت مغادرة الفرنسيين هى الأخرى صدمة أكبر من زاوية معينة. فقد أجبروا على ترك مصر ليس من جانب المصريين، أو ملوكهم الأتراك، بل بسبب سرية صغيرة تابعة للأسطول الملكى البريطانى يقودها أميرال شاب يدعو هوراتيو نيلسون. كان ذلك هو الدرس المرير الثانى الذى كان على المسلمين أن يتعلموه : فلم يكن بوسع قوة غربية أن تأتى وتغزو وتحكم كيفما شاءت فحسب، بل لم يكن من الممكن أيضا أن تخرجها إلا قوة غربية مثلها.

والإمبريالية موضوع ذو أهمية خاصة فى الخصومة بين الشرق الأوسط والغرب، وبوجه أخص بين الإسلام وبين الغرب. ولكلمة الإمبريالية عندهم معنى خاصا. فهذه الكلمة، مثلا، لم تستعمل أبدا من جانب المسلمين فى الإمبراطوريات الإسلامية الكبرى – تلك التى أقامها العرب أولا ثم من بعدهم الأتراك الذين غزوا أراضٍ شاسعة وشعوبا كثيرة وأدخلوها فى دار الإسلام. وكان أمرا مشروعا تماما بالنسبة للمسلمين أن يغزوا أوروبا وأن يحكموها لتمكين الأوروبيين من اعتناق الدين الحنيف دون أن يكرهوهم عليه. أما بالنسبة للأوروبيين فقد كان غزوهم للمسلمين وحكمهم إياهم جريمة وخطيئة، ناهيك عن محاولة تضليلهم. فاعتناق الإسلام، فى نظر المسلمين، أمر يفيد صاحبه ويثاب عليه من يساعدونه على ذلك. أما التحول عن الإسلام، فهو فى نظر الشريعة الإسلامية، ارتداد عنه وهو أشد الجرائم خطرا سواء بالنسبة لمن ضل أو لمن قام بتضليله. والشريعة فى هذا الأمر واضحة وقاطعة. فإذا ما تخلى المسلم عن إسلامه، حتى لو عاد من كان حديث الإسلام إلى دينه السابق، فالعقاب هو الموت. وقد اتسع مفهوم "التكفير" وممارسته فى العصر الحديث بدرجة كبيرة ، ويقصد به التعرف على

المرتد والإبلاغ عنه. وليس من الغريب فى الدوائر المتطرفة والأصولية تقرير أن سياسات . أو أفعال أو حتى أقوال مغينة تصدر من جانب أحد المسلمين تصل إلى حد الردة والحكم على المذنب لذلك بالموت. وكان هذا هو المبدأ الذى استندت إليه الفتوى الصادرة ضد سلمان رشدى، وتلك المتعلقة بقتل الرئيس السادات وكثيرين غيره.

وقد مر النشاط الأوروبى فى البلدان الإسلامية بعدة مراحل. كانت الأولى منها هى التوسع التجارى، أو كما يراها المسلمون، استغلالهم واستغلال بلادهم سواء كأسواق أو كمصادر للمواد الخام. ثم جاء بعد ذلك الغزو المسلح والفتح الذى بسطت الدول الأوروبية بمقتضاه سيطرتها الفعلية على مناطق كبيرة من العالم الإسلامى : الروس فى القوقاز وما وراءه ثم فى أواسط آسيا؛ والبريطانيون فى الهند؛ والبريطانيون والهولنديون فى ماليزيا وإندونيسيا، ثم فى مرحلة أخيرة البريطانيون والفرنسيون فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. وقد حكم الإمبرياليون هذه الأماكن لفترات متفاوتة استمر بعضها لقرون، كما حدث فى جنوب شرقى آسيا وفى الهند، وبعضها لفترات قصيرة نسبيا كما حدث فى البلاد العربية فى الشرق الأوسط.

وفى كلتا الحالتين ترك الأوروبيون بصماتهم. وفى العالم العربى بدأت فترة الحكم الإمبريالى الإنجليزى - الفرنسى بالفرنسيين فى الجزائر (١٨٣٠) والبريطانيين فى عدن (١٨٣٩) ثم استمر بالاحتلال الإنجليزى لمصر (١٨٨٢) وامتداد السيطرة الفرنسية إلى تونس (١٨٨١) والمغرب (١٩١١) وامتداد النفوذ البريطانى إلى الخليج الفارسى، وبلغ ذروته بتقسيم الولايات العثمانية العربية فى منطقة الهلال الخصيب بين الإمبراطوريتين الأوروبيتين الغربيتين الرئيسيتين. على أن الأراضى المكتسبة حديثا لم تضم هذه المرة بالطريقة التقليدية كمستعمرات أو أقاليم تابعة ولكنها ألحقت ببريطانيا وفرنسا لإدارتها كسلطة منتدبة لهذا الغرض تحت إشراف عصبة الأمم للقيام بمهمة محددة صراحة وهى تهيئة هذه البلدان للاستقلال. وكانت تلك مرحلة قصيرة للغاية بدأت بعد الحرب العالمية الأولى وانتهت بعد الحرب العالمية الثانية عندما أنهى الانتداب وأصبحت الأراضى الخاضعة له مستقلة. وظل القسم الأكبر من شبه الجزيرة العربية خارج نطاق السيطرة الإمبريالية.

ومع ذلك فإن الإمبريالية تركت أثرا ضخما نظرت إليه معظم شعوب المنطقة على أنه ضار بها أبلغ الضرر. ولا شك أن كلاً من التأثير والضرر كانا بالغين ولكنهما كانا على الأرجح أقل اتساعا وأقل انحيازا لأحد الجانبين مما تذكره الأساطير القومية. فبالرغم من كل شيء كانت هناك بعض المنافع : البنى الأساسية، والخدمات العامة، ونظم التعليم وكذلك بعض التغييرات الاجتماعية وبالذات إلغاء الرق والحد من تعدد الزوجات وإن لم يكن قد قضى عليه تماما. وتظهر التناقضات بوضوح تام إذا قورنت البلدان التي عانت من نير الإمبريالية، مثل مصر والجزائر، بتلك التي لم تفقد يوما استقلالها مثل بلاد العرب وأفغانستان. ففي المملكة العربية السعودية جاءت الجامعات متأخرة وقليلة العدد. أما اليوم، وبالنسبة لعدد السكان الذي يقدر بواحد وعشرين مليون نسمة هناك ثمانية جامعات، ويزيد هذا الرقم بواحدة عن مؤسسات التعليم العالي السبعة التي أنشأها الفلسطينيون منذ الاحتلال الإسرائيلي للأراضي في سنة ١٩٦٧ . ولم يلغ الرق قانونا في السعودية حتى سنة ١٩٦٢ ولا زال خضوع المرأة فيها كاملا.

لكن من المؤكد مع ذلك أنه كانت هناك نتائج سلبية كبرى للإمبريالية، وبمعنى أوسع، للنفوذ الغربي أو الأوروبي، حتى في البلدان التي استطاعت المحافظة على استقلالها السياسي، مثل تركيا وإيران. وفي مقدمة هذه الآثار السلبية للتحديث تعزيز سلطة الدولة من خلال تقوية أجهزة الرقابة والقمع وتلقين الأفكار، وفي الوقت نفسه إضعاف القوى الوسيطة أو القضاء عليها وهي التي كانت في ظل النظام التقليدي تحد من السلطة الفعلية للحكام الأوتوقراطيين. وقد أدى التغيير الاجتماعي وانهيار النمط القديم للعلاقات والواجبات الاجتماعية إلى إحداث ضرر كبير بالمجتمع وخلق تناقضات جديدة وواسعة أبرزتها نظم الاتصالات الحديثة على نحو أكثر وضوحا. فمنذ سنة ١٨٣٢ أشار مراقب بريطاني دقيق الملاحظة، وهو ضابط شاب في البحرية البريطانية يدعى أدولفوس سلاد، إلى الفارق بين ما أسماه الأشراف القدماء والأشراف المحدثين(*) وذكر أن الأشراف القدماء كانوا يعيشون من دخل ممتلكاتهم. أما

(*) أدولفوس سليد Turkey and the Crvimean War : A Narrative of Historical Events (لندن، ١٨٦٧) ص ٣٠-٣٢ .

الأشراف الجدد فقد كانت الدولة هي ممتلكاتهم. ولا زال ذلك صحيحا في كثير من أجزاء المنطقة حتى اليوم.

وبحلول أوائل القرن العشرين - وبالرغم من الاستقلال الهش الذى احتفظت به تركيا وإيران وبعض البلاد النائية مثل أفغانستان - التى بدا في ذلك الوقت أنها لم تكن تستأهل تحمل متاعب الغزو - كان العالم الإسلامي كله تقريبا قد أدخل في الإمبراطوريات الأوروبية الأربعة : بريطانيا وفرنسا وروسيا وهولندا. واضطرت حكومات وفصائل الشرق الأوسط المختلفة إلى أن تتعلم كيفية تأليب هؤلاء المتنافسين الأقوياء على بعضهم البعض. وقد نجحت في ذلك لفترة من الوقت، ولما كان الحلفاء الغربيون - بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة - يسيطرون فعليا على المنطقة فإنه كان طبيعيا أن يتطلع من يقاومونهم في الشرق الأوسط إلى أعدائهم للحصول على المساندة؛ فاتجهوا أثناء الحرب العالمية الثانية إلى ألمانيا واتجهوا أثناء الحرب الباردة إلى الاتحاد السوفييتي.

ومنذ وقت مبكر ، في سنة ١٩١٤، حاولت ألمانيا، التى كانت متحالفة حينئذ مع الإمبراطورية العثمانية، تعبئة الشعور الديني لدى المسلمين الخاضعين للإمبراطوريات البريطانية والفرنسية والروسية ضد سادتهم الإمبرياليين وبالتالى لصالح ألمانيا. لكن هذه الجهود لم تسفر إلا عن نتائج ضئيلة بل وجعل منها المستشرق الهولندى الكبير سنوك هورجرونجي مادة للسخرية في مقال شهير عنوانه "حرب مقدسة : صنعت في ألمانيا"(*).

وقد نجح هتلر لفترة من الوقت فيما أخفق فيه القيصر. ففى أواخر مارس ١٩٣٣، بعد أسابيع من تولى هتلر السلطة، اتصل مفتى القدس، الحاج أمين الحسيني، بالقنصل العام لألمانيا في القدس، الدكتور هينريش ولف، عارضا خدماته. وقد أوصى القنصل، عند نقله هذا العرض لبرلين برفضه أو على الأقل بتجاهله. فما دام هناك أمل في كسب الإمبراطورية البريطانية كحليف لألمانيا فلا محل لمعاداة الإنجليز بإنشاء

(*) انظر النسخة الإنجليزية المنقحة قليلا لـ Verspreide Geschriften: Snouck Hurgronje، المجلد الثالث (ليدن، ١٩٢٣) ص ٢٥٧ وما بعدها.

علاقات مع ما كان يعتبر حينئذ حركة مناهضة لهم. ولم تقبل عروض القيادة الفلسطينية إلى ما بعد اتفاقات ميونيخ فى سنة ١٩٣٨ حين فقد هتلر كل أمل فى اجتذاب البريطانيين لعقد حلف آرى مع ألمانيا. ومنذ هذا التاريخ وطوال سنوات الحرب كانت علاقاتهم وثيقة للغاية، وقام المفتى، من مكتبه فى ضواحى برلين، بدور مهم فى السياسة العربية. وفى سنة ١٩٤١ نجح رشيد عالى لفترة محدودة فى إقامة نظام موالٍ للمحور فى العراق. وقد تغلبت عليه قوات الحلفاء فذهب ليلحق بالمفتى فى ألمانيا. بل إن أنور السادات نفسه وباعترافه عمل بالتجسس لحساب الألمان فى مصر حين كان يحتلها الإنجليز(*)

وقد تركت هزيمة ألمانيا وانهيار الرايخ الثالث ووكالاته العديدة فراغا موجعا. ويرى الكثيرون أن الفترة الفاصلة التى أعقبت ذلك، هى التى مكنت اليهود من إنشاء دولتهم فى سنة ١٩٤٨ ومن إلحاق هزيمة نكراء بالجيوش العربية التى أرسلت للحيلولة دون ذلك. وكانت الحاجة ماسة لراع جديد يوفر الحماية بديلا عن الرايخ الثالث، وسرعان ما وجدوا ذلك فى الاتحاد السوفيتى.

ثم جاء بعد ذلك انهيار الاتحاد السوفيتى، الأمر الذى جعل من الولايات المتحدة القوة العظمى الوحيدة فى العالم. فقد أنهى ميخائيل جورباتشوف وجورج بوش الأب العصر الذى بدأه بونابرت ونيلسون فى تاريخ الشرق الأوسط. وظهر الأمر فى بدايته وكأن عصر التنافس الإمبريالى قد انتهى بانسحاب كل من المتنافسين : الاتحاد السوفييتى لأنه لم يكن قادرا على المنافسة والولايات المتحدة لأنها لا تلعب دورا إمبرياليا. لكن لم يمض وقت طويل قبل أن تضطر الأحداث، وبالذات الثورة الإيرانية وحروب الديكتاتور العراقى صدام حسين، الولايات المتحدة إلى المشاركة بدرجة أكبر فى شئون المنطقة على نحو مباشر. ورأى أبناء الشرق الأوسط فى ذلك مرحلة جديدة فى اللعبة الإمبريالية القديمة. ولم ير الأمريكيون الأمر على هذا النحو وأظهروا عدم رغبتهم فى القيام بدور إمبريالى وعدم ملاءمته لهم.

(*) أنور السادات، "البحث عن الذات"، (القاهرة، ١٩٧٨) ص : ٥٠-٨٦، النسخة الإنجليزية : "In Search of Identity, An Autobiography" (نيويورك، ١٩٧٨) ص ٣١ وما بعدها.

وكان رد فعل القادة المسلمين، سواء من كان منهم فى الحكم أو فى المعارضة، متباينا تجاه هذا الوضع الجديد. وكان الجواب الطبيعى لدى بعضهم هو البحث عن راع جديد يخلف الرايخ الثالث والاتحاد السوفيتى يستطيعون التوجه إليه للحصول على تشجيعه ودعمه لهم فى حربهم ضد الغرب. وكانت الكتلة الغربية كقوة دولية قد اتجهت فى هذه الأثناء غربا بدرجة أكبر وأصبحت تتشكل أساسا من الولايات المتحدة، تاركة للقارة الأوروبية إمكانية جديدة للقيام بدور مقابل. وأبدى بعض الأوروبيين الذين يشاطرون الشرق الأوسط، لأسباب تتعلق بهم، حنقه وعداءه تجاه الولايات المتحدة، استعدادهم للقيام بهذا الدور. لكنهم رغم رغبتهم فى ذلك كانت تنقصهم الوسائل اللازمة له.

كان انهيار الاتحاد السوفييتى، الذى أعقبته هزيمة صدام حسين فى حرب الخليج سنة ١٩٩١م صفعة مدمرة للحركات الوطنية العلمانية، وبوجه خاص الفلسطينية منها، التى وجدت نفسها مرة أخرى، كما كان الحال فى سنة ١٩٤٥، محرومة من قوة كبرى ترعاها وتساعدها فى قضيتها. وكان حماتها السوفييت قد اختفوا. وحتى العرب الذين يساندونهم ماليا - الكويت والسعودية - بعد أن غضبوا من الحماس الفلسطينى فى تأييد صدام حسين، أوقفوا لفترة من الوقت دعمهم لهم مما أدى إلى عزلة الفلسطينيين وإفقارهم وإضعافهم. وكان هذا الوضع هو الذى اضطرهم إلى التفكير فيما كان يستحيل التفكير فيه من قبل والدخول فى عملية سلام مع إسرائيل. لكن منظمة التحرير الفلسطينية أنقذت، إنقاذا مشينا فى نظر الأصوليين، على يد الأمريكيين والإسرائيليين، ودفعت دفعا إلى الدخول فى حوار يحط من قدرها مع إسرائيل.

أدى كل ذلك إلى مزيد من القبول لنظرة الأصوليين للعالم وإلى مزيد من الجاذبية لقضيتهم. وقد فسر هؤلاء - وبوجه خاص أسامة بن لادن - انهيار الاتحاد السوفييتى على نحو مختلف. ففى نظرهم كانوا هم الذين انتصروا فى الحرب الباردة، وليس أمريكا. ولم يكن الاتحاد السوفييتى فى نظرهم العامل المساعد الحميد فى الكفاح المشترك ضد اليهود والإمبريالية الغربية، بل كان منبع الإلحاد والكفر، والقوة التى تقمع ملايين المسلمين وتلك التى غزت أفغانستان. فقد رأوا، وكان ذلك معقولا إلى حد ما، أن كفاحهم فى أفغانستان هو الذى أدى إلى هزيمة الجيش الأحمر القوى ودفع السوفييت

إلى الهزيمة والانهيار. وبعد أن فرغوا من أمر القوة العظمى الأشد شراسة وخطرا بين القوتين العظميين الكافرتين كانت مهمتهم التالية هى التعامل مع القوة العظمى الأخرى، الولايات المتحدة، وكان دعاة الحلول الوسط فى هذه الحرب هم أدوات وعملاء العدو الكافر نفسه. واعتقد الأصوليون الإسلاميون، لأسباب عديدة، أن محاربة أمريكا ستكون مهمة أبسط وأيسر. ففى رأيهم أن الولايات المتحدة قد فسدت أخلاقيا، وانحلت اجتماعيا وأنها بالتالى ضعفت سياسيا وعسكريا. ولهذه النظرة تاريخ يثير الاهتمام.

الفصل الرابع

اكتشاف أمريكا

ظل ما هو معروف عن أمريكا فى البلدان الإسلامية محدودا للغاية لفترة طويلة. وقد أثارت رحلات الاكتشاف فى البداية بعض الاهتمام. فالنسخة الوحيدة الباقية من خريطة كريستوفر كولومبوس الخاصة لأمريكا هى ترجمة معدّلة لها باللغة التركية لا تزال محفوظة فى متحف قصر توب - كابى فى إسطنبول. والوصف الذى وضعه أحد الجغرافيين الأتراك لاكتشاف العالم الجديد بعنوان "تاريخ الهند الغربية" كان من أوائل الكتب التى طبعت فى تركيا فى القرن الثامن عشر. لكن الاهتمام بأمريكا كان ضئيلا ولم يذكر الكثير عنه باللغتين التركية والعربية وغيرهما من اللغات الإسلامية حتى وقت متأخر نسبيا. فقد مرت الثورة الأمريكية، على عكس الثورة الفرنسية التى قامت بعدها ببضع سنوات، دون أن يلحظها أحد تقريبا ونظر إليها بالكاد على أنها تمرد من النوع المألوف. وقد كتب سفير لمراكش كان موجودا فى إسبانيا فى ذلك الوقت ما يعد بالتأكيد أول حديث باللغة العربية عن الثورة الأمريكية:

"غادر السفير الإنجليزى إسبانيا بسبب الحرب التى اندلعت بين الإسبان والإنجليز. وكان السبب فى هذه الحرب هو أن شعب أمريكا كان من رعايا الملك البريطانى الذى أصبح بفضل الدخل الذى يحصّله منه أقوى من كل الشعوب المسيحية الأخرى. وقيل إنه زاد من عبء الضرائب والأعباء المفروضة عليهم وبعث إليهم بسفينة محمّلة بالشاى وأجبرهم على أن يدفعوا ثمنا لها يزيد عن المعتاد. وقد رفضوا ذلك وطلبوا منه أن يقبل النقود المستحقة له على ألا يفرض ضرائب باهظة عليهم. وقد رفض الملك ذلك فقاموا بالتمرد عليه سعيا للحصول على الاستقلال. وقد ساعدهم الفرنسيون

فى تمردهم ضد الإنجليز آملين بذلك أن يصيبوا ملك الإنجليز وأن يضعفوه لأنه كان أقوى الأعراق المسيحية على سطح البحار"(*).

ووقّع سلطان مراكش معاهدة صداقة مع الولايات المتحدة فى سنة ١٧٨٧، ثم كان للجمهورية الجديدة بعد ذلك عدد من المعاملات مع دول إسلامية أخرى، بعضها يتسم بالصداقة وبعضها بالعداء، ولكنها فى معظمها تجارية وجميعها محدودة.

وجاء ذكر أمريكا مسجلا لأول مرة كرمز سياسى فى العالم الإسلامى فى إسطنبول فى ١٤ يوليو سنة ١٧٩٣ حين أقام سفير الجمهورية الفرنسية، الذى جاء حديثا، احتفالا عاما بلغ ذروته بإطلاق المدافع من سفينتين فرنسيتين كانتا ترابطان فى منطقة سيراليو. ووفقا لتقرير السفير فإن السفينتين كانتا ترفعان أعلام الإمبراطورية العثمانية والجمهوريتين الفرنسية والأمريكية "وأعلام بعض الدول الأخرى التى لم تلوث سلاحها فى تحالف غير مقدس مع المستبدين"(**). وكان السفير الفرنسى التالى إلى إسطنبول، الجنرال أوبير دى بابيه (الذى عرف فيما بعد بـ :دوبابيه)، والذى وصل إليها فى سنة ١٧٩٦، هو نفسه أمريكيا إلى حد ما، إذ إنه ولد فى نيوأورلينز وحارب فى جيش الولايات المتحدة. وقد خصص بعض جهده لنشر أفكار الثورة فى تركيا.

كانت تلك مساعى فرنسية وليست أمريكية، وبينما شاعت أفكار الثورة الفرنسية فى فكر وآداب اللغتين التركية والعربية وغيرهما من اللغات خلال القرن التاسع عشر، فإن الثورة الأمريكية، والجمهورية الأمريكية التى تمخضت عنها ظلتا لفترة طويلة لا ذكر لهما وربما كانتا غير معروفتين. بل إن التواجد الأمريكى المتنامى – تجار،

(*) محمد بن عثمان المكناسى (سفير مراكش فى إسبانيا، ١٧٧٩ و ١٧٨٨)، "الإكسير فى فكاك الأسير"، نشره محمد الفاسى (الرباط، ١٩٦٥) ص ٩٧ . انظر كذلك إيمى أيالون "The Arab Discovery of America in the Nineteenth Century" فى Middle Eastern Studies، المجلد ٢٠ (أكتوبر ١٩٨٤) ص ٥-١٧

(**) Une Ambassde à Constantinople: : La Politique Orientale de la Revolution Française E. de Marcère (باريس، ١٩٢٧)، المجلد الثانى ص ١٢-١٥ج

وقناصل، ومدرسين – لم يثر طلعة الكثيرين ويكاد لا يوجد له ذكر فى الأدب والصحف فى ذلك الوقت. وتتضمن الكتب المدرسية فى الجغرافيا، ومعظمها مترجم أو مقتبس من أصول أوروبية، بيانا واقعيا موجزا عن نصف الكرة الغربى، وتتضمن الصحف بعض الإشارات المتناثرة إلى أحداث فى الولايات المتحدة، التى كان يشار إليها عادة باسمها الفرنسى Etats Unis والذى كان يعرّب إلى "إيتازونى"، أو شىء من هذا القبيل. ويضيف كتاب مدرسى نشر فى مصر سنة ١٨٣٣ ترجمه عن الفرنسية بتصرف المؤلف والمترجم الشهير الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١ – ١٨٧٣) وصفا موجزا لـ "إيتازونى" فهى "دولة تتكون من عدة أقاليم تجمعت فى جمهورية واحدة فى أراضى أمريكا الشمالية. وسكانها قبائل جاءت من إنجلترا واستحوزت على هذه البلاد. ثم تخلصوا بعد ذلك من قبضة الإنجليز وأصبحوا أحرارا ومستقلين. وهذا البلد من أكثر البلدان حضارة فى أمريكا، ويسمح فيها باعتناق جميع عقائد العبادة وبجميع الطوائف الدينية. ومقر حكومتها فى بلدة تدعى واشنطن"(*). وهذه الجمل الأخيرة جديرة بالملاحظة.

وفى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين كان هناك مزيد من الاهتمام بأمريكا فى الكتب المدرسية والموسوعات وكذلك فى الصحف لكنه ظل مع ذلك اهتماما محدودا للغاية واقتصر فيما يبدو على الأقليات غير الإسلامية. والإشارات إلى أمريكا فى الأدب العام لا هى بالإيجابية ولا بالسلبية ولكنها وصفية موجزة. ولم يكن المبشرون بالطبع موضع محبة الدوائر الإسلامية. لكن يبدو أنه لم يكن هناك، فيما عدا ذلك، أى نوع من عدم الثقة أو من الكراهية. وبعد انتهاء الحرب الأهلية فإن بعض الضباط الأمريكيين العاطلين عن العمل وجدوا وظائف فى خدمة الحكام المسلمين لمساعدتهم على تحديث جيوشهم. وبالرغم من أنه كان محظورا على المبشرين الأمريكيين نشر دعوتهم بين المسلمين، فإنهم استطاعوا أن يحملوا بعض المسيحيين الأرثوذكس على التحول إلى المذهب المشيخى وأن يوفروا – وهذا هو الأهم – التعليم الثانوى والتعليم العالى الحديث لأعداد متزايدة من البنين والبنات ممن كانوا ينتمون

(*) رفاعة رافع الطهطاوى "قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر (بولاق، ١٨٣٣) ص ١، ص ١٤، انظر كذلك أيالون ، المرجع سالف الذكر Arab Discovery of America ص ٩

فى البداية إلى الأقليات ثم إلى المسلمين أنفسهم. وذهب بعض هؤلاء الخريجين بعد ذلك إلى الولايات المتحدة لمواصلة تعليمهم فى المعاهد والجامعات الأمريكية. وكان هؤلاء أيضا ممن ينتمون إلى الأقليات المسيحية فى البداية، وتبعهم فى وقت لاحق أعداد متزايدة من مواطنيهم المسلمين، بل كان مجيء بعضهم بتمويل من حكومات بلادهم.

وأدت الحرب العالمية الثانية، وصناعة النفط، وتطورات ما بعد الحرب بكثير من الأمريكيين إلى الحضور إلى البلاد الإسلامية. كذلك قدمت إلى أمريكا أعداد متزايدة من المسلمين أولا كطلاب ثم كأساتذة ورجال أعمال وغيرهم من الزائرين ثم أخيرا كمهاجرين. ثم جاءت السينما ومن بعدها التليفزيون لتعرض أسلوب الحياة الأمريكى، أو على الأقل تصورا معينا له، أمام ملايين لا تحصى من البشر الذين لم يكن اسم أمريكا يعنى أى شيء بالنسبة لهم أو لم يكد يكون معروفا لديهم من قبل. ووصلت مجموعة واسعة من المنتجات الأمريكية، ولاسيما فى السنوات التى أعقبت الحرب – حيث كانت المنافسة الأوروبية قد قضى عليها عمليا ولم تكن المنافسة اليابانية قد ظهرت بعد – إلى الأسواق النائية فى العالم الإسلامى، فاكتسبت لنفسها عملاء جددا، وربما كان الأهم أنها خلقت أذواقا وتطلعات جديدة.

وقد مثلت أمريكا بالنسبة للبعض الحرية والعدالة والفرصة المتاحة. لكنها مثلت بالنسبة لكثيرين غيرهم الثروة والقوة والنجاح فى وقت لم يكن ينظر فيه إلى هذه الصفات على أنها خطايا أو جرائم.

ثم جاء بعد ذلك التغيير الكبير حين قام قادة حركة متنامية وواسعة الانتشار للإحياء الدينى بتحديد أعدائهم بأنهم أعداء الله وأعطوهم "محل إقامة واسما" فى نصف الكرة الغربى. وأصبحت أمريكا فجأة، أو هكذا بدا الأمر، العدو الأكبر والتجسيد للشر، والخصم الشيطانى لكل ما هو خير، وبوجه خاص بالنسبة للمسلمين، وللإسلام.. لماذا ؟.

كانت هناك ضمن مكونات المزاج المناهض للأمركة بعض المؤثرات الفكرية القادمة من أوروبا. وكان مصدر أحد هذه المؤثرات هو ألمانيا حيث كانت النظرة السلبية لأمريكا تشكل جزءا من مدرسة فكرية تضم كتّابا متنوعين من أمثال راينر ماريا ريلكه **Rainer Maria Rilke** وأوزالد شبنجلر **Oswald Spengler** وإرنست يونجر **Ernst Jonger** ومارتين

هايديجر Martin Heidegger. وأمريكا من هذا المنظور هى المثال الأخير على حضارة بدون ثقافة؛ غنية تتوافر فيها وسائل الراحة، متقدمة ماديا ولكنها مصطنعة وبغير روح، جمّعت تجميعا – أو فى أحسن الأحوال – بنيت ولم تستنبت، ميكانيكية وليست عضوية، معقدة تكنولوجيا لكنها تفتقر إلى الروحية والحيوية التى تتسم بهما الثقافات الإنسانية والوطنية راسخة الجذور للألمان وغيرهم من الشعوب "الأصيلة". وقد حظيت الفلسفة الألمانية، ولاسيما فلسفة التعليم، بقبول واسع بين المفكرين العرب وبعض المسلمين الآخرين فى الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات، وكانت هذه الفلسفة المناهضة للأمركة جزءاً من الرسالة. وكان للصيغة النازية للأيديولوجيات الألمانية تأثيرها فى الدوائر الوطنية وبالذات بين مؤسسى حزب البعث وأتباعه فى سوريا والعراق. فبعد الاستسلام الفرنسى لألمانيا فى يونيو ١٩٤٠ ظلت الأراضى الواقعة تحت الانتداب الفرنسى فى سوريا ولبنان تحت سيطرة سلطات فيشى وكانت بالتالى جاهزة أمام الألمان لاستخدامها كقاعدة لنشاطهم فى العالم العربى. وكان فى مقدمة هذا النشاط محاولة – نجحت لبعض الوقت – لإقامة نظام موال للنازيين فى العراق. ويرجع إنشاء حزب البعث أيضا إلى هذه الفترة. وقد انتهى هذا النشاط باحتلال بريطانيا (وفرنسا الحرة) لسوريا ولبنان فى يوليو ١٩٤١، لكن حزب البعث وأيديولوجياته المتميزة ظل على قيد الحياة.

وتتكرر الإشارة فى كتابات حزب البعث إلى موضوع الصيغة الأمريكية المصطنعة وافتقارها إلى هوية وطنية أصيلة كهوية العرب. وقد أشار صدام حسين إلى ذلك من حين إلى آخر كما حدث مثلا فى خطاب له فى يناير ٢٠٠٢ . ومع إستمرار الحروب – الحرب العالمية الثانية والحرب الباردة من بعد – وبروز الدور الأمريكى فى قيادة الغرب بصورة متزايدة، فإن نصيب الأمريكيين من الكراهية الناجمة عن ذلك زاد هو الآخر.

بعد انهيار الرايخ الثالث وانتهاء التأثير الألمانى حلت محلهما قوة أخرى وفلسفة أخرى أشد مناهضة للأمريكيين : الصيغة السوفييتية للماركسية واستنكارها للرأسمالية الغربية ولأمريكا باعتبارها أكثر أشكالها تقدما وخطورة. ولم يمنع حكم الروس بيد من حديد للإمبراطورية الآسيوية الواسعة التى غزاها القياصرة من قبل والتى أعاد السوفييت غزوها من قيامهم، بنجاح كبير، بدور المدافعين والرعاة للحركات المناهضة

للإمبريالية التى اجتاحت العالم بعد الحرب العالمية الثانية واجتاحت الشرق الأوسط بوجه خاص وإن لم تكن قاصرة عليه. وبدا فى سنة ١٩٤٥ أن الاشتراكية هى موجة المستقبل. ففى شرق أوروبا انتصر الاتحاد السوفييتى فى ميدان المعركة، وفى غربها انتصر حزب العمال البريطانى على وينستون تشرشل العظيم فى الانتخابات العامة التى جرت سنة ١٩٤٥ . وتبنت الحكومات والحركات المختلفة فى العالم العربى أشكالا متباينة من الاشتراكية.

وبالرغم من أن هؤلاء الرعاة الأجانب وأصحاب الفلسفات المستوردة كانوا يوفرون المساعدة المادية ويسهلون التعبير الفكرى للحركات المناهضة للغرب والمناهضة للأمركة إلا أنهم لم ينشئوها أصلا، كما أنهم لم يقدموا تفسيرا لانتشارها إلى الحد الذى جعل الكثيرين فى الشرق الأوسط وفى غيره من أنحاء العالم الإسلامى، يستجيبون لهذه الأفكار. ولابد أن يكون من الواضح أن ما وفر المساندة لهذه الأفكار شديدة التباين لم يكن هو النظرية النازية للأجناس التى لم تجتذب غير قليل من العرب، ولا الشيوعية السوفييتية الملحدة التى لا تلقى أى جاذبية بين المسلمين، بل معاداتهم الأصلية للغرب. وكانت النازية والشيوعية هما القوتان الأساسيتان المعاديتان للغرب سواء باعتباره يمثل أسلوبا معينا للحياة أو كقوة فى العالم، ومن ثم كان بوسعهما الاعتماد على تعاطف بل حتى على تعاون أولئك الذين رأوا فى الغرب عدوهم الأساسى.

لكن لماذا ؟ .. إذا انتقلنا من العام إلى الخاص فإننا سنجد أن هناك الكثير من السياسات والأفعال التى اتبعتها وقامت بها كل من الحكومات الغربية أثارت غضب وانفعال شعوب الشرق الأوسط وغيرها من الشعوب الإسلامية على النحو الذى عبرت عنه فى مختلف جوانب كفاحها: سواء من أجل الاستقلال عن الحكم أو السيطرة الأجنبيين، أو للتخلص من الاستغلال الأجنبى لمواردها ولاسيما النفط، أو لإخراج الحكام ونظم الحكم التى ينظر إليها على أنها من عملاء الغرب أو المقلدين له. ومع ذلك فإنه عندما يتم التخلى عن هذه السياسات وحل المشكلات التى تثيرها فإننا لا نجد، على أحسن تقدير، سوى نوع من التهدئة المحلية والمؤقتة. لقد ترك الإنجليز مصر، وترك الفرنسيون الجزائر، وترك كلاهما ممتلكاتهما الأخرى فى العالم العربى، وتمت الإطاحة بالملكية فى العراق وفى مصر، وترك الشاه المستغرب إيران، وتخلت شركات النفط

الغربية عن سيطرتها على آبار البترول التى اكتشفتها وطورتها واكتفت بأفضل الترتيبات التى أمكنها التوصل إليها مع حكومات هذه البلدان – ومع ذلك كله فإن استياء الأصوليين وغيرهم من المتطرفين ضد الغرب لا زال قائما بل إنه ينمو ولا يهدأ.

وربما كان المثل الذى يذكر كثيرا على التدخل الغربى ونتائجه هو الإطاحة بحكومة مصدّق فى إيران سنة ١٩٥٣ . وقد بدأت الأزمة عندما قرر محمد مصدق، الزعيم الوطنى الذى يتمتع بشعبية كبيرة، معززا بتأييد عام فى البلاد، تأميم شركات البترول وبالذات أهم تلك الشركات وهى الشركة الإنجليزية – الإيرانية. ومن المؤكد أنه كان يعتبر – بحق – أن الشروط التى كانت هذه الشركة وغيرها من الشركات صاحبة امتياز البترول تعمل بمقتضاها هى شروط مجحفة وغير ملائمة. فعلى سبيل المثال كانت الشركة الإنجليزية – الإيرانية تدفع ضرائب للحكومة البريطانية تزيد عما تدفعه إلى حكومة إيران كمقابل لحقوقها فى البترول. وشاركت الولايات المتحدة فى الأمر فى البداية باعتبارها حليفا لبريطانيا، ثم زادت من تدخلها خوفا من تدخل السوفييت إلى جانب حكومة مصدّق. لذا قررت الحكومتان البريطانية والأمريكية، مدعيتين الاتفاق مع الشاه على ذلك، التخلص من مصدق عن طريق انقلاب عسكرى. لكن الانقلاب لم يسر سيرا حسنا فى البداية. فقد اعتقل مصدق مبعوث الشاه وأمر باعتقال الجنرال زاهدى، قائد الانقلاب ورئيس الحكومة الجديدة التى كان منتظرا أن يعينها الشاه. وقام مؤيدو مصدق وأعضاء حزب تودة الشيوعى بمظاهرات ضخمة فى الشوارع لبعض الوقت يتهمون فيها الشاه وأباه ويهتفون بالأمريكيين أن يعودوا إلى بلادهم. وهرب الشاه وزوجته إلى العراق، حيث التقى سرا بالسفير الأمريكى ثم استقل الطائرة منها إلى روما.

فى هذه الأثناء تغير طابع المظاهرات التى كانت تشهدها طهران. فقد كانت كلها من قبل معارضة للشاه لكنها بدأت تتحول إلى جانبه وظهر الجيش فى الشوارع مؤيدا له. وبعد سلسلة من المظاهرات تمت الإطاحة بمصدق وحل زاهدى محله رئيسا للوزراء. وفى ١٩ أغسطس ١٩٥٣ بلغت هذه الأنباء الشاه من خلال برقية لوكالة الأسوشيتد برس هذا نصها : "طهران – الإطاحة بمصدّق. والقوات الإمبراطورية تسيطر على طهران. زاهدى رئيسا للوزراء". وعاد الشاه بعد ذلك بقليل إلى طهران واستعاد عرشه. وكانت النتائج التى أسفر عنها ذلك، بحسب المعايير السائدة فى المنطقة، هينة للغاية.

فقد أعدم وزير خارجية حكومة مصدق وحكم على عدد من مؤيديه بالسجن. أما مصدق نفسه فقد حوكم وحكم عليه بالإقامة الجبرية فى منزله لمدة ثلاث سنوات. وبعد الإفراج عنه فى أغسطس ١٩٥٦ ظل يعيش فى مزرعته الخاصة حتى سنة ١٩٦٧ تحت حراسة مشددة. وبالنظر للدور الكبير الذى قامت به المخابرات المركزية الأمريكية CIA والمخابرات البريطانية (MI6) فى الإطاحة بالنظام القائم وفى عودة الشاه فإن فئات كثيرة من رعاياه كانت تنظر إليه باعتباره عميلا للإنجليز أولا، ثم للأمريكيين فيما بعد.

إذا صح ذلك فإنه يدل على أن من بيدهم تحريك هذه الدمية لم يكونوا ممن يمكن الثقة بهم أو الاعتماد على فعاليتهم. فحينما جاءت الثورة الإيرانية فى سنة ١٩٧٩ لم يفعل البريطانيون ولا الأمريكيون شيئا لإنقاذ الشاه من الإطاحة به. فلم تكتف الإدارة الأمريكية فى ذلك الوقت بعدم تقديم أية مساعدة له لكنها أوضحت مقدما أنها لا تنوى عمل أى شىء من أجله. بل زاد الطين بلة أنها رفضت لبعض الوقت إعطاء الشاه وأسرته حق اللجوء إلى الولايات المتحدة. هرب الشاه من طهران فى منتصف يناير ١٩٧٩ وتوجه عبر مصر إلى المغرب حيث بقى فترة وجيزة ضيفا على الملك. إلا أن أمورا أخرى كانت تشغل ملك المغرب ومنها بوجه خاص اجتماع لمنظمة المؤتمر الإسلامى كان سيستضيفه فى الرباط فى أوائل شهر أبريل. لذا طلب الملك الحسن إلى الشاه أن يغادر البلاد فى موعد لا يتجاوز ٣٠ مارس. وأبلغ الشاه السفير الأمريكى بأنه سيقبل الآن عرض الرئيس كارتر منحه حق اللجوء فاكتشف عندئذ أن هذا العرض قد سحب على أساس الاعتقاد، فيما يبدو، بأن إقامة علاقات طيبة مع حكام إيران الجدد أكثر أهمية من منح الشاه وأسرته حق اللجوء. ولم تغير الولايات المتحدة من موقفها إلا عندما كان الشاه يحتضر وكان فى حاجة ملحة إلى الرعاية الطبية. وأبلغ الشاه فى ٢٢ أكتوبر ١٩٧٩ بأنه يستطيع التوجه إلى الولايات المتحدة. ووصل الشاه إلى نيويورك فى صباح اليوم التالى وتوجه فورا إلى المستشفى. وإذ أدرك أن وجوده يثير المشكلات بالنسبة للولايات المتحدة، وبالرغم من خطورة مرضه، فقد غادر البلاد متوجها إلى باناما، حيث أفلت بصعوبة من تسليمه إلى إيران، ومنها عاد إلى مصر حيث توفى فى سنة ١٩٨٠ .

وقد استخلصت الفئات المختلفة في المنطقة درسين من هذه الأحداث أولهما أن الأمريكيين على استعداد لاستخدام القوة والدسائس معا لتنصيب حكام في بلدان الشرق الأوسط يكونون ألعوبة في أيديهم، وثانيهما أنه لا يمكن الاعتماد عليهم لحماية هؤلاء الحكام إذا ما تعرضوا لهجوم جدى من جانب شعوبهم وأنهم سيتخلون في هذه الحالة عنهم بكل بساطة. وأثار الدرس الأول الكراهية وأثار الثاني الاحتقار، واجتماع الأمرين شيء خطير.

ومن الواضح أن هناك شيئا أعمق من هذه الشكاوى المحددة، بالرغم من كثرتها أو أهميتها، يجعل من كل اختلاف مشكلة ويحول دون إيجاد حل لأية مشكلة. فما نواجهه الآن ليس مجرد شكوى من هذه أو تلك من السياسات الأمريكية بل هو رفض وإدانة، مصحوبة بالغضب والاحتقار، لكل ما تمثله أمريكا في العالم الحديث اليوم.

من الشخصيات الأساسية التي أسهمت في بلورة هذه المواقف الجديدة سيد قطب، وهو مصري أصبح منظرا رائدا للأصولية الإسلامية وعضوا بارزا في المنظمة الأصولية المعروفة باسم الإخوان المسلمين. وقد ولد في قرية في جنوب مصر في سنة ١٩٠٦ ودرس في القاهرة وعمل بالتدريس لبضع سنوات ثم أصبح موظفا في وزارة التعليم المصرية. وقد أرسل بهذه الصفة في بعثة دراسية خاصة إلى الولايات المتحدة حيث ظل فيها من نوفمبر سنة ١٩٤٨ إلى أغسطس سنة ١٩٥٠ . وقد بدأ نشاطه وكتاباته الأصولية بعد وقت قصير من عودته من أمريكا إلى مصر. وبعد الانقلاب العسكري الذي وقع في يوليو ١٩٥٢(*) احتفظ في البداية بعلاقات طيبة مع من يسمون بالضباط الأحرار لكنه تخلى عنهم لأن تعاليمه الإسلامية تعارضت مع سياساتهم العلمانية. وبعد عدد من المصادمات مع السلطات حكم عليه في سنة ١٩٥٥ بالسجن خمسة عشر عاما. وقد أفرج عنه في سنة ١٩٦٤ بناء على وساطة الرئيس العراقي عارف، وأصدر في أواخر تلك السنة أحد مؤلفاته الكبرى "معالم على الطريق" . وفي ٩ أغسطس ١٩٦٥، ألقي القبض عليه مرة أخرى بتهمة الخيانة وبالتحديد بالتخطيط لاغتيال الرئيس عبد الناصر. وبعد محاكمة قصيرة حكم عليه بالإعدام في ٢١ أغسطس ١٩٦٦، ونفذ الحكم بعد ثمانية أيام من صدوره.

(*) ما يراه برنارد لويس انقلاباً عسكرياً .. يراه كثيرون ثورة بمعنى الكلمة .(التحرير)

ويبدو أن فترة إقامة سيد قطب فى الولايات المتحدة كانت فترة حاسمة فى بلورة أفكاره حول علاقة الإسلام بالعالم الخارجى، وبوجه خاص حول علاقاته الداخلية. وكانت دولة إسرائيل حينئذ حديثة النشأة وقد تمكنت من البقاء بمحاربتها وانتصارها فى الحرب الأولى من سلسلة الحروب العربية - الإسرائيلية. فى ذلك الوقت أدرك العالم الدمار التام الذى تعرض له اليهود فى بلاد أوروبا تحت حكم النازيين وكانت غالبية الرأى العام فى أمريكا، وفى كثير من أنحاء العالم، تقف إلى جانب إسرائيل. كذلك أشارت الأخبار إلى العلاقات التى كانت قائمة فى زمن الحرب بين الرايخ الثالث وقادة عرب بارزين من أمثال مفتى القدس ورشيد عالى فى العراق، مما أدى إلى اتجاه التعاطف الشعبى تلقائيا نحو أولئك الذين نظر إليهم باعتبارهم ضحايا هتلر الذين يكافحون لتفادى القضاء عليهم بواسطة شركاء هتلر. وقد صدم سيد قطب بسبب مدى التأييد السائد فى أمريكا لما اعتبره هجمة يهودية شرسة، بتواطؤ مسيحى، على الإسلام.

ومما له دلالة أكبر الصدمة التى أحدثها لديه أسلوب الحياة الأمريكى بما فيه من شرور وانحلال وإدمان للاختلاط الجنسى. وأخذ سيد قطب مسألة التناقض بين الروحانية الشرقية والمادية الغربية كقضية مسلّمة ووصف أمريكا بأنها الشكل المتطرف لهذه المادية الغربية. فقد كتب يقول إن كل شىء فى أمريكا، حتى الدين، يقاس من الناحية المادية. ولاحظ أن هناك الكثير من الكنائس ولكنه حذّر قراءه ألا يفهموا من ذلك أنه تعبير عن شعور حقيقى بالتدين أو الروحانية. فالكنائس فى أمريكا تسير كمشروعات الأعمال، فهى تتنافس على العملاء وعلى الدعاية، وتستخدم نفس الوسائل التى تستخدمها المحال التجارية والمسارح لاجتذاب المستهلكين والمشاهدين. والأمر المهم بالنسبة لراعى الكنيسة، كما هو الشأن بالنسبة لمدير الأعمال أو لمدير المسرح، هو النجاح، ذلك النجاح الذى يقاس بالحجم أى بالضخامة وبالأعداد. ومن أجل اجتذاب العملاء تقوم الكنائس بالإعلان عن نفسها دون حياء وتقدم أكثر ما يسعى إليه الأمريكيون وهو "الأوقات الطيبة" أو "اللهو" (وقد ذكر هذه الكلمات بالإنجليزية فى نصه باللغة العربية). والنتيجة هى أن قاعات الترفيه فى الكنائس تقيم، بمباركة الرهبان، حفلات الرقص التى يلتقى فيها أناس من الجنسين ويختلطون ويتلامسون. ويبلغ الأمر برعاة الكنيسة حد تقليل الإضاءة لتسهيل الهياج أثناء الرقص." وأشار بشعور واضح

من الاشمئزاز إلى أن الرقص "يزداد سخونة بسبب أنغام الجراموفون"، و "تصبح قاعة الرقص دوامة من التمايل والتفاخذ والأذرع التى تطوق الخصور وتتلاقى الشفاه والصدور ويمتلئ الهواء بالشبق". ولتوثيق هذا الوصف وإدانة الانحلال الأمريكى العام اقتبس عبارات من تقارير كينزى عن السلوك الجنسى(*). وقد تساعد هذه النظرة للغرب وأساليبه فى إيضاح السبب فى أن الإرهابيين المتشددين يعتبرون قاعات الرقص والنوادى الليلية وغيرها من الأماكن التى يلتقى فيها الشباب من البنين والبنات أهدافا مشروعة لهم. وكانت إدانة سيد قطب لأسلوب الحياة الأمريكى من الشدة إلى الحد الذى اضطره فى سنة ١٩٥٢ إلى أن يترك منصبه فى وزارة التعليم. والظاهر أنه انضم إلى الإخوان المسلمين بعد ذلك.

وتتجه كتابات سيد قطب ودعوته فى جوهرها إلى العدو الداخلى أو ما أسماه عصر "الجاهلية الجديدة". وكلمة "الجاهلية" هى الكلمة العربية التقليدية التى يقصد بها الفترة الوثنية التى سادت بلاد العرب قبل ظهور النبى وقبل ظهور الإسلام. وحسبما ارتآه سيد قطب فإن الجاهلية الجديدة عمت الشعوب الإسلامية والفراعنة الجدد، وهى إشارة صحيحة قصد بها النظم القائمة التى تحكم تلك الشعوب، لكن التهديد من جانب العدو الخارجى كان كبيرا ومتزايدا.

(*) سيد قطب "الإسلام ومشكلة الحضارة" (بدون ناشر، ١٩٦٧) ص ٨٠ وما بعدها. وانظر كذلك Jhon Calvert : The World is an Undutiful Boy! Sayed Qutb's American Experiences فى Islam and Christian-Muslim Relations,2 (مارس ٢٠٠٠) ص ٨٧-١٠٢، وقد خصص كتابا منفصلا، نشر بعد وفاته فى المملكة العربية السعوية، بعنوان "معركتنا مع اليهود" (جدة، ١٩٧٠). فهو يتحدث، بالإضافة إلى النزاع العربى المحدد مع اليهود، عن الدور الشرير لليهود فى الحرب ضد الإسلام وضد القيم الدينية بشكل عام : "فوراء العقيدة الإلحادية المادية هناك يهودى [ماركس] ووراء العقيدة الجنسية البهيمية هناك يهودى [فرويد] ووراء تدمير الأسرة وقطع الروابط الاجتماعية المقدسة هناك يهودى [دوركهايم]" والواقع أن سيد قطب نفسه لم يشر إلى أسماء هؤلاء الثلاثة ولكن الذى أشار إليهم هو ناشر الكتاب الذى أضاف إليهم فى حاشيته اسم رابع هو جان بول سارتر الذى جعله يهوديا لهذا الغرض باعتباره مصدر الإلهام لأدب التفكك والدمار. ويبدو من المرجح أن المصدر الذى استلهم منه سيد قطب هذه الفقرات المعادية لليهودية (وهى غير تلك المعادية لإسرائيل أو المعادية للصهيونية) كان مصدرا أوروبيا أو أمريكيا

وقد قيل إن عداء سيد قطب لأمريكا جاء نتيجة لزيارته لها وإن رد فعله كان يمكن أن يكون مماثلا لو أنه ذهب مبعوثا إلى أى بلد أوروبى آخر. لكن أمريكا فى ذلك الوقت كانت هى الأهم، وأصبحت قيادتها للعالم غير الإسلامى، سواء كان ذلك خيرا أو شرا، أكثر بروزا ومحل مناقشات متزايدة. وقد أصبحت أمريكا وانحلالها، وتهديد ذلك للإسلام والشعوب الإسلامية، بمثابة العقيدة الثابتة فى دوائر الإسلاميين الأصوليين.

وتوجد الآن سلسلة نمطية من الجرائم الأمريكية تسمعها فى بلاد العالم الإسلامى سواء من وسائل الإعلام أو فى النشرات أو فى المواعظ أو الخطابات العامة. والمثال البارز على ذلك تلك الكلمة التى ألقاها أستاذ مصرى فى اجتماع مشترك بين الاتحاد الأوروبى ومنظمة المؤتمر الإسلامى عقد فى فبراير ٢٠٠٢ فى إسطنبول. وترجع صحيفة الاتهام إلى وقت الاستيطان الأصلى فى أمريكا الشمالية وما وصف بأنه نزع لملكية سكانها السابقين وإبادتهم وسوء معاملة الباقين منهم على قيد الحياة. ثم يستمر الحديث عن الاسترقاق واستيراد السود وسوء استغلالهم (وهو اتهام من الغريب أن يأتى من هذا المصدر) واستغلال المهاجرين إلى الولايات المتحدة. وتتناول الكلمة جرائم الحرب ضد اليابان فى هيروشيما ونجازاكى وكذلك فى كوريا وفيتنام والصومال وغيرها. ومن الجدير بالملاحظة أنه من بين جرائم هذا العنوان الإمبريالى التصرفات الأمريكية فى لبنان والخرطوم وليبيا والعراق، وبالطبع مساعدة أمريكا لإسرائيل ضد الفلسطينيين. وشملت صحيفة الاتهام، على سبيل التعميم، مساندة الحكام المستبدين فى الشرق الأوسط وغيره من أمثال شاه إيران وهيلاسيلاسى فى إثيوبيا وقائمة متنوعة، تتغير بحسب الظروف، من الحكام العرب الذين يستبدون بشعوبهم.

ومع ذلك فإن أقوى الاتهامات وأشدها خطورة يظل هو الانحلال والفسق اللذان يتسم بهما أسلوب الحياة الأمريكى وما يمثله ذلك من تهديد للإسلام. وقد أصبح هذا التهديد، الذى قدم سيد قطب صياغته التقليدية، جزءًا ثابتا من قاموس وأيديولوجية الأصوليين الإسلاميين وبوجه خاص فى اللغة التى تستخدمها الثورة الإيرانية. وهذا هو المقصود بعبارة "الشيطان الأكبر" التى أطلقها الراحل آية الله الخمينى على الولايات المتحدة. والشيطان كما وصفه القرآن ليس إمبرياليا ولا مستغلا، لكنه يغوى الناس فهو { الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس } (القرآن ، سورة الناس رقم ١١٤، الآيتان ٤ و ٥).

الفصل الخامس

الشيطان والسوفييت

تصور حادثة وقعت في باكستان في سنة ١٩٧٩ الدور الجديد لأمريكا - ورؤية الشرق الأوسط له - تصويرا بالغ الحيوية. ففي العشرين من نوفمبر استولت عصابة مكونة من ألف شخص من المسلمين الراديكاليين على المسجد الحرام في مكة واحتفظت به لبعض الوقت في مواجهة مع قوات الأمن السعودية. وكان هدفهم المعلن هو "تنقية الإسلام" وتحرير الأراضي المقدسة في بلاد العرب من "عصبة الكفار الملكية" ومن الزعماء الدينيين الفاسدين الذين يؤيدونهم. وأدان زعيمهم، في خطابات كان يلقيها من خلال مكبرات الصوت، الغربيين لما يقومون به من تدمير للقيم الإسلامية الأساسية وأدان الحكومة السعودية باعتبارها شريكا لهم في ذلك. ودعا إلى الرجوع إلى التقاليد الإسلامية القديمة في "العدالة والمساواة". وعقب بعض الاشتباكات العنيفة تم القضاء على المتمردين. وتم إعدام زعيمهم في ٩ يناير ١٩٨٠ مع اثنين وستين من أتباعه من بينهم مصريون وكويتيون ويمنيون ومواطنون من بلدان عربية أخرى.

في هذه الأثناء قامت مظاهرة تأييد للمتمردين في العاصمة الباكستانية إسلام أباد. وانتشرت شائعة - أيدها آية الله الخوميني الذي كان في سبيله إلى تثبيت سلطته باعتباره الزعيم الثوري لإيران - مفادها أن القوات الأمريكية قد شاركت في الاشتباكات في مكة. وتعرضت السفارة الأمريكية للهجوم من قبل جماعة من المتظاهرين المسلمين، وقتل اثنان من الموظفين الأمريكيين واثنان من الموظفين الباكستانيين. فلماذا أيد الخميني ما جاء في تقرير لم يكن خاطئا فحسب بل كان في الغالب غير محتمل ؟.

وقعت هذه الأحداث فى سياق الثورة الإيرانية لسنة ١٩٧٩ . وفى الرابع من نوفمبر تم الاستيلاء على سفارة الولايات المتحدة فى طهران وأخذ اثنان وستون أمريكيا كرهائن. وتم الإفراج عن عشرة منهم، من النساء ومن الأمريكيين ذوى الأصل الأفريقى فورا، أما الباقون فقد احتجزوا لمدة ٤٤٤ يوما إلى أن تم الإفراج عنهم فى ٢٠ يناير ١٩٨١ . ورغم أن الدوافع على ذلك كانت محيرة للكثيرين فى حينها، إلا أنها أصبحت أكثر وضوحا فيما بعد نتيجة لما صرح به مختطفو الرهائن أنفسهم. ومن الواضح الآن أن أزمة الرهائن وقعت ليس بسبب تدهور العلاقات بين إيران والولايات المتحدة بل بسبب تحسنها. ففى خريف سنة ١٩٧٩، كان رئيس الوزراء الإيرانى المعتدل نسبيا، مهدى بازرجان، قد رتب لقاء مع مستشار الأمن القومى الأمريكى، زبيجنيو بريزنسكى، برعاية الحكومة الجزائرية. والتقى الرجلان فى الأول من نوفمبر وذكر أنه تم تصويرهما وهما يتصافحان. وقد بدا أن هناك إمكانية حقيقية - ربما خطر حقيقى فى نظر الراديكاليين - للتوصل إلى نوع من التسوية بين البلدين. لذا استولى المحتجون على السفارة وأخذوا الدبلوماسيين الأمريكيين كرهائن للقضاء على أى أمل فى مزيد من الحوار. وقد نجحوا فى ذلك، على الأقل حينئذ، نجاحا تاما.

وكانت الولايات المتحدة بالنسبة للخومينى هى العدو الأساسى الذى يتعين أن يشن عليه حربه المقدسة من أجل الإسلام. وكان عالم الكفار حينئذ، كما كان فى الماضى، ينظر إليه على أنه القوة الوحيدة المنافسة التى تحول دون انتشار الإسلام وانتصاره كما أمر الله به. ولم يرد ذكر الولايات المتحدة كثيرا فى كتابات الخومينى المبكرة، وبوجه خاص فى كتابه "الحكومة الإسلامية" الصادر سنة ١٩٧٠، ثم أشير إليها فى سياق الحديث عن الإمبريالية باعتبارها - أولا - معينا للإمبراطورية البريطانية، التى كانت معروفة بدرجة أكبر، ثم بعد ذلك خلفا لها. وعندما حان وقت الثورة، وما أسفرت عنه من مواجهة مباشرة، أصبحت الولايات المتحدة بالنسبة له الخصم الأساسى، والهدف الذى ينصب عليه غضب المسلمين واحتقارهم.

ويبدو أن عداء الخومينى الخاص للولايات المتحدة يرجع إلى شهر أكتوبر سنة ١٩٦٤ عندما ألقى خطابا أمام بيته فى مدينة قم أدان فيه بشدة مشروع قانون قدم إلى البرلمان الإيرانى حينئذ يعطى للبعثة العسكرية الأمريكية وضعا يخرجها عن قانون

البلاد، وعن الولاية الإيرانية. ويبدو أنه لم يكن يعلم أن مثل هذه الحصانات قد طلبت ومنحت كأمر عادى للقوات الأمريكية المرابطة فى بريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية. لكن مسألة الامتيازات الأجنبية، كما سميت، والحصانات الأجنبية التى منحت فى الماضى للتجار الغربيين وغيرهم من المسافرين فى البلاد الإسلامية كانت مسألة حساسة استغلها الخومينى بمهارة. "لقد نزلوا بمنزلة الشعب الإيرانى إلى مستوى أدنى من كلب أمريكى. فإذا ما اصطدم شخص بكلب يملكه أمريكى فإنه ستجرى ملاحقته. حتى الشاه نفسه إذا اصطدم بكلب يملكه أمريكى فإنه سيلاحق. أما إذا اصطدم طباخ أمريكى بالشاه، رأس الدولة، فلن يكون من حق أحد أن يتدخل فى الأمر"(*). ولما كان الخومينى على غير وفاق مع السلطات بالفعل فإن هذا الخطاب أدّى إلى نفيه من إيران فى الرابع من نوفمبر. وقد عاد إلى هذا الموضوع فى عدد من خطاباته وكتاباته اللاحقة، ساخرا من ادعاء الأمريكيين تمسكهم بحقوق الإنسان وإهدارهم لها فى إيران وفى بلدان أخرى بما فيها أمريكا اللاتينية "الواقعة فى نصف الكرة الذى تقع فيه بلادهم". ومن بين الاتهامات الأخرى التى وجهها لها نهب ثروات إيران ومساندة الملكية فيها.

وفى الخطابات التى ألقاها الخومينى بعد عودته إلى إيران أصبحت قائمة الشكاوى والمظالم أكبر وقائمة الأعداء أطول، وأصبحت أمريكا الآن على رأسها. ولم يقتصر الأمر على إيران. ففى خطاب ألقاه فى سبتمبر ١٩٧٩ فى مدينة قم شكا من أن العالم الإسلامى كله واقع فى قبضة أمريكا، ودعا مسلمى العالم إلى الاتحاد ضد عدوهم. وفى نفس هذا الوقت تقريبا بدأ يصف أمريكا بأنها "الشيطان الأكبر"، وأدان كذلك السادات فى مصر وصدام حسين فى العراق باعتبارهما خادمين وعميلين

(*) ترد هذه النصوص وغيرها فى : Islam and Revolution : Writings and Declarations of Imam Khomeini، ترجمة وتعليق حميد الجار (بيركلى، ١٩٨١). وكان كتابه "الحكومة الإسلامية" فى الأصل مجموعة محاضرات ألقاها فى المركز الشيعى فى النجف، بالعراق. حيث كان منفيا، وصدر بعد ذلك بقليل باللغتين العربية والفارسية. وبالنسبة لأولئك الذين قرأوا الكتاب فإن المسار الذى اتخذته الثورة الإسلامية فى إيران بعد ذلك لا يبدو غريبا.

لأمريكا. فقد خدم السادات أمريكا بعقده صلحا مع إسرائيل، وقام صدام حسين بالعمل نيابة عن أمريكا عندما شن الحرب على إيران. وأكدت المواجهة مع أمريكا خلال أزمة الرهائن، وفي الغزو العراقي، وفي العديد من المعارك الدبلوماسية والاقتصادية رأى الخوميني حول دور أمريكا المركزي في الصراع بين الإسلام والغرب.

من الآن فصاعدا أصبحت أمريكا هي "الشيطان الأكبر"، وإسرائيل باعتبارها عميلة لأمريكا "الشيطان الأصغر" وأصبح الشعار السائد هو "الموت لأمريكا". وكان هذا الشعار هو نفسه الذي رفع وهتفت به المظاهرات المناهضة لأمريكا في سنة ١٩٧٩ . وأسبغ على هذا الشعار بعد ذلك نوع من الاحتفالية والطقوس التي أفقدته معظم ما يحتوي عليه من المعاني.

وقد حاول المراقبون الأمريكيون، الذين أفاقوا على خطاب الثورة الإيرانية والوصف الجديد الذي أطلقته عليهم باعتبارهم "الشيطان الأكبر"، التوصل لأسباب الشعور المعادي لأمريكا الذي بدأ يزداد في العالم الإسلامي منذ فترة من الزمن. وكان أحد التفسيرات، الذي حظي بقبول واسع لبعض الوقت ولاسيما في دوائر السياسة الخارجية الأمريكية، هو أن صورة أمريكا قد تأثرت نتيجة لتحالفها أثناء الحرب مع القوى الاستعمارية الأوروبية السابقة واستمرار هذا التحالف بعد ذلك. وذكر المعلقون الأمريكيون دفاعا عن بلادهم أنها، على خلاف القوى الأوروبية الإمبريالية، كانت هي نفسها ضحية للاستعمار، وأن الولايات المتحدة كانت أول بلد ينتزع حريته من الحكم البريطاني. لكن الأمل في أن يتخذ الرعايا السابقون للإمبراطوريتين الإنجليزية والفرنسية في الشرق الأوسط من الثورة الأمريكية نموذجا لهم في كفاحهم ضد الإمبريالية كان قائما على أكذوبة أساسية سرعان ما أوضحها الكتّاب العرب. فكثيرا ما يلاحظون أن من حارب خلال الثورة الأمريكية لم يكن هم الوطنيون الأمريكيون الأصلاء بل المستوطنون البريطانيون أنفسهم، وأن الأمر أبعد ما يكون عن الانتصار على الاستعمار، بل إنه انتصار للاستعمار في أشد صوره؛ فقد نجح الإنجليز في استعمار أرض أمريكا الشمالية استعمارا كاملا إلى الحد الذي لم يعودوا يحتاجون معه إلى مساندة بلدهم الأم ضد السكان الأصليين.

وقد يكون من الغريب أن توصم أمريكا من جانب أولئك الذين خضعوا للاستعمار فى الشرق الأوسط بنفس الصفة الإمبريالية التى اتسمت بها أوروبا الغربية من قبل. لكن استياء الشرق الأوسط من القوى الإمبريالية لم يكن متسقا دائما. فالاتحاد السوفييتى، الذى احتفظ بالأراضى التى غزاها قياصرة روسيا وتوسع فيها، والذى حكم بقبضة من حديد عشرات الملايين من الرعايا المسلمين فى أواسط آسيا والقوقاز لم يتعرض مع ذلك لغضب وكراهية مماثلين من جانب المجتمع العربى.

ولم يكن اهتمام روسيا بالشرق الأوسط أمرا جديدا. فقد ظل القياصرة يتوسعون جنوبا وشرقا لقرون عديدة وضموا إلى إمبراطوريتهم أراض إسلامية شاسعة على حساب تركيا وفارس وبلدان آسيا الوسطى الإسلامية التى كانت مستقلة من قبل. وأدت هزيمة المحور فى سنة ١٩٤٥ إلى ظهور تهديد سوفييتى جديد. فقد ترسخت قدم السوفييت فى البلقان وأصبح فى مقدورهم تهديد تركيا من حدودها الشرقية والغربية على السواء. وكانوا قد دخلوا فعلا إلى إيران باحتلالهم لولاية أذربيجان الفارسية. وكان تهديدهم لإيران قديما. فخلال الحروب الروسية - الإيرانية من ١٨٠٤ إلى ١٨١٣ ثم من ١٨٢٦ إلى ١٨٢٨ كان الروس قد استولوا على الجزء الشمالى من أذربيجان الذى أصبح ولاية فى إمبراطورية القياصرة، ثم جمهورية فى الاتحاد السوفييتى. وخلال الحرب العالمية الثانية احتل السوفييت إيران بالاشتراك مع الإنجليز لتأمين خطوط مواصلاتها لاستخدامها من جانبهما معا. وعندما انتهت الحرب انسحب الإنجليز لكن السوفييت بقوا وفى نيتهم، على ما يبدو، أن يضموا ما تبقى من أذربيجان إلى الاتحاد السوفييتى.

لكنهم منعوا من ذلك فى هذه المرة. فقد تمكن الأتراك، بفضل الدعم الأمريكى الواسع، من أن يرفضوا الطلب السوفييتى للحصول على قواعد فى المضايق، فى الوقت الذى قام فيه الإيرانيون بتفتيت الدولة الشيوعية العميلة التى أنشأها المحتل السوفييتى فى أذربيجان الفارسية وأعادوا تثبيت سيادة الحكومة الإيرانية على جميع أراضيها.

وبذلك تمت مؤقتا مقاومة المحاولة التى قام بها السوفييت لتنفيذ حلم القياصرة القديم ودخلت كل من تركيا وإيران فى محالفات مع الغرب. لكن اتفاق السلاح الروسى

– المصرى فى سنة ١٩٥٥ أدخل روسيا من جديد إلى اللعبة الشرق أوسطية لتقوم هذه المرة بدور رائد. فالأتراك والإيرانيون لديهم خبرة طويلة بالإمبريالية الروسية وكان ذلك مصدر قلقهم. أما تجربة البلدان العربية للاستعمار فقد كانت غربية بحتة، وكانت على استعداد للنظر إلى السوفييت نظرة أفضل. واستطاع الروس خلال فترة قصيرة، بقفزهم فوق الحواجز الشمالية والتعامل مباشرة مع الدول العربية حديثة الاستقلال، أن يقيموا لأنفسهم وضعا قويا فى المنطقة.

وقد ساروا فى البداية على نحو يشبه كثيرا الأسلوب الذى سارت به أوروبا الغربية من قبل : قواعد عسكرية، والإمداد بالسلاح، و "المشورة" العسكرية، والتغلغل الاقتصادى والثقافى. لكن ذلك لم يكن، وفقا للأسلوب السوفييتى فى هذا النوع من العلاقات، سوى البداية، وكان العزم واضحا على الوصول بها إلى أبعد من ذلك كثيرا. وليس هناك من شك فى أنه لولا المعارضة الأمريكية، والحرب الباردة، ثم انهيار الاتحاد السوفييتى فيما بعد، لكان مصير العالم العربى أشبه بمصير بولندا والمجر وربما، وهو الأرجح، أشبه بمصير أوزبكستان. ولم يقتصر الأمر على ذلك. ففى سعيهم إلى فرض حمايتهم على حلفائهم فى الشرق الأوسط برهن السوفييت على أنهم غير قادرين على ذلك. ذلك أنه فى الحرب العربية – الإسرائيلية فى سنة ١٩٦٧، وفى سنة ١٩٧٣ أيضا، لم يكونوا راغبين أو قادرين على إنقاذ أولئك الذين يحتمون بهم من الهزيمة والإذلال. وكل ما استطاعوا القيام به هو الانضمام للولايات المتحدة فى دعوة إسرائيل إلى إيقاف تقدمها.

وفى أوائل السبعينيات لم يعد الوجود السوفييتى فعالا بل أصبح سببا للمتاعب. وعلى غرار أسلافهم الغربيين كان السوفييت قد أنشأوا قواعد عسكرية على الأراضى المصرية لم يسمح بدخول أى مصرى إليها وانتقلوا بعد ذلك إلى المرحلة التقليدية التالية وهى المعاهدات غير المتكافئة.

وقد وعى بعض الزعماء فى الشرق الأوسط الدرس واتجهوا، بقدر من التثاقل، ناحية الغرب. ويأتى فى مقدمة هؤلاء الرئيس المصرى أنور السادات الذى كان قد ورث العلاقة مع السوفييت عن سلفه الرئيس عبد الناصر. وقد دفع دفعا فى مايو سنة ١٩٧١

إلى التوقيع على "معاهدة الصداقة والتعاون" مع الاتحاد السوفييتي(*)، وفى يوليو ١٩٧٢ أصدر أمرا إلى مستشاريه العسكريين السوفييت بمغادرة البلاد واتخذ الخطوات الأولى فى التقارب مع الولايات المتحدة والسلام مع إسرائيل. لكن يبدو أن الرئيس السادات كان وحده تقريبا فى تقييمه للوضع وفى السياسات التى اتبعها، فلم تؤد هذه الأحداث، بوجه عام، إلى التقليل من الشعور الودى تجاه السوفييت أو إلى زيادته تجاه الولايات المتحدة بما يتناسب مع ما حدث. ولم يوجه إلى السوفييت أى إدانة أو أى استنكار لقضائهم على الإسلام فى جمهوريات آسيا الوسطى والقوقاز، حيث لم يرخصوا إلا لمائتى مسجد فقط فى العمل على تلبية الاحتياجات الدينية لخمسين مليون مسلم. كما أنه لم تجر إدانة الصينيين لمحاربتهم المسلمين فى سينكيانج. كذلك فإن الأمريكيين لم يحظوا بأى تقدير لجهودهم من أجل إنقاذ المسلمين فى البوسنة وفى كوسوفو وفى ألبانيا. وبطبيعة الحال كانت هناك اعتبارات أخرى تتدخل فى الأمر.

وربما كانت أخطر صورة لهذا التباين تلك المتعلقة بالغزو السوفييتى لأفغانستان فى أواخر ديسمبر ١٩٧٩ وتنصيب حكومة عميلة هناك. ومن الصعب العثور على حالة أكثر وضوحا للعدوان وللغزو والسيطرة الإمبريالية. ومع ذلك فإن رد الفعل من الجانب العربى ومن العالم الإسلامى بوجه عام يكاد يكون هو الصمت التام. وفى ١٤ يناير ١٩٨٠، وبعد مماطلات طويلة، استطاعت الجمعية العامة للأمم المتحدة أخيرا اتخاذ قرار حول هذا الحدث لم تعبّر فيه كما كان مقترحا عن إدانتها للعدوان السوفييتى ولكن عن "شجبها الشديد للتدخل العسكرى الأخير فى أفغانستان". ولم تستخدم كلمة "عدوان"، ولم يذكر اسم من قام بهذا "التدخل". وصوت لصالح القرار ١٠٨ أعضاء مقابل ١٨ صوتوا ضده. أما عن الدول العربية فقد امتنعت سوريا والجزائر عن التصويت وصوت اليمن الجنوبى ضد القرار، وتغيبت ليبيا عن الحضور. وألقى المراقب ممثل منظمة التحرير الفلسطينية – الذى لم يكن له حق التصويت – خطابا دافع فيه عن التصرف

(*) انظر بشأن هذه المعاهدة Bernard Lewis :

"Orientalist Notes on the Soviet-United Arab Republic Treaty of 27 May 1971" فى Princeton Papers in Near Eastern Studies, No. 2 ص ٥٧-٦٥.

السوفييتى. ولم تقم منظمة المؤتمر الإسلامى بما يزيد على ذلك. ففى ٢٧ يناير، وبعد مناورات ومفاوضات كثيرة، نجحت المنظمة فى عقد اجتماع فى إسلام أباد لمناقشة القضية السوفييتية - الأفغانية. وقاطعت دولتان من الدول الأعضاء الاجتماع هما سوريا واليمن الجنوبى وألقى مندوب ليبيا خطابا هاجم فيه الولايات المتحدة الأمريكية بشدة بينما امتنع ممثل منظمة التحرير الفلسطينية، وهو عضو كامل العضوية فى منظمة المؤتمر الإسلامى، عن التصويت على القرار المعادى للسوفييت وقدم تحفظاته كتابة.

وكان هناك شىء من رد الفعل فى العالم الإسلامى تجاه الغزو السوفييتى تمثل فى بعض الأموال السعودية وبعض الأسلحة المصرية وكثير من المتطوعين العرب. لكن تنظيم هذا الهجوم الإسلامى المضاد للإمبريالية السوفييتية فى أفغانستان ترك للولايات المتحدة، وهو الأمر الذى صادفت فيه قدرا من النجاح. ولم تقم منظمة المؤتمر الإسلامى إلا بالشىء القليل لمساعدة الأفغانيين مفضلة تركيز اهتمامها على أمور أخرى : على بعض التجمعات الإسلامية الصغيرة فى مناطق لم يتم فيها تصفية الاستعمار بعد، وبطبيعة الحال على النزاع بين إسرائيل وفلسطين.

وإسرائيل هى واحدة من أماكن كثيرة يلتقى فيها العالمان الإسلامى وغير الإسلامى : نيجيريا، السودان، البوسنة، كوسوفو، مقدونيا، الشيشان، سينكيانج، كشمير، تيمور، ميندناو ..إلخ. وتعتبر كل من هذه القضايا القضية المركزية بالنسبة للمعنيين بها ولكنها تعتبر بالنسبة للآخرين خروجا عن الموضوع يثير الضيق. وعلى العكس يولى الغربيون عناية كبرى للمظالم التى يأملون فى إيجاد حلول مرضية لها على حساب غيرهم. ومن المؤكد أن النزاع بين إسرائيل وفلسطين استحوذ على عناية أكبر بكثير من أى نزاع آخر لعدة أسباب. أول هذه الأسباب أن إسرائيل دولة ديموقراطية ومجتمعها مفتوح ومن الأسهل كثيرا فى هذه الظروف الإخبار بما يجرى فيها أو إساءة الإخبار عنه. وثانيا فإن اليهود معنيون بها وهذا فى حد ذاته من شأنه أن يضمن وجود اهتمام كبير بين أولئك الذين يقفون لسبب أو لآخر مع اليهود أو ضدهم. والمثال الجيد على هذا الاختلاف هو الحرب بين العراق وإيران التى استمرت لثمانى سنوات، من ١٩٨٠ إلى ١٩٨٨، والتى أدت إلى دمار كبير وأودت بحياة عدد يفوق بكثير كل من أودت بحياتهم الحروب العربية - الإسرائيلية مجتمعة ولكنها حظيت

بقدر أقل بكثير من الاهتمام. ويرجع ذلك أولا إلى أنه لا العراق ولا إيران ديموقراطية، ولذا فإن الإخبار عما يحدث فيها أكثر صعوبة وأشد خطورة. والسبب الثانى هو أن اليهود لم يكونوا طرفا فيها سواء كضحايا أو كمعتدين وبالتالى فإن الإخبار عما يدور فيها كان يثير اهتماما أقل بكثير.

والسبب الثالث، ولعله الأهم، لما تحظى به قضية فلسطين من اهتمام يضعها فى المقدمة هو أنها، إذا جاز القول، المبرر الوحيد المسموح به للشكوى والذى يمكن للمرء أن يتحدث عنه بحرية وأمان فى البلدان الإسلامية التى تملك حكوماتها وسائل الإعلام بالكامل أو تخضع لرقابتها الصارمة. فالواقع أن مسألة إسرائيل تعتبر بديلا جيدا عن الشكوى من الحرمان الاقتصادى والقمع السياسى الذى تخضع له معظم الشعوب الإسلامية ووسيلة لامتصاص الغضب الناتج عن ذلك، ويساعد على ذلك ما يحدث على المسرح الإسرائيلى الداخلى نفسه حيث يتم الكشف فورا عن أية إساءة للتصرف من جانب الحكومة أو الجيش أو المستوطنين أو أى شخص آخر كما أن النقاد الإسرائيليين، سواء من اليهود أو العرب يكشفون أية أكاذيب ويعرضونها فى وسائل الإعلام الإسرائيلية وفى البرلمان. ولا يعانى معظم خصوم إسرائيل من مثل هذه العراقيل فى دبلوماسيتهم العلنية.

ومع أفول نجم الإمبراطوريات الأوروبية الغربية عزى شعور العداء لأمريكا فى الشرق الأوسط لأسباب أخرى أكثر تحديدا : الاستغلال الاقتصادى، الذى كثيرا ما وصف بأنه نهب لثروات البلاد الإسلامية؛ ومساندة الحكام المستبدين المحليين الفاسدين الذين يخدمون أهداف أمريكا بقمعهم لشعوبهم وسرقة أموالهم، وأسباب عديدة أخرى، وهناك سبب آخر هو التأييد الأمريكى لإسرائيل فى نزاعها أولا مع الفلسطينيين العرب، ثم فى نزاعها مع البلدان العربية المجاورة ومع العالم الإسلامى على وجه العموم. وتؤكد البيانات العربية والفارسية هذه الفرضية. لكن القول بأنه لو لم يوجد واحد أو آخر من هذه العقبات لأصبح كل شىء على ما يرام بالنسبة للسياسات الأمريكية فى الشرق الأوسط أمر لا يبدو معقولا. ومما لا شك فيه أن مشكلة فلسطين أثارت غضبا كبيرا ومتزايدا، بل إن هذا الغضب يتجدد ويزداد خطورة من حين إلى آخر بفعل سياسات وتصرفات الحكومة والأحزاب الإسرائيلية. لكن هل يمكن أن يكون ذلك، كما يقول البعض، هو فعلا السبب الأساسى للشعور المعادى للغرب؟

هناك بعض التناقضات التى تظهر وتتكرر فى التسجيل التاريخى. ففى الثلاثينيات كانت سياسات ألمانيا النازية هى السبب الأساسى فى الهجرة اليهودية إلى فلسطين، التى كانت حينئذ تحت الانتداب البريطانى، مما أدى إلى تقوية الطائفة اليهودية فيها. ولم يكتف النازيون بالسماح بهذه الهجرة لكنهم قدموا لها التسهيلات حتى اندلاع الحرب، بينما فرض عليها البريطانيون القيود وطبقوها آملين – دون جدوى – فى كسب ود العرب. على أن القيادة الفلسطينية فى ذلك الوقت، وكثير من القادة العرب الآخرين، كانوا يساندون الألمان الذين أرسلوا اليهود إلى فلسطين ولم يساندوا البريطانيين الذين حاولوا إبعادهم عنها.

ويمكن ملاحظة مثل هذا التباين كذلك فى الأحداث التى أدت إلى إنشاء دولة إسرائيل وتلك التى تلت قيامها : فقد قام الاتحاد السوفييتى بدور كبير فى الحصول على الأغلبية التى صوتت فى الجمعية العامة للأمم المتحدة إلى جانب إنشاء دولة يهودية فى فلسطين ثم فى الاعتراف القانونى الفورى بإسرائيل. وكانت الولايات المتحدة أكثر ترددا وجاء اعترافها بإسرائيل بحكم الأمر الواقع فقط. والأهم من ذلك أن الحكومة الأمريكية فرضت حظرا جزئيا على الأسلحة التى ترسل إلى إسرائيل بينما قامت تشيكوسلوفاكيا فورا، بتصريح من موسكو، بإرسال إمدادات السلاح التى مكّنت الدولة الجديدة من البقاء. ولم يكن السبب فى هذه السياسة السوفييتية فى ذلك الوقت هو حسن النوايا تجاه اليهود ولا سوء النوايا تجاه العرب. لكن هذه السياسة كانت قائمة على اعتقاد خاطئ – ولكنه حظى بقبول واسع فى ذلك الوقت – بأن بريطانيا لا تزال هى القوة الرئيسية فى الغرب ومن ثم المنافس الرئيسى لموسكو. وعلى هذا الأساس فإن كل من يثير الاضطرابات فى وجه البريطانيين – كما فعل اليهود خلال السنوات الأخيرة للانتداب على فلسطين – جدير بالمساندة السوفييتية. وأدرك ستالين فيما بعد خطأه ووجه عنايته لأمريكا بدلا من بريطانيا.

ظل التعامل الأمريكى مع الدولة اليهودية محدودا وحذرا طوال السنوات العشر التالية لقيام إسرائيل. فبعد حرب السويس فى سنة ١٩٥٦ تدخلت الولايات المتحدة بقوة وحسم لضمان انسحاب القوات الإسرائيلية والبريطانية والفرنسية. وأدرك الزعيم السوفييتى خروشوف، الذى التزم الصمت الحذر فى المراحل الأولى للحرب، أن

إصدار بيان مؤيد للعرب لا ينطوى على خطر التصادم مع الولايات المتحدة فظهر حينئذ - وحينئذ فقط - مؤيدا للعرب تأييدا قويا. وظلت إسرائيل تعتمد فى تسليحها، حتى اندلاع حرب ١٩٦٧، على الموردين الأوروبيين، والفرنسيين بصفة خاصة، وليس على الولايات المتحدة.

ومع ذلك فإن عودة الإمبريالية الروسية، ممثلة الآن فى الاتحاد السوفييتى، إلى القيام بدور أكثر نشاطا فى شئون الشرق الأوسط أدى إلى رد فعل قوى فى العالم العربى . فبعد إتمام بعض الزيارات الدبلوماسية والأنشطة الأخرى ظهرت العلاقة الجديدة إلى النور بالإعلان رسميا، فى نهاية سبتمبر ١٩٥٥، عن صفقة أسلحة وقعت بين الاتحاد السوفييتى ومصر، التى زادت تبعيتها للسوفييت. فى السنوات اللاحقة وكان الترحيب بصفقة السلاح فى العالم العربى، الذى تخطى كل الخلافات والشكاوى المحلية، أشد خطورة من الصفقة نفسها. فقد اجتمعت مجالس النواب فى سوريا ولبنان والأردن فورا وأصدرت قرارات تهنئ فيها عبد الناصر، الذى كان حينئذ رئيسا للوزراء؛ بل إن نورى السعيد، وهو حاكم العراق الموالى للغرب ومنافس عبد الناصر على زعامة العالم العربى، رأى نفسه مضطرا لتهنئة زميله المصرى. وحظى الأمر بتأييد حماسى شبه إجماعى فى الصحافة العربية.

لماذا كان رد الفعل على هذا النحو ؟ من المؤكد أنه لم يكن هناك ود مفقود بين العرب وروسيا كما أن المسلمين، سواء فى العالم العربى أو فى غيره، لم يكونوا يرغبون فى أن يدخلوا إلى بلادهم الأيديولوجية الشيوعية أو النفوذ السوفييتى. كما أنه لم يكن مكافأة لموسكو على سياستها تجاه إسرائيل، التى كانت أميل إلى الصداقة معها. لكن ما أسعد العرب هو أنهم رأوا فى صفقة السلاح - وكانوا على حق فى ذلك - صفعة فى وجه الغرب. وأدت الصفعة، ورد الفعل الغربى المضطرب تجاهها، والأمريكى بالذات، إلى تقوية روح الكراهية والاحتقار تجاه الغرب وشجعت المروجين لها.

وشجع انتشار النفوذ السوفييتى فى الشرق الأوسط، ورد الفعل الحماسى تجاهه، الولايات المتحدة على النظر لإسرائيل نظرة أفضل وأصبحت ترى فيها حليفا محتملا يمكن الاعتماد عليه ، ويمكن أن يكون نافعا فى إقليم ينتشر فيه العداء لها. وكثيرا

ما ينسى الناس اليوم أن العلاقة الإستراتيجية بين الولايات المتحدة وإسرائيل كانت نتيجة، وليست سببا، التغلغل السوفييتي.

إن الاهتمام الأول لأية حكومة أمريكية هو بالطبع تحديد المصالح الأمريكية ووضع السياسات لحمايتها وتعزيزها. وفي الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية كانت السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط، وفي غيره، تقوم أساسا على ضرورة منع التغلغل السوفييتي. لكن الحكومة الأمريكية تجاهلت، مع الأسف، الأهمية المعنوية الفائقة للمسائل الأخرى وشاركت في الأمر على مراحل : ساندت في البداية الموقف البريطاني المتداعي، وعندما اتضح عدم جدوى ذلك، تدخلت بشكل مباشر، ثم حلت أخيرا محل بريطانيا في الدفاع عن الشرق الأوسط ضد الهجوم الخارجي، وبالذات من جانب الاتحاد السوفييتي.

كانت الحاجة الأساسية فيما بعد الحرب هي مقاومة الضغط السوفييتي على القطاع الشمالي من أجل تحقيق الانسحاب السوفييتي من أذربيجان الإيرانية والتصدي للمطالب السوفييتية الخاصة بتركيا. كانت تلك سياسة واضحة ومعقولة ومجدية، بوجه عام، في سبيل إنقاذ تركيا وإيران. لكن محاولة مد العمل بها إلى العالم العربي من خلال حلف بغداد أدت إلى أثر عكسي شديد أسفر عن معاداة وإضعاف أولئك الذين كان يفترض فيها أن تجتذبهم. وإذ رأى الرئيس المصري جمال عبد الناصر في الحلف تهديدا لزعامته اتجه نحو الاتحاد السوفييتي، وسقط النظام الموالي للغرب في العراق، وتعرضت النظم الصديقة في الأردن ولبنان للخطر إلى حد أنهما احتاجا للمساعدة العسكرية الغربية من أجل البقاء. ومنذ سنة ١٩٥٥ عندما قفز السوفييت فوق الحاجز الشمالي إلى العالم العربي، فإن كلا من التهديد وأساليب مواجهته تغيرت تغيرا جذريا. وبينما صمد القطاع الشمالي صمودا قويا، أصبحت البلاد العربية معادية أو التزمت، على أحسن الفروض، حيادا عصبيا. في ظل هذه الظروف دخلت علاقات أمريكا بإسرائيل مرحلة جديدة.

وقد ظلت هذه العلاقة لفترة طويلة تتشكل وفقا لاعتبارين مختلفين تماما : أحدهما ويمكن أن يسمى أيديولوجيًا أو عاطفيًا والآخر إستراتيجيًا. فقد كان من السهل أن

يرى الأمريكيون الذين درسوا الإنجيل ودرسوا تاريخ بلادهم فى مولد إسرائيل الحديثة هجرة جديدة وعودة إلى أرض الميعاد وأن يتعاطفوا مع أولئك الذين يبدو أنهم يكررون تجربة الآباء المهاجرين الرواد ومن جاء بعدهم. لم ينظر العرب للأمر على هذا النحو بالطبع؛ ويشارك كثير من الأوروبيين العرب فى نظرتهم تلك.

والرابطة الأخرى بين الولايات المتحدة وإسرائيل هى العلاقة الإستراتيجية التى بدأت فى الستينيات وازدهرت فى السبعينيات والثمانينيات، وتقلبت فى التسعينيات، واكتسبت أهمية جديدة عندما واجهت الولايات المتحدة، فى وقت واحد، تهديدات صدام حسين ومطامعه فى الهيمنة، والإرهاب الأصولى لتنظيم القاعدة، والاستياء المتزايد وعميق الجذور من جانب حلفائها العرب. وقد ثار جدل كبير حول أهمية إسرائيل الإستراتيجية بالنسبة للولايات المتحدة. فالبعض فى الولايات المتحدة يرى أن إسرائيل حليف إستراتيجى مهم فى المنطقة والحصن المضمون ضد الأعداء الخارجيين والإقليميين. ويرى آخرون أن إسرائيل لا تمثل إضافة إيجابية، بل هى عبء إستراتيجى بما أحدثته من مرارة فى علاقات الولايات المتحدة بالعالم العربى وما أدت إليه من إخفاق للسياسات الأمريكية فى المنطقة.

لكن إذا قارنا سجل السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط بسياستها فى المناطق الأخرى فإن المرء سيدهش ليس لإخفاق هذه السياسة بل لنجاحها. فليست هناك فيتنام فى الشرق الأوسط، ولا كوبا ولا نيكاراجوا أو السلفادور ولا حتى أنجولا. بل على العكس، فخلال جميع الأزمات المتتابعة التى اهتزت لها المنطقة كان هناك حضور أمريكى ضخم على الصعيد السياسى والاقتصادى والثقافى فى عدد من دولها، بغير حاجة إلى تدخل عسكرى كبير، وذلك حتى حرب الخليج فى سنة ١٩٩١، بل وحتى فى هذه الحالة فإن الوجود الأمريكى كان لازما لإنقاذ الضحايا فى اعتداء وقع فيما بين العرب أنفسهم دون أن يكون له علاقة بالإسرائيليين أو الفلسطينيين.

وبالنسبة إلى أولئك الذين ينظرون فقط إلى الشرق الأوسط فإنهم يرون على الدوام الصعوبات التى واجهت السياسات الأمريكية فى هذه المنطقة وإخفاقها. لكن إذا نظر المرء للأمور من منظور أوسع فسيدهش لمدى فعالية السياسة الأمريكية

فى الشرق الأوسط مقارنة بمناطق أخرى مثل جنوب شرق آسيا وأمريكا الوسطى أو أفريقيا الجنوبية.

ومنذ انهيار الاتحاد السوفييتى ظهرت سياسة أمريكية جديدة فى الشرق الأوسط لها غايات مختلفة. فهى تهدف أساسا إلى الحيلولة دون ظهور قوة إقليمية بعينها تستطيع الهيمنة على المنطقة والسيطرة عليها ومن ثم التحكم وحدها فى بترول الشرق الأوسط. وكان هذا هو الاهتمام الأساسى للسياسات الأمريكية المتعاقبة تجاه إيران والعراق أو تجاه أى خطر ينتظر ظهوره فى المستقبل فى هذه المنطقة.

والسياسة المعتمدة حتى الآن للحيلولة دون وجود مثل هذه الهيمنة هى تشجيع وتسليح، وعند اللزوم مساندة قيام حلف أمنى إقليمى، أى عربى فى الأساس. وتثير هذه السياسة بالضرورة ذكريات مؤلمة عن محاولات سابقة كان ضررها أكبر من نفعها. لكن الفرصة أمام الحلف المقترح هذه المرة أفضل. فالعدو المفترض لم يعد هو ذلك العدو الخطير المتمثل فى الاتحاد السوفييتى، كما أن نظرة حكام المنطقة إلى العالم وموقعهم فيه أكثر تواضعا. لكن مثل هذا الحلف، الذى يقوم على أنظمة غير مستقرة تحكم مجتمعات متقلبة، سيكون بالضرورة هشا وبالتالى فإن قوته ككل لن تزيد على مقدار قوة أضعف حلقاته. ويوضح التاريخ الحديث للعراق أوجه الخطأ المختلفة التى يمكن أن تقع فيها مثل هذه السياسة. فقد أدى احتضاننا للملكية إلى سقوطها، وبتأييدنا لصدام حسين كنا نربى وحشا. وقد يكون من السهل تكرار هذه الأخطاء القاتلة، بما يمثله ذلك من خطر على المصالح الغربية فى المنطقة ومن نتائج وخيمة بالنسبة للشعوب التى تعيش فيها.

فى هذا السياق تصبح رغبة بعض الحكومات العربية فى التفاوض حول السلام مع إسرائيل، وحرص أمريكا على دفع عملية السلام إلى الأمام أمرا مفهوما. وقد بدأ كثير من العرب يدركون أن إسرائيل ليست هى أكثر مشاكلهم خطورة، كما أنها ليست بأكبر خطر يهددهم، حتى إذا أخذوا فى اعتبارهم أقصى تقدير لقوتها وأسوأ تقدير لنواياها. فإسرائيل التى تحارب جيرانها باستمرار سوف تظل مصدر خطر دائم، وسببا للاضطراب الذى يمكن أن يستغله صدام حسين آخر، أو حتى هو نفسه. لكن

إسرائيل التى يسود السلم بينها وبين جيرانها يمكن أن توفر للمنطقة عنصر استقرار ديموقراطى على الأقل.

وهناك، بوجه عام، نوعان مختلفان من التحالفات. أحدهما إستراتيجى، ويمكن أن يكون ترتيبا مؤقتا فحسب يقوم على أساس تصور وجود تهديدات مشتركة. ويمكن التوصل لمثل هذا الترتيب مع أى نوع من الحكام بصرف النظر عن نوع حكومته أو نوع المجتمع الذى يحكمه. ويمكن للطرف الآخر فى مثل هذا التحالف أن يغير رأيه فى أى وقت، بل وربما غيره له آخرون إذا ما أسقط أو استبدل. ويمكن لذلك إنهاء مثل هذا التحالف بتغير نظام الحكم أو بتغير الزعيم أو حتى بتغير النظرة للأمور. وتوضح الأحداث التى وقعت فى ليبيا والعراق وإيران والسودان هذه الصورة تماما حيث أدت التغيرات السياسية فيها إلى تغيير شامل فى السياسات، بل وفى مصر كذلك، وإن يكن على نحو آخر، حيث استطاع الحكام، حتى دون تغيير فى نظام الحكم، التحول من الغرب إلى السوفييت ثم العودة مرة أخرى إلى صفوف الغرب.

وتوجد مثل هذه المرونة أيضا على الجانب الأمريكى. فكما أن هؤلاء الحلفاء يستطيعون التخلى فى أى وقت عن الولايات المتحدة فإنها تشعر كذلك بأنها تستطيع التخلى أيضا عنهم إذا أصبح هذا التحالف يثير صعوبات زائدة أو يشكل أعباء لا توازى نفعها، كما كان الحال مثلا فى فيتنام الجنوبية وكردستان ولبنان. ويمكن عند التخلى عن حليف لا يوجد معه أكثر من ترتيبات إستراتيجية المضى فى ذلك دون ندم ودون التعرض لانتقاد جدى فى الداخل.

والنوع الآخر من التحالفات هو الذى يعتمد على توافق حقيقى من حيث المؤسسات والتطلعات وأساليب الحياة ، وهو أقل عرضة بكثير للتغيير. وكان السوفييت فى أوج سطوتهم يدركون ذلك جيداً وحاولوا إقامة ديكتاتوريات شيوعية أينما ذهبوا. أما الديموقراطيات فهى أكثر صعوبة فى إنشائها ، وهى كذلك أكثر صعوبة فى القضاء عليها .

الفصل السادس

المعايير المزدوجة

تبلور لدى أهل الشرق الأوسط فى العقود الأخيرة إحساس حاد بالشكوى وبالظلم تجاه السياسة الأمريكية : ولا يرجع ذلك فقط إلى تواطؤ أمريكا مع الإمبريالية أو مع الصهيونية ولكنه يرجع إلى سبب أكثر اتصالا بهم ومساسه المباشر بحياتهم وهو التواطؤ الأمريكى مع حكامهم المستبدين الفاسدين. ومن البديهى أن هذا السبب من أسباب الشكوى لا يظهر كثيرا فى الخطاب العام وليس من المرجح أن يدور الحديث عنه بين الدبلوماسيين والمسئولين فى وزارات الخارجية. وقد اكتسبت حكومات الشرق الأوسط، كتلك التى توجد فى العراق وسوريا والسلطة الفلسطينية مهارة كبيرة فى السيطرة على وسائل إعلامها والتأثير على وسائل إعلام البلدان الغربية. كما أن هذه الأمور لا تثار بطبيعة الحال خلال المفاوضات الدبلوماسية. لكنها تثار بمزيد من الغضب والإلحاح فى المحادثات الخاصة التى تدور بين أشخاص يمكن الثقة بهم، كما أصبحت تثار مؤخرا علنا ولم تعد تقتصر على الإسلاميين الراديكاليين وحدهم الذين تعتبر تلك هى المسألة الرئيسية بالنسبة إليهم. ومما يثير الاهتمام أن الثورة الإيرانية فى سنة ١٩٧٩ جاءت فى الوقت الذى كان يجرى فيه التعبير عن هذا الاستياء صراحة. فقد اتهم الشاه بمساندة أمريكا، لكن أمريكا هى الأخرى تعرضت للهجوم بسبب فرضها ما ارتأى فيه الثوار حاكما فاسدا مستبدا وعميلا لها. واكتشف الإيرانيون فى السنوات اللاحقة أن المستبدين الأتقياء يمكن أن يكونوا كالمستبدين غير الأتقياء أو أسوأ منهم وأنه لا يمكن إلقاء اللوم فى هذا النوع من الاستبداد على الرعاية أو النماذج الأجنبية.

وقد يكون هناك شىء من الصحة فى أحد الاتهامات التى توجه كثيرا إلى الولايات المتحدة وإلى الغرب بوجه عام. فأهل الشرق الأوسط يشكون كثيرا من أن الغرب يطبق فى حكمه عليهم معايير أدنى مما يأخذ به بالنسبة للأوروبيين والأمريكيين سواء من حيث ما ينتظره منهم أو ما يمكن أن ينتظروه هم من حيث الرخاء الاقتصادى والحرية السياسية. فهم يؤكدون أن المتحدثين باسم الغرب كثيرا ما يتغافلون أو يدافعون عن أعمال ويساندون حكاما لا يمكن أن يسمحوا بمثلها فى بلدانهم.

قليلون هم أولئك الذين يعتقدون فى الغرب اليوم أنهم فى مواجهة مع الإسلام. لكن هناك رؤية واسعة الانتشار مفادها أن هناك فروقا كبيرة بين العالم الغربى المتقدم وبقية العالم وبشكل خاص الشعوب الإسلامية وأن هذه الأخيرة مختلفة إلى حد ما، مع ما ينطوى عليه ذلك من افتراض أنها فى مرتبة أدنى. فأشد الانتهاكات للحقوق المدنية والحريات السياسية، أو حتى لأبسط قواعد الكرامة يجرى إغفالها أو تجاهلها، كما أن الجرائم ضد البشرية، التى يمكن أن تثير فى بلد أوروبى أو أمريكى عاصفة من الغضب الشديد، ينظر إليها باعتبارها شيئا عاديا بل ومقبولا. والنظم التى تمارس مثل هذه الانتهاكات لا يسمح فقط بوجودها بل إنها تنتخب كذلك فى لجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان التى تضم حاليا فى عضويتها المملكة العربية السعودية وسوريا والسودان وليبيا.

ومؤدى ذلك كله أن هذه الشعوب غير قادرة على إقامة مجتمع ديمقراطى كما أنها غير معنية بأبسط أصول التعامل الإنسانى أو قادرة على الأخذ بها. وهى ستحكم على أى حال بحكام مستبدين فاسدين. وليس من شأن الغرب إصلاحهم، أو حتى تغييرهم، بل مجرد ضمان أن يكون هؤلاء المستبدون أصدقاء غير معادين للمصالح الغربية. من هذه الزاوية فإن من الخطر التلاعب بالنظام القائم، كما أن أولئك الذين يسعون إلى حياة أفضل لهم ولأبناء وطنهم يتعرضون للاحتقار بل ولعرقلة مساعيهم. واستبدال مستبد مشاغب بمستبد يمكن التفاهم معه أمر أسهل وأقل كلفة وأكثر أمانا بدلا من مواجهة المخاطر التى يصعب التنبؤ بها فى حالة تغيير نظام الحكم، لاسيما إذا كان هذا التغيير نابعا من إرادة الشعب التى يعبر عنها من خلال انتخابات حرة.

ويبدو أن مبدأ "الشيطان الذى تعرفه" هو الذى تقوم عليه السياسات الخارجية لكثير من الحكومات الغربية تجاه شعوب العالم الإسلامى. ويطرح هذا الموقف أحيانا، بل إنه يقبل، على أنه تعبير عن التعاطف والمساندة للعرب وقضاياهم، ويبدو أن الأساس فى ذلك هو الاعتقاد بأننا، بإعفاء الحكام والزعماء العرب من الالتزام بالقواعد الطبيعية للسلوك المتحضر، إنما نقدم هدية إلى الشعوب العربية. لكن مثل هذا الإعفاء ليس فيه شىء من ذلك، وهو لا يزيد فى أحسن الأحوال عن أن يكون سعيا إلى تحالف مؤقت يقوم على مصلحة ذاتية لطرفيه وحدهما ويوجه ضد عدو مشترك ويعتمد استمراره أحيانا على تحيز مشترك بينهما. وبنظرة واقعية أكثر عمقا فإن ذلك يعد تعبيرا عن عدم الاحترام وعدم الاهتمام معا : عدم الاحترام لماضى العرب وعدم الاهتمام بحاضرهم ومستقبلهم.

ويحظى هذا النهج ببعض التأييد فى الأوساط الدبلوماسية والأكاديمية فى الولايات المتحدة وبتأييد أوسع فى أوروبا. فالحكام العرب يستطيعون بذلك ذبح عشرات الألوف من أبناء شعوبهم، كما حدث فى سوريا وفى الجزائر، أو مئات الألوف، كما حدث فى العراق والسودان، وحرمان الرجال من معظم حقوقهم المدنية وحرمان النساء منها جميعا، وتلقين الأطفال فى مدارسهم التعصب وكراهية الآخرين دون أن يثير ذلك احتجاجا يذكر من جانب وسائل الإعلام والمؤسسات الليبرالية فى الغرب، بل وبدون مجرد الإشارة إلى أية عقوبات مثل مقاطعتهم أو الكشف عنهم أو اتهامهم بالخيانة فى بروكسل. وقد أضر هذا الموقف "الدبلوماسى" تجاه الحكومات العربية، إذا جاز هذا التعبير، بالشعوب العربية ضررا بالغا، وهو أمر أصبحت هذه الشعوب تدركه تماما وتتألم له.

ويتلخص الموقف الأساسى للحكومات الأوروبية والأمريكية فى رأى الكثيرين من أبناء الشرق الأوسط فى الآتى : "نحن لا يعنينا ما تفعلون بشعوبكم فى الداخل طالما أنكم تتعاونون معنا فى تلبية احتياجاتنا وفى حماية مصالحنا".

وقد خانت الحكومات الأمريكية أحيانا، حتى وإن تعلق الأمر بالمصالح الأمريكية، أولئك الذين كانت قد وعدتهم بالمساندة وأقنعتهم بتحمل المخاطر من أجلها. والمثل

الواضح على ذلك حدث فى سنة ١٩٩١ حين دعت الولايات المتحدة الشعب العراقى إلى التمرد على صدام حسين، فقام الأكراد فى شمال العراق والشيعة فى جنوبه بالتمرد عليه وجلست القوات الأمريكية المنتصرة تنظر لمجريات الأمور بينما أخذ صدام حسين فى القضاء بطريقة دموية على المتمردين وذبحهم جماعة بعد أخرى وإقليما بعد آخر مستخدما فى ذلك طائرات الهليكوبتر التى سمح له اتفاق وقف إطلاق النار بالاحتفاظ بها.

وليس من الصعب تبين السبب فى هذا التصرف أو بالأحرى عدم التصرف. لا شك فى أن قوات الائتلاف المنتصرة حينئذ فى حرب الخليج كانت تريد تغيير حكومة العراق ولكنها كانت تأمل أن يتم ذلك من خلال انقلاب وليس من خلال ثورة. فهى ترى أن ثورة شعبية حقيقية أمر خطير وقد تؤدى إلى اضطراب بل وربما إلى الفوضى فى المنطقة. وربما أدت كذلك إلى قيام دولة ديموقراطية، وهو أمر ينذر بالخطر بالنسبة "لحلفاء" أمريكا فى المنطقة. أما الانقلاب فمن الأيسر التنبؤ بما سيفعله ويمكن أن يحقق النتيجة المطلوبة : استبدال صدام حسين بديكتاتور آخر أكثر تعاونا يستطيع أن يحتل مكانه بين هؤلاء الحلفاء فى الائتلاف. وقد أخفقت هذه السياسة تماما وفسرت فى المنطقة بأنها خداع أو ضعف، وجنون أو نفاق.

مثال آخر على هذه المعايير المزدوجة هو الذى وقع فى مدينة حماة السورية فى سنة ١٩٨٢ . فقد بدأت الاضطرابات فى هذه المدينة بتمرد تزعمه الإخوان المسلمون المتشددون. وقد ردت الحكومة السورية على ذلك بحدة وقوة. لم تستعمل الحكومة مدافع المياه والرصاص المطاطى، كما أنها لم ترسل جنودها لمواجهة القناصة والشراك المفخخة عند تفتيشهم المساكن للإمساك بأعدائهم والتعرف عليهم بين السكان المحليين المدنيين، لكنها اتبعت أسلوبا أبسط وأكثر أمانا وحسما. فقد هاجمت المدينة بالدبابات والمدفعية وقاذفات القنابل وجاءت على أثرها البلدوزرات لاستكمال عملية التدمير. وخلال فترة قصيرة من الزمن حولت الحكومة جانبا كبيرا من المدينة إلى أنقاض، وقدرت منظمة العفو الدولية عدد الذين قتلوا حينئذ بما يتراوح بين عشرة آلاف وخمسة وعشرين ألفا.

ولم تستحوذ هذه العملية، التي أمر بها وأشرف عليها الرئيس السوري حافظ الأسد، إلا على اهتمام محدود في ذلك الوقت. ويتناقض رد الفعل الهزيل الذي أحدثته هذه العملية مع ذلك الذي أثارته مذبحة أخرى، وقعت بعد أشهر قليلة في نفس العام، في معسكرات اللاجئين الفلسطينيين في صابرا وشاتيلا في لبنان. فقد ذبح حينئذ سبعمائة أو ثمانمائة فلسطيني بواسطة ميليشيا مسيحية لبنانية متحالفة مع إسرائيل. وقد أدى ذلك إلى إدانة قوية وواسعة النطاق لإسرائيل واستمرت تداعياتها حتى اليوم. لكن مذبحة حماة لم تمنع الولايات المتحدة من أن تخطب ود حافظ الأسد بعد ذلك، الذي زاره مرارا العديد من وزراء الخارجية الأمريكيين : جيمس بيكر (١١ مرة بين سبتمبر ١٩٩٠ ويوليو ١٩٩٢)، ووارين كريستوفر (١٥ مرة بين فبراير ١٩٩٢ وفبراير ١٩٩٦) ومادلين أولبرايت (٤ مرات بين سبتمبر ١٩٩٧ ويناير ٢٠٠٠)، بل وكذلك الرئيس كلينتون (زيارة واحدة إلى سوريا واجتماعين في سويسرا بين يناير ١٩٩٤ ومارس ٢٠٠٠). ومن غير المرجح على الإطلاق أن الأمريكيين كانوا سيحرصون على استرضاء حاكم ارتكب مثل هذه الجرائم على أرض غربية ضد ضحايا غربيين. ورغم أن حافظ الأسد لم يصبح حليفا لأمريكا في أي وقت، أو بتعبير البعض عميلا لها، إلا أن من المؤكد أن ذلك لا يرجع إلى عدم محاولة الدبلوماسية الأمريكية تحقيق ذلك.

كان الأصوليون يدركون وجود فارق آخر يمثل حالة محزنة أخرى من حالات ازدواج المعايير. ذلك أن أولئك الذين لم يثر ذبحهم في حماة إلا مثل هذا الاهتمام المحدود في الغرب كانوا من الإخوان المسلمين ومن أسرهم وجيرانهم. وقد بدا الأمر وكأن حقوق الإنسان، في نظر الغربيين، لا تنطبق على الضحايا المسلمين الأتقياء، كما أن الضوابط التي تفرضها الديموقراطية لا تنطبق على قتلتهم "العلمانيين".

وقد ظهرت عدم ثقة الغرب بالحركات السياسية الإسلامية، واستعداده للسماح بل لمساندة الحكام الديكتاتوريين الذين ظلوا يبعدون مثل هذه الحركات عن الحكم في شكل مأساوي بالغ في حالة الجزائر، حيث كان قد تم اعتماد دستور ديموقراطي جديد في استفتاء عام في فبراير ١٩٨٩ وإقامة نظام متعدد الأحزاب رسميا في يوليو من نفس العام. وفي ديسمبر ١٩٩١ حققت الجبهة الإسلامية للإنقاذ نتائج ممتازة في الجولة الأولى من الانتخابات لعضوية الجمعية الوطنية وكان من المرجح أن تحصل على

أغلبية كبيرة في الجولة الثانية. وكانت الجبهة قد انتقدت بالفعل العسكريين الجزائريين واتهمتهم بأنهم أكثر ميلا إلى قمع شعبهم عنهم إلى مساعدة الشقيق عند الحاجة. وكان الشقيق المقصود هو صدام حسين الذى أثار غزوه للكويت وتحديه للغرب حماسا كبيرا بين المسلمين الأصوليين فى شمال أفريقيا، وأقنع زعماءهم بتحويل ولاءهم من رعاتهم السعوديين إلى بطلهم العراقي الجديد. وفي يناير ١٩٩٢، وبعد فترة قصيرة من التوتر المتصاعد، ألغى العسكريون الجولة الثانية من الانتخابات. وفى الأشهر التالية حلوا الجبهة الإسلامية للإنقاذ وأنشأوا نظاما "علمانيا"، كان فى حقيقته ديكتاتورية بشعة، حظى بإيماءات الموافقة من جانب باريس وواشنطن وعواصم غربية أخرى. أعقب ذلك صراع مرير ودموى واتهامات متبادلة بارتكاب المذابح – من جانب الأصوليين للجيش وغيره من الهيئات شبه الرسمية التابعة للحكومة ومن جانب العلمانيين ودعاة الحداثة، وغيرهم ممن لا شأن لهم، للأصوليين. وفى سنة ١٩٩٧ قدرت منظمة العفو الدولية عدد الضحايا منذ بداية الصراع بثمانين ألفا أغلبهم من المدنيين.

وقد حمّل تنظيم القاعدة الولايات المتحدة صراحة مسئولية استيلاء العسكريين على الحكم فى الجزائر. وقد وجه اللوم فى هذه الحالة وفى غيرها، بطبيعة الحال، إلى أمريكا باعتبارها القوة المسيطرة فى عالم الكفار، عن كل الأخطاء التى حدثت، وبوجه خاص عن القمع الحركات الإسلامية وذبح أتباعها وإنشاء ما اعتبر أنظمة ديكتاتورية معادية للإسلاميين بدعم من الغرب، وبوجه خاص من أمريكا. وقد وجه كثيرون كذلك اللوم إلى أمريكا فى هذه الحالة لعدم احتجاجها على انتهاك الحريات الديموقراطية على هذا النحو، ووجه البعض إليها اللوم لتشجيعها ومساندتها للنظام العسكرى. وهناك مشكلات مشابهة فى مصر وفى باكستان وفى غيرها من البلاد الإسلامية التى يبدو من المرجح أن تؤدى الانتخابات الحرة والمنصفة فيها إلى انتصار الإسلاميين.

والديموقراطيون هنا فى موقف ضعيف بطبيعة الحال. فأيديولوجيتهم تفرض عليهم، حتى إذا كانوا يتولون الحكم، إعطاء الإسلاميين المعارضين حرياتهم وحقوقهم. بينما لا يخضع الإسلاميون، عندما يتولون الحكم، لمثل هذا الالتزام. بل على العكس، فمبادئهم تقتضيهم أن يقضوا على ما يعتبر فى نظرهم إفسادا أو نشاطا تخريبيا.

والديموقراطية، التى تعبر عن إرادة الشعب، هى بالنسبة للإسلاميين الطريق إلى السلطة، لكنه طريق ذو اتجاه واحد لا رجوع فيه، ولا رفض لسيادة الله، التى يمارسها عن طريق ممثليه الذين اختارهم. وتتلخص سياستهم فيما يتعلق بالانتخابات عادة فى العبارة التالية : "رجل واحد (للرجال فقط)، صوت واحد، مرة واحدة فقط".

ومن الواضح أن الانتخابات الحرة والمنصفة فى العالم الإسلامى، كما كان الحال فى أوروبا، هى ذروة التطور الديموقراطى وليست بداية له. لكن ذلك لا يبرر تدليل الحكام الديكتاتوريين.

الفصل السابع

فشل الحداثة

يعانى العالم الإسلامى كله تقريبا من الفقر والاستبداد. وتعزى كل من هاتين المشكلتين، لاسيما عند أولئك الذين لهم مصلحة فى إبعاد الشبهات عن أنفسهم، إلى أمريكا : الأولى بسبب السيطرة والاستغلال الاقتصاديين من جانب أمريكا، وهما اللذان تغلفهما اليوم غلالة رقيقة يطلق عليها "العولمة"، والثانية بسبب مساندة أمريكا لمن يسمون بالحكام المسلمين المستبدين الكثيرين الذين يخدمون أغراضها. وقد أصبحت العولمة موضوعا أساسيا فى وسائل الإعلام العربية ويثار دائما من حيث علاقته بالتغلغل الاقتصادى الأمريكى. ويزيد من هذا الإحباط الوضع الاقتصادى الذى يزداد تدهورا فى معظم أنحاء العالم الإسلامى، ليس فقط عند مقارنته بالغرب بل كذلك عند مقارنته بالاقتصاد سريع النمو فى بلدان شرق آسيا. ويرى أهل الشرق الأوسط أن بروز وضع أمريكا فى هذا الشأن، إنما يدل على من ينبغى أن يوجه إليه اللوم وما يترتب على اللوم من عداء.

إن انخفاض الإنتاجية واقترانها بتزايد معدلات المواليد فى الشرق الأوسط يشكل خليطا يصعب تحمله نظرا لما يحدثه من زيادة فى أعداد العاطلين وغير المتعلمين والمحبطين من الشباب. وتدل جميع المؤشرات الصادرة عن الأمم المتحدة والبنك الدولى وغيرها من الهيئات على أن البلاد العربية متخلفة بدرجة كبيرة عن الغرب فيما يتعلق بخلق الوظائف والتعليم والتكنولوجيا والإنتاجية. بل إن الأسوأ من ذلك هو أن البلاد العربية متخلفة كذلك عن دول أخذت بأسلوب التحديث الغربى بعدها مثل كوريا وتايوان وسنغافورة.

والأرقام المقارنة حول أداء البلدان الإسلامية التى تتضمنها تلك الإحصائيات محزنة للغاية. ففى قائمة تصنيف الاقتصادات بحسب ناتجها المحلى الإجمالى تأتى أولى الدول ذات الأغلبية الإسلامية وهى تركيا، التى يبلغ عدد سكانها ٦٤ مليون نسمة، فى المرتبة الثالثة والعشرين بين النمسا والدنمارك التى يبلغ عدد سكان كل منها خمسة ملايين نسمة فقط، ويعد النرويج التى يبلغ عدد سكانها ٤٫٥ مليون نسمة، ويليها المملكة العربية السعودية التى يقطنها ٢١ مليون نسمة. ومن حيث القوة الشرائية المقارنة فإن أولى الدول الإسلامية هى إندونيسيا وتأتى فى المرتبة الخامسة عشرة يليها تركيا فى المرتبة التاسعة عشرة. وتأتى السعودية فى مقدمة الدول العربية فى المرتبة التاسعة والعشرين، يليها مصر. ومن حيث مستوى المعيشة، حسبما يدل عليه متوسط نصيب الفرد من الناتج المحلى الإجمالى، فإن الدولة الإسلامية الأولى هى قطر وتأتى فى المرتبة الثالثة والعشرين تليها دولة الإمارات العربية المتحدة فى المرتبة الخامسة والعشرين ثم الكويت فى المرتبة الثامنة والعشرين.

أما من حيث الناتج الصناعى فتأتى السعودية فى مقدمة البلدان الإسلامية وتحتل المرتبة الحادية والعشرين يليها إندونيسيا فى المرتبة الثانية والعشرين وتشترك معها فى هذه المرتبة كل من النمسا وبلجيكا، ثم تأتى تركيا فى المرتبة السابعة والعشرين وهى نفس مرتبة النرويج. وفى قائمة ناتج التصنيع فإن أعلى الدول العربية مرتبة هى مصر وتأتى فى المرتبة الخامسة والثلاثين التى تشاركها فيها النرويج. وفى قائمة العمر المرتقب عند الولادة فإن الدولة العربية الأولى هى الكويت وتأتى فى المرتبة الثانية والثلاثين بعد الدنمارك ويليها كوبا. ومن حيث امتلاك خطوط الهاتف فإن أول الدول الإسلامية الواردة فى القائمة هى دولة الإمارات العربية المتحدة وتأتى فى المرتبة الثالثة والثلاثين بعد ماكاو ويليها جزيرة ريونيون. ومن حيث امتلاك كل مائة نسمة لجهاز كمبيوتر فإن أول الدول الإسلامية فى القائمة هى البحرين، وتأتى فى المرتبة الثلاثين، يليها قطر فى المرتبة الثانية والثلاثين ودولة الإمارات العربية المتحدة فى المرتبة الرابعة والثلاثين.

وتعطى مبيعات الكتب صورة أكثر قتامة. ذلك أن قائمة بأسماء سبعة وعشرين دولة، بدءا بالولايات المتحدة وانتهاء بفيتنام، لم تتضمن دولة إسلامية واحدة. وفى

جدول للتنمية البشرية تأتى بروناى فى المرتبة الثانية والثلاثين، والكويت السادسة والثلاثين، والبحرين الأربعين، وقطر الحادية والأربعين ودولة الإمارات العربية المتحدة الرابعة والأربعين وليبيا السادسة والستين وكازاخستان السابعة والستين والسعودية الثامنة والستين بالاشتراك مع البرازيل.

كذلك يكشف التقرير العربى للتنمية الإنسانية لعام ٢٠٠٢، الذى أعدته لجنة من المفكرين العرب وصدر بإشراف الأمم المتحدة، عن بعض التناقضات الصارخة. "فالعالم العربى يترجم حوالى ٣٣٠ كتابا سنويا، وهو خمس ما تترجمه اليونان. ومجموع الكتب المترجمة منذ عهد الخليفة المأمون [القرن التاسع الميلادى] يبلغ حوالى مائة ألف كتاب، وهو رقم مماثل لمتوسط ما تترجمه إسبانيا فى عام واحد". والوضع الاقتصادى ليس بأحسن حالا. "فالناتج المحلى الإجمالى للدول العربية فى مجموعها وصل إلى ٢ر٥٣١ مليار دولار أمريكى فى سنة ١٩٩٩، أى أقل منه فى دولة أوروبية واحدة هى إسبانيا (٥ر٥٩٥ مليار)". وهناك وجه آخر من أوجه التخلف هو الذى يصوره الجدول التالى عن "الباحثين العلميين، والمقالات والأبحاث العلمية التى يكثر الإشارة إليها منسوبة إلى عدد سكان كل بلد (بالمليون) فى سنة ١٩٨٧"(*) .

(*) "التقرير العربى للتنمية الإنسانية لسنة ٢٠٠٢ : خلق الفرص للأجيال المقبلة"، تحت إشراف البرنامج الإنمائى للأمم المتحدة/ المكتب الإقليمى للدول العربية والصندوق العربى للتنمية الاقتصادية والاجتماعية.

البلد	الباحثون العلميون	المقالات التى أشير إليها ٤٠ مرة أو أكثر	الأبحاث التى يكثر الإشارة إليها منسوبة إلى عدد السكان (بالمليون)
الولايات المتحدة	٤٦٦٢١١	١٠٤٨١	٤٢,٩٩
الهند	٢٩٥٠٩	٣١	٠,٠٤
استراليا	٢٤٩٦٣	٢٨٠	١٧,٢٣
سويسرا	١٧٠٢٨	٥٢٣	٧٩,٩٠
الصين	١٥٥٥٨	٣١	٠,٠٣
إسرائيل	١١٦١٧	١٦٩	٣٦,٦٣
مصر	٣٧٨٢	١	٠,٠٢
جمهورية كوريا	٢٢٥٥	٥	٠,١٢
السعودية	١٩١٥	١	٠,٠٧
الكويت	٨٨٤	١	٠,٥٣
الجزائر	٣٦٢	١	٠,٠١

وليس هذا بغريب إذا ما ذكرنا الأرقام المقارنة للأمية.

وفى ترتيب لمائة وخمس وخمسين دولة من حيث الحرية الاقتصادية فى عام ٢٠٠١ تأتى دول الخليج العربية فى مرتبة متقدمة حيث تأتى البحرين فى المرتبة التاسعة والإمارات فى المرتبة الرابعة عشرة والكويت فى المرتبة الثانية والأربعين. إلا أن الأداء الاقتصادى العام للعالم العربى، وعلى نطاق أوسع للعالم الإسلامى، لا زال ضعيفا. فوفقا لما ذكره البنك الدولى فإن المتوسط السنوى للدخل فى البلدان الإسلامية من المغرب إلى بنجلاديش يصل إلى نصف المتوسط العالمى، كما أن الإنتاج المحلى الإجمالى للأردن وسوريا ولبنان معا فى سنة ١٩٩٠ - أى لثلاثة من الجيران العرب

لإسرائيل - كان أقل بكثير من الناتج المحلى الإجمالى لإسرائيل وحدها. والأرقام الخاصة بمتوسط نصيب الفرد أسوأ من ذلك. فوفقا لإحصاءات الأمم المتحدة فإن متوسط نصيب الفرد من الناتج المحلى الإجمالى فى إسرائيل يزيد ثلاث مرات ونصف عن مثيله فى لبنان وسوريا، واثنتى عشرة مرة عنه فى الأردن وثلاثة عشرة مرة ونصف عنه فى مصر .

وهذا التناقض بين العالم الإسلامى والغرب، والآن بينه وبين الشرق الأقصى، يثير الذهول. ربما كان من شأن هذا التباين أن يمر فى العصور السابقة دون أن تلاحظه الغالبية العظمى من السكان. لكن وسائل الإعلام والاتصال الحديثة جعلت أشد الناس فقرا وجهلا يدركون فى ألم شديد الاختلاف بينهم وبين غيرهم على المستوى الشخصى والعائلى والمحلى والمجتمعى على حد سواء.

ولم يكن التحديث فى السياسة بأفضل حالا، بل ربما كان أسوأ منه فى أساليب الحرب وفى الاقتصاد. فقد جربت كثير من البلدان الإسلامية نوعا أو آخر من المؤسسات الديموقراطية التى أدخلها، فى بعض هذه البلدان، إصلاحيون مجددون من أهل البلاد، كما هو الحال فى تركيا وإيران، وأنشأها، فى بعضها الآخر، الإمبرياليون المغادرون ثم خلّفوها وراءهم ، كما هو الحال فى عدد من البلدان العربية. وباستثناء تركيا فإن السجل حافل بالفشل. فقد أسفرت الأحزاب والبرلمانات التى أنشئت على النمط الغربى فى معظم الأحوال عن قيام نظم استبدادية فاسدة حافظت على بقائها عن طريق القمع وعمليات غسيل المخ. والنموذج الأوروبى الوحيد الذى نجح عمليا فى تحقيق أغراضه، هو ديكتاتورية الحزب الواحد. فقد انطوى حزب البعث، الذى حكمت فروعه المختلفة العراق وسوريا عدة عقود، على أسوأ خصائص النموذجين النازى والسوفييتى. ولم يتمكن زعيم عربى، منذ وفاة الرئيس المصرى عبد الناصر فى سنة ١٩٧٠، من كسب التأييد على نطاق واسع خارج بلده. كما أنه ما من زعيم عربى كان مستعدا لأن يطرح مطلبه فى الحكم للتصويت الحر. والواقع أن أكثر الزعماء الذين كانوا أن يحصلوا على تأييد عربى عام هما الليبى معمر القذافى فى السبعينيات، ثم صدام حسين مؤخرا. وحصول هذين الزعيمين، من بين جميع الحكام العرب، على مثل هذه الشعبية الواسعة هو فى حد ذاته أمر مروع وله دلالته.

فى ضوء ذلك فإنه مما لا يثير الدهشة أن يتحدث كثير من المسلمين عن إخفاق التحديث وأن يقابلوا الاختلاف فى تشخيص أمراض مجتمعاتهم بوصفات متباينة لعلاجها.

والإجابة بالنسبة للبعض هى المزيد من التحديث والقيام به على نحو أفضل بحيث يتوافق الشرق الأوسط مع العالم الحديث والعالم الآخذ فى التحديث. وبالنسبة للبعض الآخر فإن الحداثة نفسها هى المشكلة ومصدر كل بلاء.

وتدرك شعوب الشرق الأوسط إدراكا متزايدا عمق الفجوة المتزايدة الاتساع بين الفرص المتاحة في العالم الحر خارج حدودها وبين الحرمان المروع والقمع الذى يمارس فى داخلها. والغضب الناجم عن ذلك ينصب أولا - وبطبيعة الحال - على حكامهم ثم بعد ذلك على أولئك الذين يُبقون، فى نظرهم، على هؤلاء الحكام فى السلطة لأسباب أنانية بحتة. ومما له دلالته بكل تأكيد أن جميع الإرهابيين الذين تم التعرف عليهم فى هجمات ١١ سبتمبر على نيويورك وواشنطن ينتمون إلى المملكة العربية السعودية ومصر، أى إلى بلدين ينظر إلى حكامهما على أنهم أصدقاء للولايات المتحدة.

ومن الأسباب التى ساقها أحد النشطين فى تنظيم القاعدة لهذا الأمر الغريب أن الإرهابيين الذين ينتمون لبلدان صديقة لا يواجهون مصاعب كبيرة فى الحصول على تأشيرة الدخول إلى الولايات المتحدة. وهناك سبب أكثر موضوعية لذلك هو أن العداء للولايات المتحدة أشد رسوخا فى البلدان التى تعتبر هى مسئولة عن الإبقاء على نظمها الاستبدادية. وهناك حالة خاصة، يجرى الآن فحصها فحصا متعمقا، هى حالة المملكة العربية السعودية، حيث توجد عناصر مهمة فى نظام الحكم نفسه يبدو أنها تشارك أحيانا فى هذا العداء وتشجعه.

الفصل الثامن

اقتران الحكم السعودى بالتعاليم الوهابية

يتخذ رفض الحداثة من أجل الرجوع إلى الماضى المقدس مظاهر متباينة في المنطقة وأثرت تداعياته على تاريخها وأدى إلى قيام حركات عديدة فيها. وكانت أهم هذه الحركات بغير شك تلك التى عرفت باسم مؤسسها وهى الوهابية. كان محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ - ١٧٩٢) من علماء الدين فى منطقة نجد ببلاد العرب التى كان يحكمها الشيوخ المحليون من آل سعود. وفى سنة ١٧٤٤ شن ابن عبد الوهاب حملة تطهير وتجديد. وكان هدفه المعلن هو الرجوع إلى صحيح الدين الحنيف كما جاء به مؤسسه وذلك بإزالة كل ما لحق به من بعد من إضافات أو تشويه ليس منه، والقضاء عليها إذا لزم الأمر.

وتبنى حكام نجد السعوديون الآراء الوهابية ونجحوا لفترة من الزمن فى نشرها بقوة السلاح. وقد قاموا بسلسلة من الحملات امتد بها حكمهم وعقيدتهم إلى جزء كبير من أواسط بلاد العرب وشرقها، بل إنهم أغاروا كذلك على أراضى الهلال الخصيب التى كان العثمانيون يحكمونها حكما مباشرا. وبعد الاستيلاء على كربلاء، المدينة الشيعية المقدسة فى العراق، وجهوا عنايتهم إلى الحجاز واحتلوها فيما بين ١٨٠٤-١٨٠٦ وقاموا - حسب تعبيرهم - بتطهير الأماكن المقدسة فى مكة والمدينة. وبذلك أصبحوا فى مواجهة وتحد صريحين مع السلطان العثمانى، الذى أدانه الحاكم السعودى لابتعاده عن العقيدة الإسلامية واغتصابه للدولة الإسلامية.

وكان بإمكان الإمبراطورية العثمانية، حتى فى هذه المرحلة من تدهورها، أن تسيطر على مثل هذا التمرد الصحراوى. وقد تحقق لها ذلك، بمساعدة والى مصر

وقواته، فى سنة ١٨١٨ عندما احتلت عاصمة السعوديين وأرسل الأمير السعودى إلى إسطنبول حيث ضرب عنقه. واختفت الدولة السعودية عندئذ من الوجود بصفة مؤقتة لكن المذهب الوهابى ظل قائما، واستطاع عضو آخر من بيت آل سعود، بدءا من عام ١٨٢٣، أن يعيد تشكيل الإمارة السعودية واتخذ من الرياض عاصمة لها. واستطاع بذلك رؤساء بيت آل سعود، مرة أخرى، مساعدة أنصار المذهب الوهابى والاستفادة بمساعدتهم لهم.

جاء بزوغ نجم المذهب الوهابى فى بلاد العرب فى القرن الثامن عشر، بدرجة كبيرة، كرد فعل لتغير الظروف فى ذلك الوقت. ومن بين هذه الظروف، بطبيعة الحال، تراجع العالم الإسلامى وتقدم العالم المسيحى فى المقابل. وكان ذلك جاريا منذ وقت طويل لكنه كان عملية بطيئة وتدريجية بدأت فى الأطراف النائية من العالم الإسلامى. وبحلول القرن الثامن عشر أصبح ذلك واضحا حتى فى مركز الدولة. فقد كان التراجع العثمانى البطيء وطويل الأمد من البلقان وتقدم الإنجليز فى الهند لا يزالان بعيدين عن بلاد العرب لكن تأثيرهما كان ملموسا سواء من خلال العثمانيين من جهة أو فى الخليج الفارسى من جهة أخرى؛ كما أن من المؤكد أن أثره كان ينعكس على الحجيج الذين كانوا يأتون كل عام إلى بلاد العرب من جميع أنحاء العالم الإسلامى. ولم يكن غضب الوهابيين موجها أساسا إلى الغرباء بل إلى أولئك الذين رأوا أنهم خارجون على الإسلام ويحطون من قدره من الداخل : فهناك من جهة أولئك الذين كانوا يحاولون القيام بأى نوع من التحديث الإصلاحى ومن جهة أخرى - وهذا هو الهدف المباشر - أولئك الذين رأى الوهابيون أنهم يفسدون التراث الإسلامى الصحيح للنبى وصحابته ويقللون من شأنه. وبطبيعة الحال فإنهم كانوا يعارضون بشدة أية مدرسة فكرية أخرى غير مدرستهم وأية صيغة أخرى للإسلام سواء جاءت من جانب السنة أو الشيعة. وكانوا يعارضون بوجه خاص الصوفية ويدينون فيها، ليس فقط غيبيتها وتساهلها، بل كذلك ما اعتبروه مظاهر وثنية تقترن بها.

وقد فرض الوهابيون معتقداتهم أينما استطاعوا بكل شدة وضراوة فهدموا المقابر وانتهكوا حرمة ما أسموه بالوثنية الزائفة والأماكن المقدسة، وذبحوا أعدادا كبيرة من الرجال والنساء والأطفال الذين لم يتمكنوا من الامتثال لمعاييرهم فى نقاء العقيدة

الإسلامية وأصالتها. ومن الممارسات الأخرى التي أخذ بها ابن عبد الوهاب إدانته للكتب وحرقها. وكانت تلك تمثل أساسا كتبا دينية إسلامية وكتبا عن الشريعة تتعارض مع المذهب الوهابي. وكثيرا ما اقترن حرق الكتب بقتل الذين ألفوها أو نسخوها أو علّموها دون محاكمة.

بدأ التحالف الثاني بين المذهب الوهابي والقوة السعودية في السنوات الأخيرة للإمبراطورية العثمانية واستمر حتى اليوم. وقد حدث أمران في أوائل القرن العشرين جعلا من المذهب الوهابي قوة كبيرة في العالم الإسلامي وفيما وراءه. وأول هذين الأمرين هو قيام المملكة السعودية وتوسعها. ففي السنوات الأخيرة من عمر الإمبراطورية العثمانية استغل الشيخ عبد العزيز بن سعود (الذي ولد في عام ١٨٨٠ تقريبا وحكم من ١٩٠٢ إلى ١٩٥٣) بمهارة الصراع بين العثمانيين من جهة والقوة البريطانية التي كانت تزداد اتساعا في شرقي بلاد العرب من جهة أخرى. ففي ديسمبر ١٩١٥ وقع اتفاقا مع بريطانيا حصل فيه، مع احتفاظه باستقلاله، على دعم مادي ووعد بالمساعدة إذا تعرض للهجوم. وقد اختتمت هذه المرحلة بانتهاء الحرب العالمية الأولى وتفكك الإمبراطورية العثمانية، الأمر الذي وضعه في مواجهة بريطانيا وحدها. وقد سار في هذه الترتيبات الجديدة سيرا حسنا واستطاع أن يوسع نطاق ملكه الذي ورثه على مراحل متتابعة. وفي سنة ١٩٢١ تغلب نهائيا على غريمه القديم، ابن الرشيد، في شمال نجد وضم أراضيه إلى مملكته واتخذ لنفسه لقب سلطان نجد.

أصبح المسرح مهيئا بذلك لصراع حاسم للسيطرة على الحجاز. كانت هذه البلاد، بما فيها المدينتين المقدستين مكة والمدينة، خاضعة لحكم أعضاء الأسرة الهاشمية، أحفاد النبي، منذ أكثر من ألف عام، وإن كانت السيادة الاسمية فيها خلال القرون القليلة الماضية للعثمانيين. وقد رأى ابن سعود في إنشاء ملكيات هاشمية، برئاسة مختلف فروع الأسرة الهاشمية، في العراق وشرق الأردن كجزء من عملية إعادة تشكيل الولايات العثمانية في أعقاب الحرب العالمية الأولى، تهديدا لملكه. وبعد سنوات تدهورت فيها العلاقات بينهما قدم الشريف حسين، ملك الحجاز، لغريمه حجة مزدوجة أولها إعلانه نفسه خليفة وثانيها رفضه السماح للحجاج الوهابيين أداء فريضة الحج إلى المدينتين المقدستين. ورد ابن سعود على ذلك بغزو الحجاز في سنة ١٩٢٥ .

حقق السعوديون في هذا الغزو نجاحا باهرا. فقد استولت قواتهم أولا على "مكة"، ثم استسلمت "المدينة" بغير حرب في الخامس من ديسمبر ١٩٢٥ بعد حصار دام عشرة أشهر. وبعد ذلك بأسبوعين طلب الشريف علي، الذي كان قد خلف والده حسين، إلى نائب القنصل البريطاني في جدة إبلاغ ابن سعود بأنه سينسحب من الحجاز مصطحبا متعلقاته الشخصية. واعتبر ذلك تنازلا عن العرش ودخلت القوات السعودية في اليوم التالي إلى جدة. وأصبح الطريق بذلك مفتوحا أمام ابن سعود ليعلن نفسه ملكا على الحجاز وسلطانا لنجد وتوابعها، وتم ذلك فعلا في ٨ يناير ١٩٢٦ . واعترفت الدول الأوروبية بالنظام الجديد فورا وكان في مقدمتها الاتحاد السوفييتي، وذلك في مذكرة دبلوماسية بتاريخ ١٦ فبراير موجهة إلى ابن سعود "على أساس مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها واحتراما لإرادة شعب الحجاز التي عبّر عنها باختياره لكم ملكا عليه"(*) وتم في ٢٠ مايو ١٩٢٧ التوقيع على معاهدة رسمية بين ابن سعود وبريطانيا العظمى تعترف فيها بالاستقلال التام للمملكة. وحذت بعض الدول الأوروبية حذوها.

على النقيض من ذلك كان الاعتراف الإسلامي أكثر بطئا وأشد تثاقلا. فقد زارت بعثة إسلامية من الهند جدة وطلبت من الملك أن يسلم السيطرة على المدينتين المقدستين إلى لجنة من ممثلي جميع البلدان الإسلامية. ولم يجب ابن سعود على هذا الطلب وأعاد البعثة إلى الهند بحرا. وفي يونيو من نفس العام عَقَد مؤتمرا إسلاميا جامعا في مكة دعا إليه ملوك ورؤساء الدول الإسلامية المستقلة وممثلين عن المنظمات الإسلامية في البلدان التي تخضع لحكم غير إسلامي. وحضر المؤتمر تسعة وستون شخصا من جميع أنحاء العالم الإسلامي وألقى فيهم ابن سعود كلمة أوضح فيها صراحة أنه أصبح الآن ملكا للحجاز وأنه سيقوم بواجباته في حماية الحرمين الشريفين وحماية الحجيج ولكنه لن يسمح بأي تدخل خارجي في أدائه لهذه المهام.

(*) مشار إليه في "Alexei Vassiliev :"The History of Saudi Arabia، (لندن، ١٩٩٨) ص ٢٦٥ .

وقد أثار ذلك ردود فعل مختلفة من جانب ضيوفه. فقد اعترض البعض وغادروا البلاد، وقبل البعض الآخر بالنظام الجديد واعترفوا به. وكان في مقدمة هؤلاء رئيس وفد مسلمي الاتحاد السوفييتي الذي ذكر في مقابلة مع وكالة الأنباء السوفييتية "تاس" أن المؤتمر الإسلامي قد اعترف بالملك ابن سعود حاميا للأماكن المقدسة وأنه دعا كذلك إلى تحويل بعض أجزاء الأردن إلى مملكة الحجاز الجديدة، وأيد ابن سعود بوجه عام. على أن الاعتراف من جانب البلدان الإسلامية، بل ومن البلدان العربية نفسها، استغرق وقتا أطول. فقد أبرمت معاهدات صداقة مع تركيا وإيران في سنة ١٩٢٩، ومع العراق في سنة ١٩٣٠، ومع الأردن في سنة ١٩٣٣ . ولم تعترف مصر بضم السعوديين للحجاز حتى عقد اتفاق مايو سنة ١٩٣٦ .

مضى ابن سعود في هذه الأثناء في إعادة تنظيم وتشكيل مملكته المترامية الأطراف وأعلنها في سبتمبر ١٩٣٢ دولة موحدة تسمى المملكة العربية السعودية، وعين ابنه الأكبر، سعود، في العام التالي، وليا للعهد.

وقد شهد نفس هذا العام التطور الرئيسي الآخر الذي أثر على المنطقة وذلك بالتوقيع في ١٩ مايو ١٩٣٣ على اتفاق بين وزير المالية السعودي وممثل لشركة "ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا". بذلك اعتمدت السياسة السعودية والمذهب الوهابي على قاعدة اقتصادية صلبة.

يرجع اهتمام الغرب ببترول الشرق الأوسط إلى أوائل القرن العشرين حيث كانت تقوم بإدارة شئونه شركات بريطانية وهولندية وفرنسية أساسا. وبدأ الاهتمام الأمريكي به في أوائل العشرينيات مع تزايد القلق حول نضوب موارد البترول الداخلية وخشية احتكار الأوروبيين لبترول الشرق الأوسط. ودخلت الشركات الأمريكية في البداية إلى سوق بترول الشرق الأوسط كشركاء صغار في تجمعات أوروبية كبيرة. وكانت شركة ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا أول الشركات الأمريكية التي تقوم على نحو جدي بعمليات التنقيب عن البترول. فبعد أن بذلت بعض الجهود غير المثمرة في بلدان الخليج اتجهت الشركة أخيرا إلى السعوديين وطلبت في سنة ١٩٣٠ التصريح لها بالقيام بأعمال الاستكشاف الجيولوجي في المنطقة الشرقية. ورفض الملك ابن سعود

فى البداية هذا الطلب لكنه عاد فوافق على إجراء مفاوضات أسفرت عن اتفاق سنة ١٩٣٣ . ولاشك أن من بين الأسباب التى دفعت الملك إلى تغيير رأيه الكساد العالمى الذى بدأ فى سنة ١٩٢٩ وأحدث تدهورا متزايدا فى الأوضاع المالية للمملكة.

بعد أقل من أربعة أشهر من التوقيع على الاتفاق وصل أول فوج من الجيولوجيين الأمريكيين إلى شرقى بلاد العرب، وبحلول نهاية العام كانت البعثة الاستكشافية قد استقرت تماما. وفى العام التالى بدأت الفرق الأمريكية فى استخراج البترول وتصديره. لكن عملية التطوير توقفت بسبب الحرب العالمية الثانية ثم استؤنفت عند انتهائها. وتبين الأرقام الخاصة بكميات البترول المستخرجة من بلاد العرب حجم التطور الذى حدث : ففى سنة ١٩٤٥ كان عددها ٣ر٢١ مليون برميل، وفى سنة ١٩٥٥ بلغ العدد ٦ر٣٥٦ مليون برميل، وفى سنة ١٩٦٥ وصل إلى ٨ ر٨٠٤ مليون برميل، وفى سنة ١٩٧٥ بلغ ٥ر١٥٨٢ مليون برميل.

وقد أحدث تدفق البترول نحو الخارج وما يقابله من تدفق للأموال نحو الداخل تغييرات هائلة فى المملكة السعودية وفى بنيتها الداخلية وأسلوب الحياة فيها، وفى دورها ونفوذها الخارجيين، سواء فى البلدان المستهلكة للبترول أو فى العالم الإسلامى. وكان أهم هذه التغييرات متمثلا فى تأثير المذهب الوهابى ودور أنصاره. فقد صار هو المذهب الرسمى الذى تفرضه الدولة التى أصبحت حكومتها صاحبة أكبر تأثير فى العالم الإسلامى - فهى حامية أكثر الأماكن الإسلامية قدسية، ومقصد ملايين الحجاج الذين يأتون كل عام من مختلف أنحاء العالم لأداء شعائر الحج ومناسكه. وفى الوقت نفسه أصبح هناك، تحت تصرف دعاة الوهابية ومعلّميها، موارد مالية هائلة استخدموها فى الترويج لتصورهم للإسلام ونشره. وحتى فى البلدان الغربية فى أوروبا وأمريكا، حيث النظم التعليمية جيدة، فإن مراكز نشر المذهب الوهابى قد تكون هى النوع الوحيد من التعليم الإسلامى المتاح أمام الذين تحولوا حديثا إلى الإسلام وأمام أولياء الأمور المسلمين الذين يريدون تمكين أبنائهم من التعرف على بعض أسس تقاليدهم الدينية والثقافية الموروثة. ويجرى تلقين المذهب فى المدارس الخاصة والندوات الدينية ومدارس المساجد ومعسكرات قضاء الأجازات وبصورة متزايدة فى السجون.

وتفيد كلمة "مدرسة"، وفقا لاستخدامها الإسلامي التقليدي، في الدلالة على مركز للتعليم العالى أو للفكر أو للتدريس أو البحث. والمدرسة الإسلامية التقليدية كانت هى الأصل أو بالأحرى النموذج، فى العديد من الأمور، للجامعات الأوروبية الكبرى التى نشأت فى العصور الوسطى. أما فى استخدامها الحديث فقد اكتسبت الكلمة معنى سلبيا إذ أصبحت تدل على مركز لتلقين مذاهب التعصب والعنف. ويمكن أن نجد مثالا على ذلك فى خلفية عدد من الأتراك الذين قبض عليهم بشبهة مشاركتهم فى أنشطة إرهابية. فكل من هؤلاء ولد وتعلم في ألمانيا وليس فى تركيا. والحكومة الألمانية لا تشرف على التعليم الدينى للأقليات. أما الحكومة التركية فهى تنظر بعين فاحصة فى هذه الأمور. ونظرا لتقاعس الدولة، فى أوروبا وأمريكا، عن المشاركة بنفسها فى الشئون الدينية، فإن تدريس الإسلام فى المدارس وغيرها ظل بشكل عام غير خاضع لإشراف السلطات. ومن الواضح أن مثل هذا الوضع فى صالح أولئك الذين يكونون أكثر إقداما وأشد اقتناعا وأكثر مالا.

وربما أمكن أن نتبين النتيجة عن طريق تخيل صورة موازية لذلك. فتصور لو أن جماعة كو كلوكس تمكنت من السيطرة على ولاية تكساس وعلى بترولها وبالتالى على عائداته، ومن استخدام هذه الأموال بعد ذلك فى إنشاء شبكة من المدارس والكليات ذات ثروة كبيرة فى جميع أنحاء العالم المسيحى تنشر نوعا خاصا بها من المسيحية. وربما كانت هذه الصورة الموازية أقل ضررا مما يجرى فى الواقع لأن معظم البلدان المسيحية لديها نظم خاصة بها للتعليم العام تعمل بشكل ملائم. والأمر ليس كذلك فى بعض البلدان الإسلامية. والمدارس والكليات التى يشرف عليها الوهابيون تمثل بالنسبة لكثير من شباب المسلمين النوع الوحيد المتاح لهم من التعليم. وقد تمكن الوهابيون بهذه الوسائل من توصيل رسالتهم إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامى، وبصورة أكبر إلى الأقليات الإسلامية فى البلدان الأخرى وبوجه خاص فى أوروبا وأمريكا الشمالية. فالحياة الإسلامية العامة المنظمة والتعليم، بل وحتى دور العبادة، ممولة كلها من جانب الوهابيين، وبالتالى فهى موجهة من جانبهم إلى حد ينذر بالخطر، كما أن صيغة الإسلام التى يمارسونها ويدعون إليها تسيطر عليها المبادئ والمواقف الوهابية. وقد أدت حماية الأماكن المقدسة وعائدات البترول إلى أن يكون لهذه البلاد تأثيرها فى جميع أنحاء العالم ولولاهما لظلت جزءًا نائيا فى بلد هامشى.

جاء استغلال البترول بثروات جديدة هائلة وجاء معه بتوترات اجتماعية جديدة ومتزايدة. ففي المجتمع القديم كان التفاوت في الثروة محدودا وآثاره محكومة من جهة بالروابط والالتزامات الاجتماعية التقليدية التي تربط الأغنياء بالفقراء ومن جهة أخرى بحرمة الحياة الأسرية في الإسلام. وأدى التحديث في معظم الأحيان إلى اتساع الفجوة والقضاء على هذه الروابط وجعل التفاوت الناجم عنها أشد ظهورا بسبب عالمية وسائل الإعلام الحديثة. وقد أوجد كل ذلك جمهورا جديدا مهيئا للاستجابة للتعاليم الوهابية ولأفكار الجماعات المماثلة لها ومن بينها الإخوان المسلمون في مصر وسوريا وطالبان في أفغانستان.

كان للثروة البترولية آثار سياسية سلبية كذلك بإعاقتها تطور المؤسسات النيابية. فمبدأ "لا ضرائب بغير تمثيل شعبي " يعتبر خطوة حاسمة في تطور الديموقراطية الغربية. ومع الأسف فإن العكس صحيح أيضا : "لا تمثيل بغير ضرائب". ذلك أن الحكومات التي تملك ثروة نفطية لا حاجة بها إلى المجالس الشعبية لفرض الضرائب وتحصيلها وتستطيع، على الأقل لفترة من الزمن، أن تتجاهل الرأي العام. وحتى هذا المصطلح نفسه ليس له معنى كبير في مثل هذه المجتمعات. وإزاء عدم وجود أية منافذ أخرى فإن الاستياء الجديد والمتنامي يجد متنفسا له في الحركات الدينية المتطرفة.

وقد أصبح من المعتاد الآن وصف هذه الحركات بأنها أصولية. وهذا المصطلح غير ملائم لأسباب عديدة. فقد كان في الأصل مصطلحا بروتستانتيا أمريكيا يقصد به كنائس بروتستانتية معينة تختلف من بعض الجوانب عن الكنائس التي تنتمي للاتجاه العام. ووجها الاختلاف الأساسيين هما في التحرر الديني ونقد الأناجيل، وكلاهما كان يعتبر موضعا للاعتراض. والتحرر الديني كان موضوعا مهما عند المسلمين في الماضي، وربما عادت له أهميته في المستقبل، ولكنه ليس كذلك في الوقت الحاضر. أما الوحي الإلهي للقرآن وعصمته من الخطأ فهو عقيدة أساسية في الإسلام، ورغم أنه قد يكون هناك من يتشكك في ذلك فإن أحدا لا يعترض عليه. وليس هناك أي شبه بين هذه الاختلافات وتلك التي تفصل بين المسلمين الأصوليين وبين الاتجاه الإسلامي العام، ومن ثم فإن المصطلح نفسه قد يكون مضللا، لكنه أصبح الآن شائعا، بل إنه ترجم حرفيا إلى العربية والفارسية والتركية.

أدى أفول نجم العروبة إلى أن تصبح الأصولية الإسلامية هى البديل الأشد جاذبية بالنسبة لجميع أولئك الذين يعتقدون أنه لابد أن يكون هناك شىء أفضل وأكثر صدقا وأكبر أملا من النظم الاستبدادية غير الملائمة التى يتبعها حكامهم والأيديولوجيات الفاسدة التى تفرض عليهم من الخارج. وتعتمد هذه الحركات على الشعور بالحرمان والإذلال والإحباط والاستياء الذى يثيره فى النفوس إخفاق كل الوصفات السياسية والاقتصادية سواء منها الأجنبى المستورد أو التقليد المحلى له. وكما يذكر الكثيرون فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا فقد تمت تجربة كل من الرأسمالية والاشتراكية وأخفق كلاهما. ولم تنتج هذه النماذج، سواء الغربية منها أو الشرقية، سوى الفقر والاستبداد. وقد يبدو من غير المنصف أن يلام الغرب من جهة على إخفاق السياسات شبه الستالينية التى اتبعتها الحكومة المناهضة للغرب التى قامت فى الجزائر، على سبيل المثال، عقب الاستقلال، ومن جهة أخرى على عدم كفاءة هذه الحكومة نفسها. لكن الشعور العام ليس على خطأ تماما فيما يراه من أن العالم الغربى والأفكار الغربية هى المصدر الأساسى للتغيرات الكبرى التى بدلت وجه العالم الإسلامى خلال القرن الماضى وقبله. ومن هنا فإن قدرا كبيرا من غضب العالم الإسلامى ينصب على ذلك الغربى الذى يعتبر العدو القديم والتاريخى للإسلام منذ الاشتباكات الأولى بين الخلفاء المسلمين والأباطرة المسيحيين، وعلى أولئك المتشبهين بالغرب الذين ينظر إليهم باعتبارهم أدوات للغرب أو متواطئين معه وخونة لدينهم ولشعوبهم.

وتتمتع الأصولية الدينية بالعديد من المزايا بالمقارنة للأيديولوجيات المنافسة لها. فهى سهلة الفهم بالنسبة للمسلمين سواء المتعلمين منهم أو غير المتعلمين. وهى تقدم مجموعة من الموضوعات والشعارات والرموز المألوفة ومن ثم فهى فعالة فى حشد التأييد وفى صياغة النقد لأوجه الخطأ وفى وضع برنامج لإصلاحها. وتتمتع الحركات الدينية بميزة عملية أخرى فى مثل مجتمعات الشرق الأوسط وشمال أفريقيا التى تحكمها نظم أوتوقراطية إلى حد ما : فالحكام الديكتاتوريون يستطيعون حظر الأحزاب، والاجتماعات، ولكنهم لا يستطيعون منع العبادة علنا، كما أن قدرتهم على التحكم فى المواعظ الدينية محدودة.

ونتيجة لذلك فإن الجماعات الدينية المعارضة هى الوحيدة التى تجد لنفسها أماكن للاجتماع بصفة منتظمة تستطيع الالتقاء فيها وتوجد تحت تصرفها شبكة تخرج عن

سيطرة الدولة، أو على الأقل لا تخضع لها بصورة كاملة. وكلما ازداد النظام قمعا كلما ساعد ذلك الأصوليين على احتكار المعارضة لهذا النظام.

والنضال الإسلامي الراديكالي ليس بالأمر الجديد. فمنذ بدايات التأثير الغربي في القرن الثامن عشر ظهرت عدة مرات حركات نضالية معارضة عبرت عن نفسها تعبيرا دينيا. لكنها فشلت جميعا حتى الآن. وقد فشلت في بعض الأحيان بسهولة أو بتضحيات قليلة نسبيا انتهت بهزيمتها والقضاء عليها، وفي هذه الحالات حقق فخار الاستشهاد لأعضائها نوعا من النجاح. لكنها فشلت في أحيان أخرى بصعوبة أكبر أي بعد أن تولت الحكم ثم اضطرت لمواجهة مشكلات اقتصادية واجتماعية كبرى لم يكن لديها حلول حقيقية لها، الأمر الذي تحولت معه عادة ومع مرور الوقت إلى نظام قمعي متشدد، لا يختلف عن النظام السابق الذي أطاحت به. وهذه هي المرحلة التي يمكن أن تصبح فيها هذه الحركات بالغة الخطورة. وهذه المرحلة هي التي تدخل فيها الثورة، وإذا جاز لنا استخدام تصنيف أوروبي، المرحلة النابوليونية أو ربما كان الأجدر أن نقول المرحلة الستالينية. وتستطيع هذه الحركات، في إطار برنامج عدواني توسعي، كما كان شأن أسلافها من اليعاقبة والبلاشفة، أن تعتمد على طابور خامس في كل بلد وفي كل مجتمع تشترك وإياه في نسق واحد لخطاب مشترك.

ويمكن القول بصفة عامة أن الأصوليين الإسلاميين هم أولئك الذين يرون أن متاعب العالم الإسلامي في العصر الحاضر لا ترجع إلى عدم كفاية التحديث بل إلى الإفراط فيه، الأمر الذي يعتبر في نظرهم خيانة للقيم الإسلامية الصحيحة. والعلاج بالنسبة لهم هو الرجوع إلى الإسلام الصحيح بما يعنيه ذلك من إلغاء كافة القوانين وغيرها من الأنماط الاجتماعية المستعارة من الغرب وإعادة العمل بالشريعة الإسلامية باعتبارها القانون الحقيقي للبلاد. والصراع النهائي من وجهة نظرهم ليس مع الدخيل الغربي ولكنه ضد الخونة المتشبهين بالغرب في الداخل. وأكثر الأعداء خطورة في نظرهم هم أولئك المسلمين المزيفين المرتدين الذين يحكمون بلدان العالم الإسلامي الذين استوردوا أساليب الكفار وفرضوها على الشعوب الإسلامية.

وقد صور عبد السلام فرج، وهو مصري أعدم مع آخرين في أبريل ١٩٨٢ لإدانته بالتآمر والتحريض على قتل الرئيس السادات، هذه المسألة تصويرا واضحا في منشور ألقى فيه الضوء على ما دفعه إلى هذا الفعل :

"إن الأساس الذى قامت عليه الإمبريالية فى ديار الإسلام هو هؤلاء الحكام أنفسهم. وبداية فإن الصراع ضد الإمبريالية ليس بالعمل المجيد أو النافع بل هو مجرد مضيعة للوقت. فمن واجبنا التركيز على قضيتنا الإسلامية التى تتمثل فى تطبيق حكم الشريعة الإسلامية فى بلادنا لتكون كلمة الله هى العليا. وليس هناك شك فى أن ميدان الجهاد الأول هو فى القضاء على هذه القيادات الكافرة واستبدالها بنظام إسلامى صحيح يمكن من خلاله أن تنطلق كل طاقاتنا" (*) .

وفى اللحظات القصيرة التى مرت بين قتل الرئيس السادات والقبض على قاتليه صاح زعيمهم منتصرا : "لقد قتلت الفرعون وإننى لا أخشى الموت". وإذا كانت جريمة السادات فى نظر قاتليه أنه عقد صلحا مع إسرائيل، كما كان معتقدا على نطاق واسع فى العالم الغربى حينئذ، فإن وصفه بالفرعون فى هذا المقام يبدو اختيارا للفظ فى غير محله. فمن الواضح أنه لم يقصد بهذا الوصف الفرعون الذى يرد ذكره فى الكتب المدرسية الحديثة فى مصر والذى يعد تجسيدا لعظمة مصر القديمة ومجدها. إنه فرعون "الخروج" الذى يصفه الإنجيل، بأنه مستبد وثنى يضطهد شعب الله. ولا شك أن هذا هو المعنى الذى قصده أسامة بن لادن حين تحدث عن الرئيس بوش واصفا إياه بفرعون العصر الحاضر. وفى زمن "الخروج" كان بنو إسرائيل هم شعب الله. وغالبية المسلمين المعاصرين لا يعترفون بأن دولة إسرائيل الحديثة هى الوريث لبنى إسرائيل القدامى – الذين ورد ذكرهم فى القرآن بهذا الاسم – ومن المؤكد أن قاتلى السادات لم يوافقوا على اتفاقه مع تلك الدولة. لكن استجوابهم هم ومحرضيهم من بعد أوضح أن السلام مع إسرائيل لم يكن فى نظرهم سوى ظاهرة ثانوية – عرضا وليس سببا للجريمة الأكبر وهى التخلى عن العقيدة الإلهية واضطهاد شعب الله وتقليد أساليب الكفار.

(*) عبد السلام فرج، "الجهاد، *الفريضة الغائبة*" (عمان، ١٩٨٢)، ترجمه إلى الإنجليزية Johannes J. G. Jansen : The Neglected Duty : The Creed of Sadat's Assassins and Islamic Resurgence in the Middle East (نيويورك، ١٩٨٦) ص ١٥٩ وما بعدها.

الفصل التاسع

تصاعد الإرهاب

إن معظم المسلمين ليسوا من الأصوليين، كما أن معظم الأصوليين ليسوا إرهابيين، لكن معظم الإرهابيين فى عصرنا مسلمون ويفخرون بتحديد هويتهم على هذا النحو . ويشكو المسلمون، عن حق، من أن وسائل الإعلام، عندما تتحدث عن الحركات والأفعال الإرهابية تصفها بأنها "إسلامية"، ويتساءلون لماذا لا تصف الإرهابيين الأيرلنديين أو الباسك والإرهاب الذى يمارسونه بأنه "مسيحى". والجواب بسيط وبديهى : ذلك أنهم لا يصفون أنفسهم بأنهم كذلك. وشكوى المسلمين من ذلك مفهومة ولكنها يجب أن توجه إلى أولئك الذين يصنعون الأخبار وليس إلى أولئك الذين ينقلونها. وربما لا يكون أسامة بن لادن وأتباعه فى تنظيم القاعدة ممثلين للإسلام، خاصة وأن كثيرا من بياناتهم وأفعالهم تتعارض بشكل مباشر مع المبادئ والتعاليم الإسلامية الأساسية، لكنهم نشأوا من داخل الحضارة الإسلامية، تماما كما نشأ هتلر والنازيين من داخل العالم المسيحى، ويجب النظر إليهم فى سياق إطارهم الثقافى والدينى والتاريخى الخاص.

هناك أشكال متعددة للتطرف الإسلامى قائمة فى الوقت الحاضر. وأكثرها شهرة هى الراديكالية التخريبية لتنظيم القاعدة وغيرها من الجماعات المشابهة لها فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى؛ والأصولية الاستباقية للمؤسسة السعودية الحاكمة، والمؤسسات الثورية الحاكمة فى إيران على اختلاف درجاتها. وهذه كلها تعد، بمعنى أو آخر، إسلامية المنشأ، لكن بعضها انحرف عن منشئه انحرافا شديدا.

وتضفى كل من هذه الجماعات المتطرفة نوعا من القداسة على أفعالها من خلال نصوص إسلامية مرجعية مستمدة بوجه خاص من القرآن والسنة، وتزعم ثلاثتها أنها تمثل إسلاما أصح وأكثر نقاءً وأصالة عن ذلك الذى تمارسه اليوم الغالبية العظمى من المسلمين والذى تسانده غالبية القيادات الدينية وإن لم يكن كلها. على أن هذه الجماعات شديدة الانتقائية فى اختيارها للنصوص المقدسة وتفسيرها. فهى عند نظرها فى أحاديث النبى، على سبيل المثال، تستبعد الطرق المتبعة منذ أقدم العصور والتى وضعها الفقهاء وعلماء الدين لفحص دقة الأحاديث المنقولة شفهيا ومدى مطابقتها للأصل، ويقبلون أو يرفضون نصوصا مقدسة بحسب ما إذا كانت تؤيد أو تتعارض مع مواقفهم الأيديولوجية والنضالية. ويذهب البعض إلى أبعد من ذلك فى عدم الأخذ ببعض الآيات القرآنية على أساس أنها "منسوخة" أو "ملغاة". والحجة التى تساق لتبرير ذلك هى أن الآيات التى جاء بها الوحى فى السنوات المبكرة من بعثة النبى يمكن أن تكون قد جاءت بعدها آيات أخرى لاحقة - أكثر نضجا - كما يدعون.

ومن الأمثلة البارزة لهذا الانحراف الفتوى الشهيرة التى أصدرها آية الله الخمينى فى ١٤ فبراير ١٩٨٩ ضد الروائى سلمان رشدى بسبب روايته "آيات شيطانية". وأبلغ الخمينى فى فتواه "جميع المسلمين الغيورين على دينهم فى العالم أجمع بإهدار دم مؤلف هذا الكتاب الذى جمع وطبع ونشر لمعارضة الإسلام والنبى والقرآن، وكذلك من شارك فى نشره وهو عارف بمحتواه. «إننى أناشد جميع المسلمين الغيورين على دينهم القضاء على هؤلاء بسرعة أينما وجدوا حتى لا يتجرأ أحد على إهانة المقدسات الإسلامية من جديد. وكل من يقتل فى هذا السبيل يعتبر شهيدا» (*). واستباقا للفوز بالجنة واستكمالا له قدمت مؤسسة خيرية إسلامية فى طهران مكافأة قدرها عشرين مليون تومان (كانت تعادل فى ذلك الوقت ثلاثة ملايين دولار بسعر الصرف الرسمى و ١٧٠٠٠٠ دولار بسعر السوق) للإيرانى، ومليون دولار للأجنبى. وبعد بضع سنوات قامت المؤسسة بزيادة المكافأة التى لم يطالب بها أحد حتى اليوم.

(*) نشر النص الكامل للفتوى فى الصحافة الإيرانية والدولية فى حينه.

وليس من الغريب إذن أن يتكون انطباع لدى كثير من القراء غير الملمين بهذه الأمور فى الغرب بأن "إصدار فتوى" هو بمثابة تعاقد على قتل ضحية معينة مقابل مكافأة مالية. وعلى غرار كلمة "مدرسة" فإن كلمة "فتوى" قد اكتسبت، فى الاستخدام الدولى الشائع لها اليوم، دلالة سلبية تماما. وذلك فى الواقع أمر فادح الخطأ وغير معقول. فكلمة "فتوى" مصطلح فنى فى الفقه الإسلامى يعنى الرأى القانونى أو البت فى مسألة قانونية. وهى المقابل فى الشريعة الإسلامية لما يسمى فى القانون الرومانى responsa prudentium . والفقيه المسلم الذى يجوز له إصدار فتوى يسمى المفتى أى اسم الفاعل المستمد من نفس المصدر. وعندما لجأ آية الله الخمينى إلى أسلوب الفتوى لإصدار حكم بالإعدام وتكليف قاتل بتنفيذه فإنه يكون قد انحرف بدرجة كبيرة عن الإسلام التقليدى المعتاد.

ولم يكن الانحراف فقط فى الحكم والعقوبة ولكن كذلك فى طبيعة الاتهام. فمن المؤكد أن إهانة النبى – وهى التهمة الموجهة إلى سلمان رشدى – جريمة فى الشرع الإسلامى يناقشها الفقهاء بقدر من التفصيل. وتدور معظم هذه المناقشات حول مسألة إهانة الشخص غير المسلم فى دولة إسلامية للنبى. ويولى الفقهاء عناية كبيرة لتعريف هذه الجريمة وقواعد إثباتها والعقاب المناسب لها. وهم يحرصون على بيان أن الاتهام بارتكاب مثل هذه الجريمة لا ينبغى أن يستخدم كوسيلة للانتقام الخاص، ويشددون على ضرورة التدقيق فى فحص الأدلة قبل النطق بالحكم أو العقوبة. ويرى جمهور الفقهاء أن الجَلْد والسجن يعتبران عقوبة كافية، وتتوقف شدة الجلد ومدة السجن على مدى جسامة الجريمة. لكن حالة المسلم الذى يهين النبى لم تكد تناقش ولابد أنها كانت بالغة الندرة. لكنها عندما تكون موضع مناقشة فالرأى فيها أنها تساوى الردة.

كانت تلك هى التهمة المحددة الموجهة إلى سلمان رشدى. والردة جريمة كبرى فى الشريعة الإسلامية عقوبتها بالنسبة للذكور هى الموت. والكلمة المهمة هنا هى "الشريعة". فالفقه الإسلامى نظام للتشريع والعدل وليس نظاما للقتل وللإرهاب. فهو يضع إجراءات يقدم بمقتضاها المتهم بارتكاب جريمة للمحاكمة، ويواجه بموجبها من يوجه إليه الاتهام، ويعطى فرصة للدفاع عن نفسه. ثم يُصدر القاضى حكمه بعد ذلك فإذا وجد المتهم مذنبا يحكم عليه بالعقوبة.

ومع ذلك فإن هناك رأيا آخر تقول به أقلية من الفقهاء مفاده أن إهانة أحد المسلمين للنبى هى جريمة بالغة الجسامة إلى حد أنه يجوز معها، بل يجب، التجاوز عن إجراءات الاستدعاء والمحاكمة والإدانة والاتجاه مباشرة إلى الإعدام. وأساس هذا الرأى قول منسوب إلى النبى، لكن صحته ليست مقطوعا بها، مفاده أنه إذا أهان أحد النبى وسمعه أحد المسلمين وجب عليه أن يقتله فورا. وحتى الفقهاء الذين يقبلون بصحة هذا الحديث مختلفون فيما بينهم. فيؤكد بعضهم على ضرورة اتباع بعض الإجراءات والحصول على الإذن اللازم لذلك وعلى أن الإعدام السريع بغير إذن هو بمثابة القتل المعاقب عليه. ويذكر آخرون أن نص هذا الحديث كما نقله الرواة يفيد أن القتل المباشر والفورى لمرتكب هذا التجديف ليس أمرا مشروعا فحسب بل إنه ملزم وأن من لا يقومون به يرتكبون هم أنفسهم جريمة. وإن أكثر هؤلاء الفقهاء التقليديين تطرفا وتشددا يطالب المسلم بقتل كل من يهين النبى تحت بسمعه وفى حضوره. لكنهم لا يذكرون شيئا عن التكليف بالقتل على إهانة وقعت فى بلد بعيد.

وتبدو الإشادة بالقتل، على نحو ما جاء فى فتوى الخمينى، فى شكل أكثر وضوحا فيما يتعلق بممارسة العمليات الانتحارية، وبالمذهب الذى يدعو إليها.

وإذا نظر المرء إلى سجل التاريخ لوجد أن النهج الذى سلكه المسلمون فى الحرب لا يختلف كثيرا عن نهج المسيحيين، ولا عن نهج اليهود، فى العصور القديمة والحديثة على السواء، عندما كان هذا الخيار متاحا لهم. فبينما حارب المسلمون، ربما أكثر من المسيحيين، أتباع العقائد الأخرى ليحملوهم على الدخول فى الإسلام، فإن المسيحيين كانوا يتجهون بدرجة أكبر إلى الحروب الدينية الداخلية - باستثناء بارز يتمثل فى الحروب الصليبية - ضد أولئك الذين رأوا أنهم منشقون أو هراطقة. وللإسلام توجه يمكن أن نصفه بأنه أكثر براجماتية عن الإنجيل فى نظرته للعلاقات بين المجتمع والدولة، وهو ما يرجع بلا شك إلى المشاركة السياسية والعسكرية لمؤسسه. وموقف الإسلام فى ذلك أقرب إلى ما ورد فى الأسفار الأولى من العهد القديم، وإلى مذهب ضرب العماليق بشدة، منه إلى مواقف الأنبياء والأناجيل. ولم يؤمر المسلمون بأن يديروا خدهم الآخر ولا هم يتوقعون أن يحرثوا الأرض بسيوفهم أو يحيلوا سهامهم إلى مناجل يزرعون بها الأرض. (اليشع ٢:٤). على أن ما أمر به المسيحيون من ذلك

لم يمنعهم، بالطبع، من شن سلسلة من الحروب الدينية الدامية داخل العالم المسيحى ومن شن حروب عدوانية فى الخارج.

يثير ذلك قضية أوسع نطاقا تتعلق بموقف الأديان من القوة والعنف وبصفة خاصة من الإرهاب. فقد استند أتباع كثير من العقائد فى وقت أو آخر إلى الدين للجوء إلى القتل سواء كان فرديا أو جماعيا. وقد دخلت إلى اللغة الإنجليزية كلمتان مستمدتان من الأديان الشرقية هما thug(*) من الهند و assassin (**) من الشرق الأوسط، وكلاهما يذكّر بطوائف دينية متعصبة تمارس عبادتها عن طريق قتل أولئك الذين تعتبرهم أعداء لعقيدتها.

وقد ظهرت ممارسة القتل، ثم نظريته، فى العالم الإسلامى منذ وقت مبكر مواكبة للصراع الذى نشأ على الرئاسة السياسية للمجتمع الإسلامى. فقد قتل ثلاثة من بين الخلفاء المسلمين الأربعة الأوائل. قتل الخليفة الثانى عبد مسيحى ناقم، وقتل الخليفتين الثالث والرابع متمردون مسلمون أتقياء رأوا أنهم ينفذون بذلك إرادة الله. وطرحت المسألة بحدة فى عام ٦٥٦ للميلاد عند مقتل الخليفة الثالث عثمان على أيدى المتمردين المسلمين. وبدأت بذلك سلسلة من الحروب الأهلية بسبب الخلاف حول ما إذا كان قاتلوه ينفذون ما أمر الله به أو يتحدونه. فالشريعة والتقاليد الإسلامية صريحة فى واجب الطاعة للحاكم المسلم. ولكنها كذلك تستند إلى حديثين منسوبين إلى النبى : "لا طاعة فى معصية" و " لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق" . فإذا أمر حاكم بشىء يتعارض مع شرع الله، فإن واجب الطاعة يحل محله واجب العصيان. إن مفهوم القضاء على الاستبداد – أى العزل المسموح به للحاكم المستبد – لم يكن أمرا جديدا أتى به الإسلام لكنه كان معروفا فى العصور القديمة عند اليهود والإغريق والرومان على حد سواء، وكثيرا ما اعتبر من يقومون به من الأبطال.

(*) جاء فى قاموس كولينز أن كلمة Thug كان يقصد بها قديما عضو فى تنظيم للصوص والقتلة فى الهند. (المترجم)

(**) جاء فى قاموس كولينز أن كلمة assassin يقصد بها القاتل أو العضو فى جمعية سرية إسلامية للمتعصبين كانت تعمل فى فارس وسوريا فيما بين ١٠٩٠ و ١٢٥٦ ميلادية وتقتل ضحاياها وهم عادة من الصليبيين. (المترجم)

ويبدو أن الطائفة الإسلامية المعروفة باسم الحشاشين **Assassins** (التى اشتق اسمها من الكلمة العربية الحشيشية)، التى كانت نشطة فى إيران ثم فى سوريا بين القرن الحادى عشر والقرن الثالث عشر الميلادى، كانت هى أول من حول هذا الفعل الذى عرف باسمها إلى نظام وأيديولوجية. ولم تكن جهودهم موجهة، على خلاف الاعتقاد الشائع، إلى الصليبيين بل كانت موجهة فى المقام الأول إلى الحكام المسلمين الذين رأوا فيهم مستبدين وغاصبين. بهذا المعنى يكون "الحشاشون" هم الأسلاف الحقيقيين للكثيرين ممن يسمون"اليوم بالإرهابيين الإسلاميين حتى أن بعضهم يبرز هذه النقطة بشكل صريح. وقد أطلق عليهم أعداؤهم المسلمون اسم "الحشيشية" بمدلولها الذى يفيد تعاطى الحشيش، وقد أطلقوا هم على أنفسهم اسم "الفدائيين"، وهى صيغة جمع لكلمة فدائى، وهو من يكون مستعدا للتضحية بحياته من أجل قضيته.

بعد هزيمة الحشاشين والقضاء عليهم فى القرن الثالث عشر تلاشى استخدام هذا المصطلح، ولكنه عاد إلى الظهور لفترة وجيزة فى منتصف القرن التاسع عشر على يد جماعة صغيرة من المتآمرين الأتراك الذين كانوا يتآمرون لخلع السلطان وربما على قتله. ولكن المؤامرة اكتشفت وتم سجن المتآمرين. وعاد هذا المصطلح إلى الظهور مرة أخرى فى إيران فيما عرف باسم "فدائيان إسلام"، أى فدائيو الإسلام، وهى جماعة سياسية - دينية إرهابية قامت فى طهران بعدد من الاغتيالات السياسية، من تاريخ بدء نشاطها فى سنة ١٩٤٣، حتى تاريخ القضاء عليها فى سنة ١٩٥٥، وبعد محاولة فاشلة للاعتداء على حياة رئيس الوزراء فى أكتوبر ١٩٥٥ تم اعتقالهم ومحاكمتهم وإعدام زعمائهم. ثم ظهر هذا المصطلح من جديد على يد الجناح العسكرى لمنظمة التحرير الفلسطينية وأصبح، منذ الستينيات وما بعدها، يعنى الإرهابيين النشطين التابعين للمنظمات الفلسطينية.

ويختلف الحشاشون بشكل ملحوظ عن خلفائهم المعاصرين من جانبين : فى اختيارهم لأسلحتهم وفى اختيارهم لضحاياهم. فقد كانت الضحية دائماً فردا له مكانة أو زعامة سياسية أو عسكرية أو دينية يرون فيه مصدرا للشر. وكان هو ، وهو وحده، الذى يقتل. ولم يكن هذا الفعل إرهابا، بالمفهوم الراهن لهذا اللفظ، ولكنه كان بالأحرى استهدافا لقتل فرد معين. وكان السلاح هو نفسه دائما : الخنجر. فقد كان الحشاشون

يحتقرون السم والسهام وغيرها من الأسلحة التى يمكن أن تستخدم عن بعد كما أن الحشاش لم يكن يتوقع، أو حتى يرغب فى البقاء على قيد الحياة بعد فعله هذا لأنه كان يعتقد أنه يضمن له النعيم الأبدى. وهو لم يكن ينتحر بأى حال من الأحوال. بل كان يموت على أيدى من يقبضون عليه. وقد هزم الحشاشون فى النهاية على يد الحملات العسكرية التى استولت على معاقلهم وقواعدهم فى إيران وسوريا وهما البلدان اللذان كانوا يقومون بنشاطهم الأساسى فيهما. وربما يهزم القتلة المعاصرون بنفس الطريقة ولكن الطريق إلى ذلك طويل وشاق. إن الحشاشين فى العصور الوسطى كانوا طائفة متطرفة بعيدة كل البعد عن الاتجاه الإسلامى العام. والأمر ليس كذلك بالنسبة لمقلديهم فى أيامنا هذه.

وقد جاء القرن العشرين بالجديد من مثل هذه الأفعال فى الشرق الأوسط رغم اختلاف أنواعها وأغراضها، ومر الإرهاب خلاله بمراحل متعددة. فخلال السنوات الأخيرة من عمر الإمبراطورية البريطانية واجهت بريطانيا الإمبريالية حركات إرهابية فى ممتلكاتها فى الشرق الأوسط كانت تمثل ثلاث ثقافات مختلفة : اليونانيون فى قبرص، واليهود فى فلسطين، والعرب فى عدن. وكانت دوافع هذه الحركات الثلاثة وطنية وليست دينية. ورغم تباين خلفياتها وظروفها السياسية فإن الحركات الثلاث كانت متشابهة إلى حد كبير فى تكتيكاتها. كان هدفها إقناع القوة الإمبريالية بأن البقاء فى المنطقة لا يساوى قيمة الدماء التى تسيل من أجله. وكان أسلوبهم يعتمد على مهاجمة الموظفين والمنشآت العسكرية، وإلى درجة أقل، المنشآت الإدارية. وكانت هذه الحركات الثلاث جميعا تعمل داخل أراضى بلادها وحاولت بشكل عام تفادى الأضرار الجانبية. وقد نجحت هذه الحركات الثلاث فى مساعيها.

أما الإرهابيون ذوى الأسلوب الجديد فإن ذبح الأبرياء بالنسبة لهم والمدنيين ممن لا شأن لهم ليس "ضررا جانبيا" لكنه هو الهدف الأساسى. ولا مناص من أن يستهدف الهجوم العكسى ضد الإرهابيين – الذين لا يرتدون بالطبع زيا يميزهم – مدنيين كذلك. وما ينجم عن ذلك من خلط وعدم تمييز يفيد الإرهابيين والمتعاطفين معهم فائدة كبرى.

وبفضل التطور السريع لوسائل الإعلام، والتليفزيون بوجه خاص، لم تعد الأشكال الحديثة للإرهاب تستهدف عدوا معينا ومحدودا ولكنها أصبحت موجهة للرأى العام

العالمي. وهدفها الأول لم يعد هزيمة العدو أو حتى إضعافه عسكريا بل الدعاية وبث الخوف في النفوس وهو بمثابة انتصار سيكولوجي. وقد اتبعت عدة جماعات أوروبية نفس هذا النوع من الإرهاب وبالذات في ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا وأيرلندا. ومن بين أكثر هؤلاء نجاحا واستمرارية في ذلك منظمة التحرير الفلسطينية.

وقد أنشئت منظمة التحرير الفلسطينية في سنة ١٩٦٤ ولكنها أصبحت أكثر أهمية في سنة ١٩٦٧ بعد هزيمة الجيوش العربية المشتركة في حرب الأيام الستة. فالحرب النظامية كانت قد أخفقت وحان الوقت لاختبار طرق جديدة. ولم تكن الأهداف في هذا الشكل من أشكال الصراع المسلح هي المنشآت العسكرية أو غيرها من المؤسسات الحكومية، التي تحظى عادة بحراسة جيدة، بل كانت هي الأماكن العامة والتجمعات أيا كان نوعها، والتي تتكون في غالبيتها الساحقة من المدنيين والتي لا يكون للضحايا فيها بالضرورة صلة بالعدو المقصود. والأمثلة على هذا الأسلوب تشمل اختطاف ثلاث طائرات في سنة ١٩٧٠ - إحداها سويسرية والأخرى بريطانية والثالثة أمريكية - التي فرض عليها جميعا الاتجاه إلى عمّان؛ واغتيال الرياضيين الإسرائيليين في الألعاب الأوليمبية في ميونيخ سنة ١٩٧٢، والاستيلاء على السفارة السعودية في الخرطوم في سنة ١٩٧٣ وقتل دبلوماسيين أمريكيين ودبلوماسي بلجيكي فيها، واختطاف الباخرة الإيطالية "أكيلي لاورو" في سنة ١٩٨٥ وقتل أحد الركاب المعاقين. ووجهت هجمات أخرى نحو مدارس ومراكز تسوق وملاه موسيقية بل وضد مسافرين يقفون في الطوابير في المطارات الأوروبية. ونجحت هذه العمليات وغيرها مما قامت به منظمة التحرير الفلسطينية نجاحا تاما في تحقيق أهدافها المباشرة وهي أن تتصدر عناوين الصحف وشاشات التليفزيون. كما أنها حظيت بقدر كبير من التأييد من جهات لا يتوقع منها ذلك ورفعت مكانة مرتكبيها إلى مصاف النجوم في مسرح العلاقات الدولية. وليس من الغريب إذن أن يشجع ذلك غيرهم على أن يحذوا حذوهم. وقد أوضح الإرهابيون العرب في السبعينيات والثمانينيات أنهم يشنون حربا من أجل قضية عربية أو فلسطينية وليس من أجل الإسلام. والواقع أن نسبة كبيرة من زعماء منظمة التحرير الفلسطينية ونشطائها كانوا مسيحيين.

وبالرغم من نجاحها الإعلامى فإن منظمة التحرير الفلسطينية لم تحقق نتائج مهمة حيث كان ينبغى أن تتحقق، أى فى فلسطين. لكن الوطنيين فى كل البلاد العربية الأخرى حققوا أغراضهم فى هزيمة الحاكم الأجنبى وطرده وإقامة سيادة وطنية بزعامات وطنية.

ولفترة ما كانت الحرية والاستقلال لفظين مترادفين يمكن استخدام أحدهما محل الآخر. لكن تجربة الاستقلال أوضحت منذ وقت مبكر أن ذلك كان خطأ محزنا. فالاستقلال والحرية أمران مختلفان تماما وقد ثبت فى الكثير من الحالات أن بلوغ أحدهما يعنى انتهاء الآخر ويؤدى إلى استبدال السادة الأجانب بمستبدين محليين أكثر تكيفا وألفة وأشد انطلاقا فى استبدادهم.

أصبحت الحاجة ماسة ومتنامية لتقديم تفسير جديد لما هنالك من خطأ وطرح إستراتيجية جديدة لتصحيحه. وقد وجد كلاهما فى الشعور الدينى والهوية. ولم يكن هذا الاختيار بجديد. ففى النصف الأول من القرن التاسع عشر، عندما كانت الإمبراطوريات الأوروبية تتقدم نحو كثير من البلاد الإسلامية فإن أهم مقاومة واجهتها كانت تلك التى يبعثها ويوجهها الشعور الدينى. فالفرنسيون فى الجزائر والروس فى القوقاز والبريطانيون فى الهند واجهوا جميعا انتقاضات دينية لم يتغلبوا عليها إلا بعد معارك طويلة ومريرة.

وبدأت مرحلة جديدة فى تعبئة الشعور الدينى بظهور الحركة التى عرفت فى اللغات الغربية بالجامعة الإسلامية. ولعل هذه الحركة، التى بدأت فى الستينيات والسبعينيات من القرن التاسع عشر، استوحت شيئا ما من الكفاح الذى خاضه الألمان والإيطاليون بنجاح لتحقيق وحدتهم الوطنية خلال تلك الفترة. ولم يكن هناك بد من أن يعرّف معاصروهم ومقلدوهم المسلمون بأنفسهم وأن يحددوا أهدافهم من الزاوية الدينية والجماعية وليس من الناحية القومية أو الوطنية، وهى نواحٍ كانت لا تزال غريبة عليهم وغير مألوفة بالنسبة لهم فى ذلك الوقت. لكن مع انتشار النفوذ والثقافة الأوروبيين غرست هذه الأفكار وسيطرت لفترة من الزمن على الخطاب السائد وعلى الصراع فى البلاد الإسلامية. ومع ذلك فإن الهوية والولاء الدينيين كانا لا يزالان عميقى الجذور ووجدا متنفسا لهما فى العديد من الحركات الدينية وفى مقدمتها تنظيم الإخوان

المسلمين. ومع الإخفاق المدوى للأيديولوجيات العلمانية اكتسبت هذه الحركات أهمية أكبر وأخذت على عاتقها مهمة القتال واجتذبت كثيرا من المقاتلين بعد أن أخفق الوطنيون في ذلك.

فالقضايا المتعلقة بالأرض تتخذ بالنسبة للأصوليين، شأنهم في ذلك شأن الوطنيين، أهمية خاصة، ولكن بأشكال مختلفة أكثر تشددا. فبالنسبة للأصوليين، على سبيل المثال، لا يمكن أن يكون هناك سلام أو حلول وسط مع إسرائيل، وأى تنازل فى هذا الاتجاه ليس إلا خطوة نحو الحل النهائى الصحيح وهو تفكيك دولة إسرائيل وعودة أرض فلسطين إلى أصحابها الحقيقيين، الفلسطينيين المسلمين، ومغادرة الدخلاء لها. ومع ذلك فإن هذا لا يرضى مطالب الأصوليين، التى تنصب على كل الأراضى الأخرى المتنازع عليها، بل إن حصولهم عليها فعلا ليس فى نظرهم إلا خطوة لصراع نهائى أطول أمدا.

وقد تم الإبقاء على جانب كبير من التكتيكات القديمة ولكن بشكل أكثر حيوية بكثير. فقد اتبعت الجماعات الإرهابية، سواء فى هزائمها أو انتصاراتها، نفس الطرق التى اتبعها الوطنيون فى القرن العشرين بعد إدخال التحسينات عليها، وبوجه خاص عدم الاهتمام بما قد يتعرض له الأشخاص العاديون الأبرياء من مذابح. وقد بلغ عدم الاهتمام هذا مستويات جديدة فى الحملة الإرهابية التى شنها أسامة بن لادن فى أوائل التسعينيات. وأول مثل صارخ على ذلك كان هو تفجير سفارتين أمريكيتين فى شرق أفريقيا فى سنة ١٩٩٨، فحتى يقتل الإرهابيون اثنى عشر دبلوماسيا أمريكيا كانوا على استعداد لذبح أكثر من مائتى أفريقى، الكثير منهم مسلمون، كانوا يتواجدون فى اماكن قريبة. وفى عددها الصادر بعد هذه الهجمات مباشرة نعت مجلة "الصراط المستقيم"، وهى مجلة أصولية تصدر باللغة العربية فى بتسبرج/ بنسيلفانيا، هؤلاء "الشهداء" الذين ضحوا بحياتهم فى هذه العمليات وأوردت أسماءهم، كما زودها بها مكتب تنظيم القاعدة فى بيشاور بباكستان. وأضاف الكاتب كلمة أعرب فيها عن أمله فى أن "يجمعنا الله بهم فى الجنة". وهذا التجاهل واسع النطاق للحياة البشرية، هو الذى تمت على أساسه الأفعال التى شهدتها نيويورك وواشنطن فى الحادى عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١ .

والشخصية المهمة فى هذه العمليات هى شخصية الإرهابى الانتحارى. وكان ذلك، من ناحية معينة، تطورا جديدا. فالإرهابيون الوطنيون فى الستينيات والسبعينيات كانوا يحاولون عادة ألا يموتوا مع ضحاياهم واستطاعوا أن يقوموا بهجماتهم عن بعد يحقق لهم الأمان. فإذا شاء سوء حظهم أن يقبض عليهم، فإن منظماتهم كانت تحاول عادة، وبنجاح أحيانا، التوصل إلى الإفراج عنهم بخطف الرهائن والتهديد بإيذائهم أو قتلهم. وفى الماضى كان أولئك الذين يقدمون على القتل لباعث دينى، وبصفة خاصة طائفة الحشاشين، يأنفون من البقاء على قيد الحياة بعد العمليات التى يقومون بها، ولكنهم لم يكونوا يقدمون على الانتحار. وينطبق ذلك أيضا على الجنود الإيرانيين صغار السن فى الحرب ضد العراق بين عامى ١٩٨٠ و ١٩٨٨، الذين كانوا يسيرون وسط حقول الألغام حتى يطهروا الطريق أمام القوات النظامية دون أن يكون بأيديهم سوى جواز سفر إلى الجنة.

ويبدو أن النوع الجديد من المهام الانتحارية، بالمعنى الضيق لهذا اللفظ، قد بدأ العمل به على يد المنظمات الدينية مثل حماس وحزب الله، التى قامت منذ سنة ١٩٨٢ بعدد من مثل هذه المهام فى لبنان وإسرائيل. وقد استمرت فى ذلك فى الثمانينيات والتسعينيات بما أحدثه ذلك من أصداء في مناطق أخرى مثل شرقى تركيا ومصر والهند وسرى لانكا. وتفيد المعلومات المتاحة أن الأشخاص الذين كانوا يرشحون لمثل هذه المهام، باستثناءات قليلة، كانوا شبابا ذكورا فقراء يختارون فى كثير من الأحيان من معسكرات اللاجئين. وكانت تقدم إليهم مكافآت مزدوجة : فى الآخرة كانوا سيفوزون بنعيم الجنة الذى يوصف لهم وصفا تفصيليا دقيقا، وفى الدنيا تحصل عائلاتهم على الهبات والمرتبات. وكان التجديد الملحوظ هو استخدام الإناث فى العمليات الانتحارية على نحو ما فعل الإرهابيون الأكراد فى تركيا بين ١٩٩٦ و١٩٩٩، والفلسطينيون بدءا من يناير ٢٠٠٢ .

على خلاف المقاتل فى الحرب المقدسة فى العصور الوسطى، وعلى خلاف الحشاشين، الذين كانوا على استعداد لمواجهة الموت المؤكد على أيدى أعدائهم أو من يأسرونهم، فإن الإرهابيين الانتحاريين الجدد يموتون بأيديهم. ويثير ذلك سؤالا مهما يتعلق بالتعاليم الإسلامية. فكتب الشريعة الإسلامية صريحة وواضحة تماما فى مسألة

الانتحار. فالانتحار كبيرة من الكبائر يعاقب عليها باللعنة الأبدية أى بتكرار الفعل الذى قتل به المنتحر نفسه تكرارا لا نهاية له. وتبين الفقرات التالية من أحاديث النبى، هذا الأمر بشكل واضح :

"من قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يتوجأ بها فى بطنه فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن شرب سما فقتل نفسه فهو يتحساه فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا"(*) (١) .

ويفرق العلماء منذ وقت مبكر تفرقة واضحة بين مواجهة الموت يقينا على أيدى الأعداء وبين موت الإنسان بيديه وهناك حديث قدسى، وهو ذلك النوع من الأحاديث الذى يبين فيه النبى أمرا مباشرا من الله، يعد مثلا صارخا على ذلك. فقد كان النبى حاضرا عندما قتل رجل نفسه تخفيفا لألمه بعد أن أصيب إصابة قاتلة فى حرب مقدسة، فجاء الحديث القدسى بما معناه : سبقنى عبدى بأن قضى على نفسه بيديه، لذلك فإنه لن يدخل الجنة. ووفقا لحديث مبكر آخر فإن النبى رفض الصلاة على جثمان رجل قتل نفسه بيديه(**) .

وتتميز هجمات ١١ سبتمبر وغيرها من الأفعال المماثلة لها بسمتين : رغبة مرتكبيها فى الانتحار وقسوة أولئك الذين بعثوا بهم سواء تجاه مبعوثيهم أو تجاه ضحاياهم العديدين. فهل يمكن أن يكون لذلك أى تبرير فى الإسلام ؟

من المؤكد أن الجواب بالنفى الصريح.

(*) مختصر صحيح مسلم، المرجع سالف الذكر، ص ٢٧١

(١) ترد هذه الأحاديث وما يماثلها فى مجموعات الحديث المعروفة مثل صحيح البخارى، وهو مترجم بعنوان: "Recueil de Traditions Mahométanes" المجلد الأول لناشره M. Ludolf Krehl (ليدن، ١٨٦٢) ص ٣٦٣؛ والمجلد الثانى (ليدن، ١٨٦٤) ص ٢٢٣-٢٢٤ ، ٣٣٧؛ والمجلد الرابع لناشره Th. W. Juynboll (ليدن، ١٩٠٨) ص ٧١، ١٢٤، ٢٤٣، ٢٥٢-٢٥٤، ٣٢٠، ٣٦٤ . ولمناقشة كاملة للموضوع انظر Franz Rosenthal "On Suicide in Islam" : فى Journal of the American Oriental Society المجلد ٦٦ (١٩٤٦)، ص ٢٣٩-٢٥٩ .

(**) مشار إليه وإلى غيره فى "المسند" لابن حنبل (القاهرة ١٣١٣ هـ ، ١٨٩٥-١٨٩٦م) المجلد ٦٦ (١٩٤٦)، ص ٢٣٩-٢٥٩ .

إن القضاء بهذه القسوة على الآلاف فى مركز التجارة العالمى، بما فى ذلك الكثيرون من غير الأمريكيين، وبعضهم مسلمون ينتمون لبلاد إسلامية، أمر ليس له أى مبرر من الشريعة أو الفقه الإسلامى وليس له سابقة فى التاريخ الإسلامى. والواقع أن التاريخ البشرى كله لم يشهد إلا أفعالا قليلة مشابهة لكل هذا الشر المتعمد الذى لا تمييز فيه. فتلك ليست مجرد جرائم ضد الإنسانية وضد الحضارة بل إنها كذلك، من وجهة النظر الإسلامية، عمل من أعمال التجديف بالله فى الوقت الذى يزعم فيه مرتكبوها أنهم يقومون بها باسم الله وباسم نبيه وباسم كتبه المقدسة.

لقد كان رد الكثير من المسلمين والعرب على الهجوم على مركز التجارة العالمى ردا مفعما بالصدمة والرعب لهذا الدمار الفظيع والمذبحة الشنيعة مقترنا بالعار والغضب لأن يرتكب هذا الفعل باسمهم وباسم عقيدتهم. كان ذلك رد الكثيرين وليس الجميع. لقد أفادت بعض التقارير، بل والصور، بأن البهجة سادت شوارع بعض المدن العربية والإسلامية بعد سماع أنباء نيويورك. كان رد الفعل ينطوى فى جانب منه على الحسد، وكان هذا الشعور واسع الانتشار فى أوروبا أيضا وإن كان صوته فيها خافتا. وساد بين الفقراء والبؤساء شعور بالارتياح - بل والسعادة لدى البعض - لرؤية الأمريكيين الأغنياء المنغمسين فى ملذاتهم يُلقنون درسا.

وكانت ردود الفعل فى الصحافة العربية تجاه مذابح نيويورك وواشنطن تتسم بتوازن يتراوح بين الإنكار والتأييد، وهو أشبه برد فعلها تجاه المحرقة (*) . فهناك ثلاثة مواقف تتكرر فى وسائل الإعلام العربية تجاه المحرقة : أنها لم تحدث أبدا، أو أنها كان مبالغا فيها بدرجة كبيرة، أو أن اليهود فى جميع الأحوال كانوا يستحقونها. وفى هذه الحالة الأخيرة يضيف بعض الكتّاب الأكثر جرأة تأنيبا لهتلر على أنه لم يقض عليهم تماما. ولم يؤكد أحد بعد أن تدمير مركز التجارة العالمى لم يحدث أبدا وإن

(*) للاطلاع على هذه التقارير وغيرها عن وسائل الإعلام العربية راجع معهد بحوث الشرق الأوسط، واشنطن دى. سى. www.memri.org

لم يكن ذلك مستحيلا على أصحاب النظريات التآمرية مع مرور الوقت. والاتجاه السائد الآن بين الكثير من المعلقين المسلمين، وإن لم يكن جميعهم، هو القول بأنه لا يمكن أن يكون العرب ولا المسلمون هم الذين قاموا بذلك. وهم يقدمون تفسيرات أخرى توجه الاتهام نحو الأمريكيين الذين يؤمنون بتفوق البيض والمناضلين من أجل ذلك، مع الإشارة بطبيعة الحال إلى حادثة أوكلاهوما وإلى مرتكبها تيموثي ماكفيي؛ وإلى معارضي العولمة؛ وإلى الأوروبيين والصينيين وغيرهم من معارضي مشروع الدفاع الصاروخي المعروف بالدرع الواقي، وإلى الروس الذين يريدون الانتقام لتفكيك الاتحاد السوفييتي، وإلى اليابانيين كرد طال انتظاره على ما حدث في هيروشيما .. وما إلى ذلك. بل إن كاتبا صحفيا يذكر أن الرئيس بوش هو الذى نظّم الهجوم ليبعد الانتباه عن الانتخابات التى أتت به للرئاسة "بأغلبية ضئيلة لا تكفى لانتخاب عمدة فى قرية فى جنوب مصر". ويلقى هذا الكاتب باللائمة كذلك على كولين باول باعتباره شريكا لكل من الرئيسين بوش.

والتفسير الأكثر شيوعا بكثير يعزو هذه الجريمة، مع بعض الاختلافات الثانوية، للأشرار المفضلين لدى أصحابه أى إلى إسرائيل، وإلى الموساد (بالاشتراك مع السى. آى. إيه فى رأى البعض) وإلى حكماء صهيون، أو ببساطة أكبر وبمزيد من الارتياح إلى "اليهود". ويسمح لهم ذلك بتقدير هذه الهجمات واستنكارها فى نفس الوقت. ودافع اليهود إلى ذلك هو إظهار العرب والمسلمين بشكل عام فى صورة سيئة وبث بذور الفرقة بينهم وبين الأمريكيين. وقد أضاف كاتب صحفى أردنى نقطة أخرى مثيرة للاهتمام وهى أن "المنظمات الصهيونية" قامت بهذه الهجمات حتى تتمكن إسرائيل من تدمير المسجد الأقصى فى الوقت الذى تتجه فيه أنظار العالم إلى أمريكا. ولا يحول هذا النوع من التفسير دون الآراء التى تم التعبير عنها مرارا بأن ما حدث، رغم أنه جريمة، كان جزاءً وفاقا للجرائم الأمريكية، بل إنه يشجع مثل هذه الآراء. ولعل أكثر هذه الآراء درامية – وصراحة – هو ما جاء فى المجلة الأسبوعية التى تصدرها حركة حماس فى غزة بعنوان "الرسالة" فى عددها الصادر فى ١٣ سبتمبر ٢٠٠١ إذ قالت : "استجاب الله لدعائنا".

ومع تكشف الأبعاد الرهيبة الكاملة لهذه العملية على نحو أفضل أصبح بعض الكتّاب أكثر استعدادا للتعبير عن إدانتهم لمرتكبيها ولتعاطفهم مع الضحايا. لكن هؤلاء الكتاب أنفسهم لم تفتهم فرصة الإشارة إلى أن الأمريكيين جلبوها على أنفسهم. فقائمة الجرائم الأمريكية التى يذكرونها طويلة ومفصلة تبدأ بغزو واستعمار العالم الجديد واستيطانه حتى اليوم – وتلك ألفاظ مؤثرة – كما أن قائمة ضحايا الأطماع والبطش الأمريكيين فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية طويلة كذلك.

وقد أوضح أسامة بن لادن نظوته للصراع بتكراره وصف أعدائه بالصليبيين. ومن الجدير بالذكر أن الصليبيين لم يكونوا أمريكيين ولا يهودا بل كانوا مسيحيين يخوضون حربا مقدسة لاسترداد الأماكن المقدسة التى فقدها العالم المسيحى. وفى "رسالة إلى أمريكا"، نشرت فى نوفمبر ٢٠٠٢(*)، ونسبت إلى أسامة بن لادن، تعدد الرسالة بشىء من التفصيل بعضا من الجرائم التى ارتكبت، ليس فقط من جانب الحكومة الأمريكية بل كذلك من جانب شعب الولايات المتحدة، وتبين تحت سبعة عناوين "ما ندعوكم إلى القيام به وما نريده منكم". أول هذه الأمور اعتناق الإسلام؛ وثانيها "التوقف عن القهر وعن الكذب والسلوك غير الأخلاقى والانحلال"؛ وثالثها معرفة أن أمريكا "أمة بلا مبادئ أو آداب" والاعتراف بذلك؛ ورابعها التوقف عن مساندة إسرائيل فى فلسطين، والهنود فى كشمير، والروس فى الشيشان، وحكومة مانيلا ضد المسلمين فى جنوب الفيلبين؛ وخامسها "أن تجمعوا أمتعتكم وترحلوا عن بلادنا". وقد صيغ ذلك على سبيل النصيحة لصالح أمريكا نفسها" حتى لاتضطرونا إلى شحنكم فى نعوشكم". وسادسها "أن تتوقفوا عن مساندة الحكام الفاسدين فى بلادنا ولا تتدخلوا فى سياستنا ونظم التعليم لدينا، واتركونا وشأننا وإلا فعليكم أن تتوقعوا حضورنا إلى نيويورك وواشنطن". وسابعها "التعامل مع المسلمين والتفاعل معهم على أساس المصالح والمنافع المتبادلة وليس على أساس سياسات الإخضاع والسرقة والاحتلال". وتنتهى الوثيقة

(*) وزع النص الكامل للرسالة باللغتين العربية والإنجليزية عبر شبكة إنترنت على نطاق واسع فى نوفمبر ٢٠٠٢ وبسبب الاختلافات فى الأسلوب وفى الرؤية فإنه من غير المرجح أن يكون أسامة بن لادن هو مؤلفها فعلا.

بقولها للأمريكيين إنهم "إذا رفضوا هذه النصيحة فإنهم سيهزمون كما هزم الصليبيون من قبل وسيلقون نفس مصير السوفييت الذين هربوا من أفغانستان ليتجرعوا جراح الهزيمة العسكرية والتفكك السياسي والانهيار الأيديولوجي والإفلاس الاقتصادي".

وتتضمن الوثيقة تفصيلات عديدة في شأن الخصومة مع أمريكا. فهي تتضمن، بالإضافة إلى الشكاوى المحددة المألوفة، مجموعة من الاتهامات العامة والخاصة. وهي ذات مصادر متنوعة يسهل في العادة التعرف عليها، وتعبّر عن الأيديولوجيات المتتابعة التي أثرت في أوقات مختلفة على السياسيين والسياسات في الشرق الأوسط ؛ يرجع بعضها إلى العهد النازي مثل الانحلال وسيطرة اليهود بالكامل؛ ويرجع بعضها إلى فترة النفوذ السوفييتي مثل المطامع والاستغلال الرأسمالي. والكثير منها ذو منشأ أوروبي حديث بل وأمريكي أيضا ويعزىٰ إلى كل من اليمين واليسار على السواء، وتشمل التلوث العالمي ورفض التوقيع على اتفاقات كيوتو، والإفساد السياسي من خلال تمويل الحملات، وتمييز "الجنس الأبيض"؛ وجاء من اليمين أسطورة النازيين الجدد حول تفوق الجنس الأبيض التي حذر منها بنجامين فرانكلين والخطر اليهودي. وشددت الوثيقة على الدور الشرير الذي يقوم به اليهود في معظم هذه الجرائم.

بل إن الميزات التي يتباهى بها أسلوب الحياة الأمريكية أصبحت جرائم وخطايا. فتحرير المرأة يصبح انحلالا واستغلالا تجاريا للنساء "كمنتجات استهلاكية". والانتخابات الحرة تعني أن الشعب الأمريكي اختار حكامه بحرية كاملة ويتعين لذلك أن يكون مسئولا عن أخطائهم وأن يعاقب عليها، أي أنه ليس هناك "مدنيين أبرياء". والأسوأ من ذلك كله "فصل الكنيسة عن الدولة". "إنكم أمة اختارت أن تخترع قوانينها الخاصة وفقا لإرادتها ورغبتها بدلا من أن تنزل على شريعة الله في دستورها وقوانينها". "إنكم تفصلون الدين عن سياساتكم الأمر الذي يتعارض مع الطبيعة التي تؤكد أن السلطة المطلقة لله خالقكم". والخلاصة "أنكم أسوأ حضارة عرفها التاريخ البشري". وهذا الحكم لافت تماما للنظر لأنه يجيء في وقت لا تزال فيه ذكريات الديكتاتوريات النازية والسوفييتية حية في الأذهان، ناهيك عن النظم المستبدة السابقة التي سجلها التاريخ والتي كثيرا ما يشير إليها أسامة بن لادن ورفاقه.

والسبب الأساسى لكل ذلك أنه ينظر الآن إلى أمريكا على أنها زعيمة ما يطلق عليه عامة "الغرب"، و"العالم المسيحى" أو بصفة أعم "بلاد الكفار". والرئيس الأمريكى، بهذا المعنى، يصبح خلفا لسلسلة طويلة من الحكام : الأباطرة البيزنطيين فى القسطنطينية، وأباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة فى ڤيينا، والملكة فيكتوريا وزملاؤها وخلفاؤها الإمبرياليين فى أوروبا. وكما كان الشأن فى الماضى فإن العالم المسيحى غير المؤمن ينظر إليه اليوم باعتباره القوة الوحيدة التى يعتد بها التى تنافس وتعوق الأمر الإلهى بنشر الإسلام، فهى تقاومه وتعطله ولكنها لن تحول فى النهاية دون انتصاره الحتمى فى العالم كله.

ولا شك فى أن إنشاء تنظيم القاعدة وإعلانات الحرب الصادرة عن أسامة بن لادن التى تبعت ذلك تعتبر بداية لمرحلة جديدة تنذر بالشر فى تاريخ كل من الإسلام والإرهاب. وما أدى إلى قيام ابن لادن بهذه الأفعال، كما أوضح ذلك صراحة، هو التواجد الأمريكى فى بلاد العرب أثناء حرب الخليج مما اعتبره تدنيسا للأراضى الإسلامية المقدسة، واتخاذ أمريكا للمملكة العربية السعودية قاعدة للهجوم على العراق. وإذا كانت بلاد العرب هى الرمز الأول فى العالم الإسلامى فإن بغداد، مقر الخلافة لأكثر من خمسمائة عام والتى شهدت أعظم فصول التاريخ الإسلامى وإنجازاته، هى الرمز الثانى.

وربما كان هناك باعث آخر أكثر أهمية لدى ابن لادن. فقد كان بوسع المسلمين الذين يحاربون الغرب، فى الماضى، التوجه إلى أعداء الغرب للحصول على الترضية التى يريدونها وعلى التشجيع والمساعدة المادية والعسكرية. وللمرة الأولى خلال قرون عديدة لم يعد هناك مثل هؤلاء الأعداء النافعين. وسرعان ما أدرك ابن لادن وجماعته أنهم إذا كانوا يريدون، فى ظل التشكيل الجديد للقوى فى العالم، أن يحاربوا أمريكا فإن عليهم أن يقوموا بذلك بأنفسهم. ففى سنة ١٩٩١، وهو نفس العام الذى زال فيه الاتحاد السوفييتى من الوجود، أنشأ ابن لادن وجماعته تنظيم القاعدة الذى ضم كثيرا من المحاربين المخضرمين فى أفغانستان. وربما بدت مهمتهم رهيبة فى نظر الآخرين ولكنها لم تكن كذلك فى نظرهم. ففى رأيهم أنهم هم الذين أخرجوا الروس من أفغانستان وألحقوا بهم هزيمة ساحقة أدت مباشرة إلى انهيار الاتحاد السوفييتى. وإذ

كانوا قد تغلبوا على القوة العظمى التى كانوا يرون فيها قوة هائلة، فقد باتوا على استعداد للتعامل مع القوة الأخرى؛ وقد شجعهم على ذلك الرأى الذى كثيرا ما عبر عنه ابن لادن من أن أمريكا نمر من ورق.

وقد شجعت مثل هذه المعتقدات الإرهابيين المسلمين من قبل. فمن الأمور التى أثارت كثيرا من الدهشة فى مذكرات أولئك الذين استولوا على السفارة الأمريكية فى طهران من سنة ١٩٧٩ إلى سنة ١٩٨١، أنهم كانوا يعتزمون أصلا احتجاز المبنى والرهائن لعدة أيام فقط. لكنهم غيروا رأيهم عندما أوضحت تصريحات واشنطن أنهم لا يتعرضون لاحتمال القيام ضدهم بأفعال خطيرة. وقد أفرجوا فى النهاية عن الرهائن لأنهم، كما قالوا، خشوا من أن يقوم الرئيس المنتخب، رونالد ريجان، بمعالجة المسألة بأسلوب "رعاة البقر". ومن الواضح أن ابن لادن وأتباعه لا يقلقهم ذلك وأن الكراهية التى تدفعهم لا يحد منها خوف ولا يقلل منها احترام لأحد.

وكثيرا ما يشيرون إلى سوابق مثل الانسحاب من فيتنام ومن لبنان – والأهم من ذلك كله فى نظرهم – الانسحاب من الصومال. وللتعليقات التى أبداها ابن لادن، فى مقابلة له مع جون ميللر، من محطة إيه. بى. سى. الإخبارية فى ٢٨ مايو ١٩٩٨، أهمية خاصة. قال :

> *"لقد شهدنا خلال العقد الماضى انهيار الحكومة الأمريكية وضعف الجندى الأمريكى، الذى هو على استعداد لشن الحروب الباردة ولكنه غير مستعد لخوض حروب طويلة الأمد. وقد ثبت ذلك فى بيروت عندما فر المارينز بعد حدوث انفجارين. ويدل ذلك أيضا على أنهم يستطيعون الهروب فى ظرف أربع وعشرين ساعة، وقد ثبت ذلك أيضا فى الصومال. وقد دهش [شبابنا] من ضعف الروح المعنوية لدى الجنود الأمريكيين .. فبعد ضربات قليلة فروا مهزومين .. ونسوا أنهم زعماء العالم وزعماء النظام العالمى الجديد. لقد غادروا وهم يسحبون الجثث ويجرون وراءهم أذيال الهزيمة والعار".*

ويعتبر أسامة بن لادن أن إعلانه الحرب ضد الولايات المتحدة إنما هو علامة على استئناف الصراع من أجل السيطرة الدينية على العالم، ذلك الصراع الذى بدأ فى القرن السابع. وتلك بالنسبة له ولأتباعه اللحظة التى لا ينبغى أن تفوت. فأمريكا اليوم تمثل الحضارة السائدة وتجسد زعامة دار الحرب، وقد أصابها الانحلال، شأنها شأن روما وبيزنطة، وأصبحت مهيأة للقضاء عليها. وبالرغم من نقاط ضعفها فإنها خطيرة مع ذلك. ولتسمية الخمينى للولايات المتحدة بأنها الشيطان الأكبر دلالتها، وبالنسبة لأعضاء تنظيم القاعدة فإن جاذبية أمريكا وأسلوب حياتها المتهتك والمنحل هو الذى يمثل الخطر الأكبر على نوع الإسلام الذى يريدون فرضه على المسلمين الآخرين.

لكن هناك آخرين تمثل أمريكا بالنسبة لهم نوعا آخر من الإغراء : حقوق الإنسان الموعودة، والمؤسسات الحرة والحكومة المسئولة التى تمثل الشعب فعلا. وهناك عدد متزايد من الناس، بل وبعض الحركات أخذت على عاتقها تلك المهمة المعقدة وهى إدخال مثل هذه المؤسسات فى بلادها. وليس هذا بالأمر السهل. فقد أدت محاولات مماثلة، كما سبق القول، إلى إيجاد كثير من الأنظمة الفاسدة القائمة اليوم. فمن بين الدول السبع والخمسون الأعضاء فى منظمة المؤتمر الإسلامى هناك دولة واحدة، هى الجمهورية التركية، عملت بها مؤسسات ديموقراطية عبر فترة طويلة من الزمن واستطاعت، بالرغم من المشكلات الصعبة والمستمرة التى تواجهها، أن تحرز تقدما على طريق إنشاء اقتصاد متحرر ومجتمع ونظام سياسى حر.

وفى بلدين من هذه البلدان، هما العراق وإيران، اللتان تقوم فيهما نظم معادية لأمريكا، توجد معارضة ديموقراطية قادرة على تولى السلطة وتشكيل الحكومة. ونستطيع نحن، فيما نسميه العالم الحر، أن نقوم بالكثير لمساعدتهما ولكننا لم نقم بغير القليل. وهناك فى معظم دول المنطقة أناس يشاطروننا قيمنا ويتعاطفون معنا ويودون أن يتبعوا أسلوب حياتنا. إنهم يفهمون الحرية ويريدون ممارستها فى بلادهم. وقد يكون من الصعب علينا أن نساعد هؤلاء الناس ولكننا ينبغى على الأقل ألا نعرقل جهودهم. فإذا نجحوا فإنهم سيكونون أصدقاء وحلفاء لنا بالمعنى الحقيقى وليس فقط بالمعنى الدبلوماسى لهذه الكلمات.

وإلى أن يتحقق هذا فإن هناك مشكلة أكثر إلحاحا. فإذا استطاع زعماء تنظيم القاعدة أن يقنعوا العالم الإسلامى بقبول آرائهم وقيادتهم فإن صراعا طويلا ومريرا سيكون فى انتظارنا؛ ولا يقتصر الأمر فى ذلك على أمريكا. فأوروبا، وبوجه خاص أوروبا الغربية، أصبحت مقرا لطوائف إسلامية كبيرة وسريعة النمو وبدأ كثير من الأوروبيين يرون فى وجودها بينهم مشكلة، بل تهديدا. وسوف يصطدم تنظيم القاعدة والجماعات المرتبطة به، إن عاجلا أو آجلا، بالجيران الآخرين للعالم الإسلامى - روسيا والصين والهند - الذين قد يكونون أقل اندفاعا من الأمريكيين فى استخدام قوتهم ضد المسلمين ومقدساتهم. فإذا كانت حسابات الأصوليين دقيقة ونجحوا فى حربهم فإن مستقبلا مظلما ينتظر العالم ولا سيما فى أنحائه التى تدين بالإسلام.

كلمة أخيرة

كانت نواة هذا الكتاب مقالا نشرته **The New-Yorker** في نوفمبر ٢٠٠١ . وأثناء قيامي بتحديث هذا المقال وتحويله من مقال طويل إلى كتاب قصير، اقتبست بتصرف بعض فقرات سبق نشرها ولا سيما في **Foreign Affairs** و **The Atlantic Monthly**. وفيما عدا ذلك فهو جديد تماما.

ويبقى عليّ أن أوجه الشكر إلى أولئك الذين ساعدوني في إعداد هذا الكتاب وإصداره. وأنا ممتن بوجه خاص لناشره الممتاز، جوي دي مينيل، ولمساعدتي آن ماري سيرمينارو لمساندتهما المستمرة لي، وإلى صديقتي بانتزي تشرشل لقراءتها النقدية للمسودات الأولى للكتاب واقتراحاتها لتحسينه، وإلى إيلي ألشيش، وهو طالب بالدراسات العليا في برينستون وقد ساعدني بمختلف الطرق في عملية البحث والإعداد. وأي قصور لا زال باقيا يقع بطبيعة الحال على عاتقي وحدي.

المؤلف فى سطور :

برنارد لويس

هو الأستاذ السابق لدراسات الشرق الأوسط فى جامعة برنستون ومؤلف كتاب : "The Middle East : A Brief History of the Last 2000 Years" الذى تم اختياره ضمن الكتب المرشحة لجائزة رابطة نقاد الكتب الوطنية، ومن بين كتبه الأخرى "The Emergence of Modern Turkey" و"The Arabs in History" وIslam and the West" و"The Arabs in History" و"Western Impact and Middle Eastern Response" و;What went wrong? وغيرها. عرف بتوجهه الصهيونى ، ونظرا لمكانته على الصعيد الدولى باعتباره أحد كبار مؤرخى الشرق الأوسط فى القرن العشرين فقد ترجمت كتبه إلى أكثر من عشرين لغة. وقد حصل على جائزة George Polk لمقاله عن "ثورة الإسلام" "The Revolt of Islam" الذى نشر فى The New Yorker والذى توسع فيما جاء به فى هذا الكتاب.

المترجم فى سطور :

أحمد محمد حسين هيكل المحامى

تخرج فى كلية الحقوق بجامعة القاهرة فى سنة ١٩٦٠ وتخصص فى دراسته العليا فى القانون الدولى العام - عمل فترة طويلة بجامعة الدول العربية بالقاهرة واشتغل بالترجمة لدى كثير من المنظمات والمؤتمرات الدولية فى مصر وفى الخارج - نشر "مقالات محمد حسين هيكل" فى عدة مجموعات وترجم عن الفرنسية كتابه "دين مصر العام" الذى نشر فى إطار المشروع القومى للترجمة .

مقدم الترجمة العربية فى سطور :

رءوف عباس حامد

أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب - جامعة القاهرة ، له مؤلفات عديدة فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر .

المحتويات

- أزمة الإسلام أم أزمة العصر ؟ 7
- تقديم ودراسة للدكتور رءوف عباس 9
- الإسلام وأزمة العصر «حرب مقدسة وإرهاب غير مقدس» 31
- الخرائط : عصر الخلفاء 33

الإمبراطورية العثمانية 35

عصر الإمبريالية 37

الشرق الأوسط فى العصر الحاضر 39

- مقدمة 41

الفصل الأول: تعريف بالإسلام 55

الفصل الثانى: دار الحرب 73

الفصل الثالث: من الصليبيين إلى الإمبرياليين 85

الفصل الرابع: اكتشاف أمريكا 97

الفصل الخامس: الشيطان والسوفييت 109

الفصل السادس: المعايير المزدوجة 125

الفصل السابع : إخفاق الحداثة 133

الفصل الثامن : اقتران السلطة السعودية بالتعاليم الوهابية 139

الفصل التاسع : تصاعد الإرهاب 151

- كلمة أخيرة 171



مكتبة الأسرة

هذا العام نحتفل ببلوغ مكتبة الأسرة عامها العاشر وقد أضاءت بنور المعرفة جنبات البيت المصرى بأكثر من ٨٠مليون نسخة كتاب من أمهات الكتب فى فروع المعرفة الإنسانية المختلفة.. ومنذ عشرة سنوات تفتحت عيون أطفال كانوا فى العاشرة من عمرهم على إصدارات مكتبة الأسرة وكانت زادهم المعرفى عبر السنوات العشره الماضية لتلهب فى تلك العقول الشابة الآن نهم المعرفة من خلال القراءة وكنا ندرك منذ البداية أن المعرفة هى سلاحنا الأمضى لتأخذ مصر مكانتها فى ذلك العالم الجديد الذى تتفوق فيه المعرفة على القوة والمال لأنها تحمل الإنسان إلى آفاق لا حدود لها فى عالم متغير شعاره ثورة المعلومات وسرعة [illegible] كل وسائل الإتصال ولم يكن منطقيا أن نقف مكتوفى الأيدى.. فكانت مكتبة الأسرة بكل ما قد[illegible] أساسية نستقبل بها ذلك العصر الجديد، عصر المعرفة وإننا لنتطلع فى الأعوام القادمة أن تو[illegible] الأسرة ثمارها اليانعة وتساهم فى التغير المعرفى والتكنولوجى لمعطيات العصر لتفسح المجا[illegible] يشارك بدور فاعل فى تقدم البشرية الجديد لنكون امتدادا حضاريا معاصرا للحضارة المصر[illegible] التى كانت أهم وأقدم الحضارات الإنسانية عبر التاريخ.





السعر ١٥٠ قرش